الباب الثالث

حملة الأعلام

ـ ٣٤ ـ

البحث عن مصر

كان الحديث بيننا ـ هذه المرة ـ عن الاستمرارية والانقطاع فى الشخصية المصرية، وكذا عن موضوع تزايد الخلافات ـ حسبما يراه صديقى ـ بلا سبب واضح ولا وجهة محددة. رأيت أن أختصر الوقت، فسألته عن أهم الكتب التى صدرت فى مصر خلال الحقبة الأخيرة، أو منذ أيام شبابه فى الجامعة، توقف لحظة، ثم لحظات سألنى: إن كنت أقصد الكتب العربية، أم ماذا؟ قلت: الكتب المصرية الصادرة فى بلادنا منذ أيام أن كنت أنت طالبا بجامعة القاهرة. توقف لحظة ثم سكت. صدمة أولى فى مطلع هذا الصيف الخطير المشحون بالتحديات، رحت أتأملها وكأنها خلاصة الكثير من السهام التى بدأت تصيب التفكير الرصين فى أحوال مصرنا المحروسة منذ فترة.

ثم رحت أقلب صفحات العدد الخاص بالعالم الإسلامى للمجلة الأسبوعية البريطانية الكبرى «ملحق التايمز الأدبى TLS ٢١/ ٣/ ٢٠٠٠»

«وفى هذا العدد مقال على صفحتين كاملتين لمراجعة كتاب ظهر حديثا بإشراف م. دالى» عنوانه «تاريخ كمبريدج لمصر» يشمل مجلدين الأول عن «مصر الإسلامية» (٦٤٠ ـ ١٧١٧) والثانى عن «مصر الحديثة منذ ١٥١٧ حتى نهاية القرن العشرين» استعجبت لهذا التبويب الغريب: أفلم يوجد على أرض مصر شىء اسمه «مصر» قبل ٦٤٠؟ هذا مع العلم أن المؤلف والمراجع فى المجلة يتحدثان بإسهاب عن مصر الفرعونية، أحيانا بالإطراء وأخرى بالتعجب. ولكن الغريب جدا أمر المجلد الثانى. فكيف يمكن أن تكون مصر الحديثة بدءا من دخول السلطان سليم الطاغية العثمانى ومذبحة «طومان باى» وتدمير معانى السيادة المصرية؟ ما معنى هذا التبويب اللافت، الخارج؟ رحت أطالع المقال، وهو بقلم واحد باسم «شارك ملفيل» زميل كلية بيمبروك

وهو مدرس الإسلاميات بجامعة كمبريدج. وإذ به ينتهى إلى خلاصة مراجعة المجلدين. ولعله خلاصة تفكيره هو يقول: «بقى أن نتعجب كيف تستطيع حكومة وشعب مصر أن يجمعا بين القديم والإسلامى والحديث فى حياتهم؟ فإن تركنا هذا السؤال ليجيب عليه المصريون وهم الذين يبدو أن هويتهم فى نهاية الأمر يمكن تعريفها بشكل متكامل بأنهم جماعة السكان التابعة..» توقفت عند هذا التعبير الغريب «جماعة السكان التابعة».

وكأن جماعة المصريين وشعب مصر كله، بل وشعب مصر والدولة كلهم ينتمون إلى نوع جديد من التجمعات السكانية ليطلق عليها «التابعين» أو «التوابع».. وهذا كله على لسان شاب داعية ينتمى إلى أعرق جامعة فى الغرب.

تساءلت: لا شك أن مستشارنا الثقافى فى لندن يتحرك لتوضيح الأمر. ولا أقول لشجب الداعية. ولكن ـ بطبيعة الأمر ـ لم يحصل أى شىء، كما لا يحدث شىء أبدا كلما تهجمت علينا يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر أقلام أعداء مصر فى الصحافة والإعلام والنشر الغربى. مرة أخرى على تنوع درجة التنكر والمعاداة هنا وهناك.

ثم ـ وفى الطريق إلى مراجعة حديثة ـ توقفت عند عبارة جاءت على قلم الدكتور إدوار سعيد (الحياة ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٠):

«كم من العرب فى الوقت الحاضر يشعرون بأن هويتهم واضحة وإيجابية. أفلم نسمح نحن أيضًا لإرهاب الأجانب أن يكبح التفكير بوضوح لشجب هذه القضية؟» مما جعل من هويتنا «هوية هشة حقا» فى رأيه. وإذ بملف القصاصات يقدم ساحة واسعة من التساؤلات والطروح غير المعهودة فى الجو المصرى قبل الآن. وقد تركز السؤال ـ التساؤل. المرة تلو المرة. حول هوية مصر: مصرية؟ عربية؟ إسلامية؟ متوسطية؟ بل وعند القلة منا شرقية؟ إلى أن جاءت تساؤلات من طراز هل النموذج المصرى «قطرى» أم «قومى» هذا دون الالتفات إلى أن النموذج المصرى اعتاد أن يعرفه المصريون بأنه «وطنى» فلم يسمع منا أحد أن مصر «قطرية» قبل ١٩٥٦. وكذا لم يسمع بطبيعة الأمر مثل هذا النحت البعثى الدخيل بعد ١٩٥٨ عندما سقطت تسمية مصر بأنها «الإقليم الجنوبى» بعد إلغاء كلمة «مصر» والدستور، رحت أتساءل: هل من خيط ـ رفيع أم ثقيل. أبيض أو أحمر أو لعله أسود ـ يربط بين هذه الموضوعات كلها؟

وفى هذا الجو التساؤلى الحاد, عبر التخبط, إذ بصديق كريم يقول فى إهدائه آخر مؤلفاته فى مطلع شهر أبريل ٢٠٠٠ إنه إنما يهدى هذا الكتاب إلى صديق عزيز لأنه من القلائل الذين يتكلمون عن مصر.. لا أعرف حقيقة إذا كان الأمر كذلك. ولكننى لاحظت ـ فيما لاحظنا جميعا ـ أن موضوع «مصر» أصبح محلا للتساؤل والتنقيب والبحث بشكل متزايد, وإن كانت غالبية الكتابات تنصب على «مسيرات» أخرى, على اعتبار أنها هى جوهر المسألة المصرية ـ وهى ليست كذلك.

مصر: الأركان والدوائر

بقى أن السؤال ـ التساؤل فى محله، لا شك أن خطة تغييب مصر وإضعاف شعور الانتماء والوحدة العريقة مسئولة إلى حد غير قليل عن الجو الذى يسود المسألة المصرية فى أيامنا ـ ولكن الموضوع فى حاجة إلى تدقيق لا لنتوه فى متاهة.

أولاً: لا شك أن هناك أرضية خصبة ـ من الناحية المجتمعية والثقافية / الفكرية معا ـ أتاحت لهذه الخطة المحكمة الشرسة أن تنفذ إلى الداخل. فهل يمكن أن ندرك معالم هذه الأرضية بالبحث المتأنى معا؟

١ ـ عود بنا إلى ابن خلدون, المفكر العلم الذى أنشأ علم التاريخ والاجتماع فى القرن الخامس عشر, وإلى وصفه لمصر التى إليها لجأ وعلى أرضها أنشأ موسوعته العظيمة, ومع أنه يستعمل العبارات التى احتلت وجدان المصريين دون انقطاع منذ القرن الخامس عشر, وهو الذى نعت مصر بأنها مصر المحروسة وأنها أم الدنيا. استمر المصريون يدركون وطنهم المصرى على هذه الصورة دون كلفة ولا حرج حتى منتصف القرن العشرين، كانت مصر التى عشناها على هذه الصورة هى مصر الخالدة, مصر الحضارة الأولى فى تاريخ البشرية وامتدادها حتى مصر الإسلامية بعد ٦٤٠ مرورا بالمرحلة القبطية (أى المسيحية المصرية) استمر هذا الشعور وذلك الإدراك المتصل من القرن الحادى عشر حتى القرن الثامن عشر, من الدولة الطولونية حتى على بك الكبير. وكذا تأكد خلال عصر نهضة مصر الحديثة بريادة محمد على, وامتدادها إلى ثورات مصر قبل وبعد الاحتلال، وتأكد بعد حصول مصر على الاستقلال الدستورى ١٩٢٣ حتى انطلاق الحركة الثورية الشعبية فى الأربعينيات من القرن العشرين.

٢ ـ كان طبيعيا أن تبحث مصر الدولة عن مجال للتحرك، أى الأحلاف والمساندة والدعم والمواكبة، بدأ الأمر منذ عصر محمد على الذى اختار الدائرة الإسلامية، مطالبا السلطان بأن يعتمد على قوة مصر النامية لإعادة مجد الخلافة الإسلامية بصورة عصرية ؛ مما أثار عليه ثائرة دول أوروبا ومهد الطريق للاحتلال البريطانى ١٨٨٢، وراح مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى ثائرًا يتجه إلى الشرق فى كتابه المنسى «المسألة الشرقية» (١٩٠٦).

الذى اختفى حتى من ذاكرة المؤرخين، بينما كان بمثابة البرنامج الفكرى السياسى للحزب الوطنى فى مطلع القرن العشرين.

ثم امتد نظر الوفد بعد ثورة ١٩١٩ إلى الدائرة المتوسطية العربية الأقرب، وكذا إلى التحالف مع الهند ضد الاحتلال البريطانى، حتى حدد طلعت حرب أن نقطة البدء إنما هى مصر الوطن والأمة عندما رفع شعاره التاريخى «نريد بنكا مصريا لكل المصريين» ٧/ ٥/ ١٩٢٠.

وهو الذى أصبح منذ هذا التاريخ بنك مصر، مركز تمويل شبكة شركات مصر الصناعية والزراعية والتجارية التى كانت أساس الرأسمالية الوطنية منذ مطلع الثلاثينيات حتى الستينيات من القرن العشرين ، ثم انتقل طلعت حرب من هذه الأرضية الثابتة فاتجه إلى الدائرة الأوسع الإسلامية، ورأى فى بعدها الأقرب ـ البعد العربى ـ دائرة التحرك المصرى الواقعية والواجبة، وقد انعكس هذا التوجه العربى ـ من حيث كونه دائرة التحرك والتأثير وليس تعريفا للهوية المصرية ـ إلى قلب حزب الوفد عندما أعلن مكرم عبيد ـ الأمين العام آنذاك ـ أن «المصريين عرب» فى خطبته التاريخية بالإسكندرية عام ١٩٣٩.

كان هذا هو بدء الدعوة إلى تكوين جامعة الدول العربية وإقامة أمانتها العامة فى القاهرة عام ١٩٤٥.

وبعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢

اتسع الأمر بحيث بدأ التفكير فى الدوائر الثلاث : العربية، الإسلامية، الإفريقية، كان هذا التوجه المهم نقطة تحول وانتقال إلى مرحلة أكثر تقدما ، ولكن الأمر اختلط، وما زال عند قطاع غير قليل للرأى العام : فهل أن هذه الدوائر هى الدوائر التكوينية للشخصية المصرية؟ أم أنها دوائر تحرك الدولة التى تعبر عن هذه الشخصية؟

٣ ـ المفهوم الأول: يحدد أن هوية مصر، أى أن «المصرية» هى تكوين يمزج بين مكونات ثلاثة: عربية وإسلامية وإفريقية، بينما التوجه الثانى يؤكد أن شخصية مصر تعبر عن الصياغة التاريخية للأمة المصرية منذ بدء التاريخ المصرى الفرعونى، وتؤكد كذا أن لهذه الأمة وللدولة الوطنية التى تمثلها إطارات للتحرك يحددها الواقع والمصلحة وكذا الترابط الثقافى والدينى على صورة الدوائر الثلاث المعروفة، ومعنى هذا أيضًا أنه من الممكن دراسة صياغة أخرى ــ أو صياغات أخرى ــ تمثل بدائل الاختيارات السياسية، أى اختيارات التحرك المصرى الخارجى، يمكن ـ مثلا ــ أن تكون هناك دوائر تحرك إسلامية وشرقية بوجه عام، أو دوائر إفريقية نيلية وعربية فى الأساس، أو ربما أيضًا الدائرة المتوسطة العربية ـ الأوروبية، أو دائرة عالم الجنوب الآسيوى الإفريقى وامتداده إلى أمريكا اللاتينية، أى أن اختيار الدوائر لا يمت إلى جوهر الهوية القومية، إلى الصياغة التاريخية للأمة المصرية، وإنما إلى اختيارات هذه الأمة لمجالات التحرك التى تراها لازمة ونافعة لتأمين استقرارها ومستقبلها.

من الواضح أن التركيز على الدائرة العربية قبل الدائرتين الإفريقية والإسلامية كان يعكس أهمية مشاركة شعوب العالم العربى ودوله فى الكفاح المشترك ضد الإمبريالية فى شرقنا الذى قالوا عنه إنه «الأوسط» من ناحية، وكذا الإفادة من الروابط الثقافية على أساس المشاركة فى اللغة على وجه التخصيص، وقد ترتب على هذا الموقف الواقعى الإيجابى أن القيادة المصرية انتقلت إلى اعتبار أن مصر الوطن لا تمثل أمة متميزة فى حد ذاتها، وإنما هى جزء من أمة أوسع أطلق عليه الأمة العربية، بحيث بلغ الأمر أن مشروع الوحدة الأول بين مصر وسوريا ألغى لأول مرة فى تاريخ مصر تسمية مصر من لقب الوطن الذى أصبح الإقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة، بينما سوريا كانت هى الإقليم الشمالى، عند هذا الحد اختلطت الأمور بشكل خطير، وكانت هى سبب فى تفتت الوحدة بعد أقل من سنتين، إذ لم يدرك القائمون بهذا المشروع التاريخى الكبير أن الوحدة بين الأمم على أساس كونفيدرالى ــ على أحسن تقدير ــ لا يمكن إلا وأن تبدأ من مبدأ احترام خصوصية الأمم والأوطان التى لها مقومات الأمة والوطن، أولا وقبل كل شىء.

٤ ـ وقد اقترن هذا التوجه إلى اعتبار أن كل ما سبق٢٣ يوليو ١٩٥٢ لا يعنى مصر الثورة.. تحولت أسرة محمد على عظيمة الشأن فى تاريخنا الحديث والمعاصر إلى «الأسرة

الملكية الغابرة» على اعتبار أن ما تم على أيدى حكام مصر منذ ١٨٠٥ مجموعة من السلبيات لا قيمة لها لتأسيس المستقبل. وكذا فإن تاريخ مصر منذ الفتح العربى ظل باهتا. ولم يتنبه أحد أن مصر هى الوطن الأوحد الذى أصر ونجح فى إقامة دولته الوطنية المستقلة على أيدى أحمد بن طولون فى إطار الخلافة الإسلامية. وهو الأمر الذى يؤكد استمرارية الأمة المصرية ـ أى القومية المصرية حول دولتها المستقلة ـ أيا كانت الإطارات الحضارية أو الفكرية المرحلية المحيطة. وكذا كان الأمر بالنسبة للعصر القبطى الذى طويت صفحته ولم يعد إلى الوجود إلا منذ قليل فى تاريخنا القومى، أما مصر الفرعونية فأصبحت مجالا للسياحة والمتاحف، وكأنها قامت لمدة خمسين قرنا على كوكب بعيد. لعله المريخ. وكأن سكانها ومجتمعها يمتون إلى متحف يختص به المستشرقون المعنيون بشأن المومياوات. إلى هذا الحد نسينا. وتناسينا. وتهنا.. كان هذا ـ وما زال ـ هو الأساس المجتمعى والفكرى الغريب الذى عمل على إضعاف الصورة المصرية القومية فى أذهان قطاع مهم من شباب مصر بعد ١٩٥٨. وقد بدأ العود إلى الأمة المصرية أساسا للوجود المصرى فى أثناء عبور أكتوبر ١٩٧٣ المجيد. وهو الذى قد أعاد إلى أذهان الجميع أمجاد معارك رمسيس الثانى، خاصة معركة قادش (١٥٧٠ قبل الميلاد) التى فتحت طريق آسيا الغربية بدءا من الشرقين الأوسط والأدنى أمام الإمبراطورية الفرعونية، بعد كسر حملة غزوات الحيثيين.

هذا هو الجو الذى نشأت فى إطاره قصة القطرية ومفاهيم تمييع الأمة المصرية فى قومية قيل إنها أصلية بالنسبة لنا. ألا وهى القومية العربية، من هنا أيضًا بدأ عدم وضوح الرؤية لانتمائنا إلى قلب دائرة الحضارة الإسلامية. وكيف أن أقباط مصر اليوم هم مسيحيو الإسلام، وليس الجزء المصرى من المسيحية الغربية؟!

إن انكسار اتصالية الرؤية التاريخية والتخبط نتج عن تولى قطاع كبير ممن أطلقوا على أنفسهم أهل الثقة ـ أى أنصاف المتعلمين ـ فى مواجهة عموم الطبقة المتوسطة بجميع انتماءاتها السياسية والفكرية الذين وصموا بأنهم أهل الكفاءة غير المؤتمنين.

العولمة والتغييب

ثانيًا: إلى أن جاءت الموجة الثانية من المؤثرات التى راحت تخترق ثقافتنا الوطنية فى

جو ساده التراخى والتراضى مع كل وافد ما دام أنه يأتينا من الخارج, وبالتالى فهو ــ وكأنه بالأصالة ــ إيجابى، بل ومتفوق على كل ما هو قائم على أرض مصر. وقد بلغ هذا الأمر أوجه فى مرحلة كامب ديڤيد, أى مرحلة محاصرة ثمار حرب أكتوبر العظيم من الناحيتين السياسية والحضارية. ومنذ ١٩٧٧ ـ ١٩٧٩ أصبح اللحاق بركب الذين عادونا وحاصرونا وحاربونا هو مطلب الحداثة والتقدم. تحول ارتكاز مصر فى العالم من جبهة الشعوب والدول المعادية «الإمپريالية المتمسكة» باستقلالها يدا فى يد مع الدول الاشتراكية منذ مطلع السبعينيات حتى ١٩٩٠ إلى الاعتماد على الدولة الإمپريالية الأقوى, ربما بحجة إبعاد الشر والتعامل مع الواقع, وهو اعتبار واقعى له مبرراته, لكن هذا أيضًا من الواقعية والعملية لا يتناقض مع وجوب التعامل مع جميع القوى الصاعدة الجديدة على قدم المساواة بشكل متزن. فقدنا الاتزان, وبالتالى لم يصبح من الممكن ادعاء حماية صرح الثقافة الوطنية كما كان الأمر بين ١٩٢٣ و١٩٧٣, وهو الموقف الذى تجلى بصورة ساطعة بعد الحرب العالمية الأخيرة على أيدى طه حسين وفتحى رضوان وحسين فوزى وثروت عكاشة وأحمد قدرى, وهى الرسالة التى عبر عنها كتاب «فى الثقافة المصرية» لمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس عام ١٩٥٤, فى قلب مسيرة سياسية ـ فكرية كبيرة على أيدى الرواد: من محمد مندور وعبد الرحمن الشرقاوى وأحمد رشدى صالح إلى يوسف إدريس وكمال عبد الحليم وصلاح أبو سيف وجمال السجينى, حتى عبد الرحمن الأبنودى وصلاح عبد الصبور وعز الدين إسماعيل, وتشابكت معانيها فى الفيلم الأسطورى لشادى عبد السلام «المومياء».

كيف نكون؟

عود إلى بدء, كان التساؤل فى لقائنا الأخير, فى الحلقة التاسعة من سلسلة صحوة الأمم, نهضة الحضارات هو: ما السبيل إلى استرداد مكانة مصر فى دائرتها العربية فى مرحلة الانتقال من تغيير العالم إلى بدايات صياغة العالم الجديد؟ وخلصنا إلى أن المنهج الأمثل إنما هو البحث عن مصر, من هنا كانت المقدمات الأولى فى هذا الطريق.

سألنى صديق شاب عن موضوع البدء من جديد فى عملية البحث عن مصر, أراد

أن يفهم ما الذى يدفع بكاتب هذه السطور إلى أن يعرض لهذا الموضوع الحيوى الذى شغل حياته ـ حياتى ـ كما يقول ـ جنبا إلى جنب مع إعادة صياغة الفلسفة الاجتماعية فى توجه حضارى.

سؤال الصديق الشاب يصب فى الجوهر

والحق أن الموضوع الذى يعنينى فى المقام الأول وفى الصميم, إنما هو وضع حد لتغييب أجيال متعاقبة من المفكرين المصريين ينتمون إلى جميع الاتجاهات السياسية ومختلف مدارس الفكر فى وطننا, والتحول بدلا من هذا الواجب المبدئى المقدس إلى أسماء تبدو أنها لامعة, أى أنها أسماء يلمعها الإعلام الغربى ـ الصهيونى, سواء كانوا من وجوه الفكر العدمى الذى عبر عن مرحلة متقدمة لانحدار ثقافة الإمبريالية فى الغرب فى مرحلة صحوة شعوب الشرق ونهضة الشرق الحضارى من ناحية, أو من المستشرقين العرب الذين دأبوا على إعادة صياغة الإطار الفكرى والثقافى, ومن ثم السياسى, لأمتنا المصرية وعالمنا العربى منذ اشتداد شراسة هجمة التطبيع تحت ستار المسيرة.

نعم.. الهدف الأول والأسمى من سلسلة البحث عن مصر إنما هو وضع حد لتغييب إسهام المفكرين المصريين فى صياغة الفكر المصرى, فى قلب دائرته العربية والإسلامية والشرقية, وكذا فى قلب الساحة العالمية للفكر المعاصر، كلما تم ذلك موضوعيا فى المستوى اللائق.

الهدف الثانى من هذه العودة إلى البحث عن مصر إنما هو بيان اتصالية الفكر المصرى, على الرغم من عصر التغييب والتنكر. إننا الآن أمام ظاهرة مذهلة: ذلك أن العديد ممن يدعون لأنفسهم صفة «المفكر» و«المثقف», بل والريادة الفكرية والثقافية يديرون ظهورهم بعناد لما سبق, وكأن الأمر المرة تلو المرة تكرار لما حدث منذ ١٩٥٤, يبدءون من فراغ, وكأنهم رسل مرسلة لإعلان كلمة الحق فى بلد أصابه التسعير التخدير، فوقع فى غيبوبة بحيث أن كل شيء يجوز دون حياء ولا قيم, منظومات من الكتابات ترى النور تكاد تترجم إلى العربية موسوعات متخصصة عالمية معروفة, وكأن علماء العالم من بنات أفكارهم, فريق آخر «أشد مهارة», يسير فى ركب عدد محدود

من أحلام الراحلين وكأنه التابع المعين والتلميذ الأوحد. وريث التركة الفكرية التى بطبيعة الأمر يتقمصها هو ويعرض لها وكأنها من بنات أفكاره. ومن أجل هذا وعلى وجه التحديد. كان لزاما علينا أن نقدم لشباب مصر عرضا متأنيا دقيقا لاتصالية الفكر المصرى خاصة الفكر الرائد. بل والفاتح على المستويين القومى والعالمى. لكى يتسنى له أن يقوم بعملية التعبئة الفكرية القومية اللازمة. بدءا من التراكم الفكرى والثقافى المصرى الحديث. مما يؤكد خطاه وعزمه عبر الظلام.

كلمة أخيرة فى أجواء العاصفة القادمة غير المرتقبة. تبدأ وتنتهى من هوية مصر الحضارية والقومية.

السبيل إلى تأكيد معانى استمرارية مصر الحضارية. وخصوصية أمتنا المصرية. وكذا أبعاد الانتماء الثقافى العربى وروافد التآخى مع حضارتنا الإسلامية والشرقية لا يكون بمجرد الإعلانات والشعارات. السبيل الأوحد وكذا الأفضل إنما يكون بتعميق معانى الوحدة والاستمرارية والخصوصية. بعيدا عن التبعية والسلفية. ويشاء التاريخ أن أمتنا المصرية وشعبنا العريق ـ أى جوهر شخصية مصر ـ يملكان إرثًا مشرفًا وثريًّا يجب علينا جميعا أن نعمل على تعبئته بصدر رحب لنقطع الطريق على دعاة التفرقة على اختلاف نوعياتهم ومحاور تحركهم.

قال صاحبى : «لعلك تقول إننا ـ مرة أخرى. المرة تلو المرة ـ على موعد مع القدر؟ لعلك تحلم؟ أم ماذا؟ ألا ترى تكاثف الغيوم : واحد يدعى الأصالة فيقطع الطريق على أخيه لأنه يرفع لواء التجديد؟ وآخر يؤمن بأن المستقبل لن يكون إلا على أنقاض التراث؟ كل يبدأ من ذاته. ولحظته. فى عصر شعار «أنا.. أولا!». لعل القدر يتحدانا من جديد. يدفع بنا دفعا إلى طريق حب الوطن. يقتحم مخطط الأعادى.. يدا فى يد! أليس كذلك؟».

كيف يكون البحث عن مصر. فى مطلع المرحلة التاريخية التى تحيط بنا تحديا وأملا؟ رأيت أن أعمل فى إطار المتاح ودون تعجل على النحو التالى : تقديم عمل فكرى مهم فى رأينا يعنى بشئون الفكر أو الثقافة أو السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو الفنون أو

الآداب بما جدد طرح المعانى المعنية، وتقديم الجديد وإثراء مسيرة الفكر المصرى العريق.

وها هو فصل الصيف ـ الملتهب ـ المتعطش إلى الاستجمام والخيال والاكتشاف ـ يتيح فرصة لمراجعة الأداء والعودة إلى أمواج وأعماق المسيرة المصرية, يفسح المجال للقراءة, وللحوار لتصحيح المبالغات, لتشابك الأيدى, لتلاقى القلوب, إذن هيا بنا نلتقى هذا الصيف حول مجموعة أولى من مؤلفات وضعها عدد من المفكرين المجددين أو الرواد، على أن نعاود تحليل أمور الدنيا بعد ذلك، هيا بنا إلى رحلة الصيف.

حكاية « الاعتراف بالآخر »

ما علاقة هذه الديباجة بما يحاصرنا اليوم من سطحيات الأمية؟ هذه مثلا عبارة « هات من الآخِر » « أى ابدأ كلامك بالنتيجة التى تريد أن تصل إليها », معنى هذه الكلمات التى تبدو أنها مزاح, إنما هو إلغاء استمرارية واتصال التفكير العقلى الرصين, وكأن النهاية المطلوبة ليست خاتمة التحليل, بعد العرض والنقد, ولا هى ـ حاشانا الله ـ محصلة الموجات المتعاقبة للأداء الفكرى والثقافى والوطنى فى تفاعله مع الدائرة العالمية على تنوعها, وإنما تمثل ـ أى النهاية المطلوبة ـ « وجبة » فى الجو السوقى لعقلية السوق وهيمنة الفكر الواحد. لا مجال للبحث عن الجذور, ما دامت الجذور مرفوضة, نظرا لأنها تعبر عن خصوصية الطرح والأداء وتعتز بالإبداع الفكرى والثقافى الذاتى فى قلب مراحل التحرر والبناء والنهضة, أى أن بيت القصيد هو: الوصول إلى نتيجة, بالفهلوة, وهو الأمر الذى يمكن أن يتم من خلال النقل والنسخ والنهب دون رعاية أدنى القواعد الأخلاقية للمعاملات الإنسانية كما تعارف عليها الناس عبر التاريخ.

أى أن « آخرها » ـ النتيجة المطلوبة ـ تقتضى إلغاء مسيرة الصياغة التاريخية, إلغاء ذاكرة التاريخ, إلغاء العملية التاريخية كلها، أى فى نهاية الأمر: إلغاء تاريخ صياغة الشخصية القومية والعقل الجمعى للأمة.

قطاع واسع من الشباب تحاصره احتياجات الحياة اليومية وانسداد الأمل وغياب المشروع فتدفع به دفعا إلى جو من الغيبوبة تصبح فيه رموز الهيمنة والسطحية ومعانى العدمية هى الأمل من ماكدونالد إلى « التفكيكية »، من الطقوسية إلى القرية الواحدة,

إنها العقلية التى تدفع بقطاع واسع من الشباب ـ خاصة الفئات الثرية المحدثة ـ إلى أبعاد من الأنانية تصل إلى حد إنكار الآخر من أبناء الوطن، وهو الدافع الأساسى والأرضية المجتمعية الموضوعية لما نشهده اليوم مثلا من تزايد فى حوادث المرور والجرائم غير المألوفة، وكلها يعبر عن رفض التعايش فى الجماعة الوطنية. والتنكر لمعانى التضامن الوطنى. واعتبار الأمة عبئًا ثقيلاً ما دام هذا كله لا يؤدى إلى «آخرها».

ومن الطبيعى أن يتصاعد أمام هذا كله جو من الانغلاق والردة. لا يتنكر فقط للحضارات والثقافات الأخرى. وإنما يرفض فكرة تواصل التاريخ الحضارى والقومى والوطنى الذاتى المصرى رفضا قاطعا. وذلك بالتنكر لضرورة دراسة الصياغة التاريخية. والتوجه بدلا من ذلك إلى الانغلاق فى قوالب نمطية، واعتبار أن الطقوس والمظاهر والإخراج لها الأولوية على جوهر الإيمان والعقل.

هكذا نرى كيف أن الضربات التى صوبت إلى صرح الثقافة الوطنية ورجالها من الطبقة المتوسطة. المتحضرة فى هذا القرن انتهت إلى السلفية باسم الأصالة فى ذلك مواجهة. التبعية باسم الحداثة. إنها المتاهة التى خططت لها مراكز الهيمنة الإمبريالية والصهيونية منذ زمن طويل. منذ السويس ـ وخاصة بعد النكسة ـ واشتدت الحملة بعد حرب الاستنزاف وعبور أكتوبر ١٩٧٣، حتى بلغت ذروتها الآن بمحاولة اختراق أرض الوطن، الوجدان، الوئام. الإدارة.

ومعنى هذه المقدمات ـ التى تبدو وكأنها طبيعية ومعقولة ـ أننا وصلنا إلى ما يقرب من نهاية المطاف. إن عقلية «أنا أولا» Me First فى مجال حياة الأفراد تقترن بالفكر المسطح الأمى الذى يعتبر أننا كمجتمع قومى وأمة ذات خصوصية. بدأنا منذ سنوات قلائل على أيدى عدد من الأسماء المرموقة إعلاميا. إنه التنكر للتاريخ الذى يدفع بنا دفعا إلى ساحة تفتت الطاقات والهمم حتى شواطئ الفرقة.

وفى هذا الجو وبدءا من نفاق وجهالة المقولة القائلة بأن هويتنا «هوية هشة حقا» بدفع الإعلام الأطلنطى الصهيونى. وأبواقه العرب المعروفين. النداء إلى ما أطلقوا عليه «الاعتراف بالغير». وهو مصطلح من بين قائمة المصطلحات الزائفة التى تنصب على الشخصية العربية والفكر القومى بغية اختراقه وتفكيكه منذ ارتفاع موجة التبعية تحت

لواء التطبيع.

تساءلت, تساءلنا: إيه حكاية هذا الآخر, الذى يجب علينا أن نعترف به ؟ وهل أن الشخصية المصرية والعربية ترفض العالم بما فيه من قوى فاعلة على صورة الأمم والقوميات والدول والشعوب والثقافات والحضارات ؟ هل أننا بلغنا هذا المستوى من الغفلة أو لعلها الأمية؟ ورحت ورحنا معا نستعرض سجل تاريخنا الحديث والمعاصر, وإذ بنا نتفرد بين سائر أمم الدنيا وكأننا أكثرها اعترافا بخصوصية الأمم والدولة والقوى التى احتلتنا وغزتنا وقد جاء هذا الاعتراف أولا ـ وقبل كل شىء ـ برفع شعار الحركات الوطنية والحروب التحريرية من أجل الاستقلال والسيادة. كما اتخذ أيضًا شكل إتقان الأداء الدبلوماسى لرفع مستوى إدراك الطرفين للمصالح الموضوعية القائمة، واحترام أوسع قدر منها بشرط ألا يتعدى حدود السيادة والاستقلال. أما من الناحية الفكرية والثقافية, فلا أظن أن أحدا من «المستشرقين العرب» ينكر أن الطبقة الوسطى بقطاعيها السياسى والثقافى فى عموم الأمة العربية شرقا وغربا وجنوبا وشمالا اتسمت بمستوى رفيع جدا من الهيام بالغرب الأوروبى والأمريكى, وكذا بالشرق, أى شرق أوروبا عندما كان اشتراكيا, إلى حد إدراك معانى الشرق الحضارى تدريجيًّا الذى نحن منه وإليه نعود, بل وقد ذهب البعض ــ ونحن منهم ــ إلى أن هذا الإدراك المتزمت بلغ مستوى المحاكاة غير اللائقة الضارة فى أحيان كثيرة, ومع هذا فكلنا وما زلنا مبدئيا مع الانفتاح على كل الخصوصيات القومية والثقافية والحضارية دون أدنى استثناء تحت الشعار الذى رفعته الثورة ومصر النهضة بشكل ساطع وفاعل «فليخدم كل ما هو عالمى كل ما هو وطنى!.»

إذن: ليس الموضوع أن مصر والعرب ـ حاشا لله ـ لا يعرفون القوى العالمية إلى حد التنكر لها، بحيث نعود إلى السؤال الأول: إيه حكاية شعار الاعتراف «بالآخر»؟

لا داعٍ للموارية: إن الآخر الذى يرى الغرب أننا لا نريد أن نعترف به, ليس فقط واقعيا, وإنما بوصفه رائدا وسيدا لنا إنما هو الآخر اليهودى الصهيونى ودولته العنصرية الغازية على حدودنا وأرضنا العربية, وهنا أيضًا خلط كبير بين الوجود الواقعى لهذا العدو على أرضنا وأمام حدودنا من ناحية, وبين عدم قبول التراضى مع الهيمنة العنصرية التى يمثلها، إن مصر والعرب يعترفون بصدر رحب ـ إن جاز التعبير ـ بواقعية

العدو الصهيونى, عبر حروبنا وثوراتنا، أما مسألة الاعتراف بأن هذا العدو الحضارى يمثل الرائد مستقبل الحداثة فى بلادنا, بل وقائد مسيرة التحديث واللحاق بنظام عولمة هيمنة القطب الواحد (الأمريكى ظاهريا, الصهيونى فى الجوهر). فهذا أمر آخر تماما، الاعتراف بالواقع شىء والموقف من هذا الواقع شىء آخر, إن الدعوة المتصلة ـ الضارية ـ لقبول هيمنة العدو تحت شعار الاعتراف بالآخر هى الغطاء الزائف لسياسة الانكسار والتبعية, جوهر المسيرة البائسة التى تدفع بأصحابها إلى المأزق يومًا بعد يوم.

التراكم القومى أولا

الاعتراف بالغير ـ أى بالغرب فى الأساس ـ قائم وثابت إلى حد المبالغة وبشكل متصل منذ فجر تاريخنا، وهو اعتراف يفوق بكثير كل ما قدمته شعوب وأمم وثقافات آسيا والشرق عموما حتى الآن, مما نتج عنه إثراء ـ وكذا جراح ـ فى الشخصية المصرية والعربية ما زلنا نمارسها إيجابا وسلبا.

حسنا، فإذا كان اعترافنا بالغير إلى هذا الحد أصبح لزاما علينا أن نرفع شعار حتمية الاعتراف بالذات.. أولاً وقبل أى اعتبار آخر, شعار الحركة الوطنية المصرية والقومية العربية منذ القرن الثامن عشر تجاه النهضة.

والاعتراف بالذات يصطدم هنا بدفعة هائلة من التشكيك فى الذات حول عبارة مثل هوية هشة حقا لعل أصحابها يرتدون إلى حدود وجودهم السياسى الهامشى وميراثهم التاريخى المغمور دون تسميم لأجواء ـ بلا داع ـ ساحة طرح قضايا الذات والآخر، وكذا, فإن تغييب حصيلة الأداء الوطنى والقومى المصرى والعربى فى مجال المسألة الوطنية يمثل ثمرة تغييب تاريخنا القومى والحضارى فى المقام الأول, مما يضعف التواصل الحضارى والقومى ويشتت الهمم ومن هنا وجب علينا أن نقدم حصيلة الجهد الفكرى العلمى والعربى, وكذا ناتج العلوم الاجتماعية والإنسانية, وخاصة ما أتاحت لنا الظروف أن نقوم بتنسيقه فى إطار جامعة الأمم المتحدة ١٩٧٦ ـ ١٩٨٦ بعد الاتحاد العالمى لعلم الاجتماع (١٩٦٥ ـ ١٩٨٦).

مرة أخرى لكيلا نتوه فى متاهات «أنا أولا»

أولاً : فى مسألة أنواع الوحدات المجتمعية الرئيسية :

١ ـ الوحدة المجتمعية الرئيسية ـ أى ما يتعدى مستوى الجماعة البدائية, أو الفئة أو الطبقة الاجتماعية التقليدية ـ إنما هو ما جرى العرف على تسميته «الأمة» أى «المجتمع القومى» Nation، الأمة أو المجتمع القومى هى الوحدة المجتمعية التى تشمل دائرة من الفئات والطبقات الاجتماعية يوحد بينها محل الإقامة أى الوطن، وحدة مسار الصياغة التاريخية ووحدة الاقتصاد القومى فى معظم الأحيان لغة واحدة، وهى العوامل التى تعبر عنها ثقافة مجتمعية واحدة, أى ثقافة وطنية وفكر يعبر عن خصوصية الأمة, المجتمع القومى, إن مركز التواصل التاريخى لهذا المجتمع يتمثل فى الدولة بوصفها مركز السلطة المجتمعية على تنوع أشكالها.

٢ ـ الدائرة الجيو ـ ثقافية (أى الجغرافية الثقافية) وهى التى يشار إليها أحيانًا بعبارة المنطقة الثقافية فى مصطلح هيئة الأمم ومنظماتها. هذه الدائرة تتكون من عدد من الأمم أو المجتمعات القومية يجمع بينها ـ بوجه عام ـ الوجود فى دائرة جغرافية واسعة على أساس التعامل بواسطة لغة رئيسية ـ أو عدد من اللغات ـ مما يشكل تجانسا ثقافيا ـ فكريا متميزا، فهذا مثلا شأن دائرة القومية العربية التى نرمز إليها أحيانًا بعبارة الأمة العربية, أو الوطن العربى، وهى عبارات غير دقيقة، وإن كانت تفى بالمعنى, وكذا الأمر بالنسبة للدائرة الثقافية الجيرمانية الألمانية فى وسط أوروبا، أو الأوروبية اللاتينية فى غرب وجنوب أوروبا، أو السلافية بين روسيا وقطاع واسع من دول أوروبا الشرقية, أو الهندية، أو المالية (ماليزيا وإندونيسيا) وكذا أمريكا اللاتينية، وهى تتميز أيضًا إلى دائرة أمريكا الوسطى اللاتينية ودائرة أمريكا اللاتينية حول جبال إنديز ودائرة البرازيل ودائرة أمريكا اللاتينية الجنوبية. الخ. وبديهى أن تماسك وفعالية هذه الدوائر تتشكل حسب مراحل التطور التاريخى والميزان النسبى لمختلف الوحدات التكوينية لكل دائرة.

٣ ـ الحضارة أو الدائرة الحضارية بدءا من أعمال «شبنجر وتوينبى وكروتشه»، وخاصة «جوزيف نيدهام» الرائدة، وعندنا أن هذا المستوى يتكون من دائرتين رئيسيتين : الدائرة الغربية بعنصريها الأوروبى والأمريكى الشمالى، والدائرة الشرقية بعنصريها الصينى والإسلامى الأفروآسيوى. ويتجه الفكر ـ وقد اتجه تفكيرنا ـ إلى أن ما

يميز الدائرة الحضارية إنما هو: نظرة المجتمعات التى تتكون منها إلى المسيرة التاريخية, إلى الزمان, إلى العلاقة بالكون، وهو الذى يتجلى فى الديانات الكبرى والفلسفات الحضارية الرئيسية أى فى رؤية العالم، المهم أن نذكر أن هذه النظرة المشتركة إنما هى ناتج لصياغة تاريخية طويلة فى دائرة جغرافية متشابهة تجمع بين البيكولوچيا، أى الأيكولوچيا بوصفها الجغرافيا الطبيعية والمناخية فى نسق بيئى مشترك عبر مسيرة الصياغة التاريخية الطويلة.

ثانيًا: فى مسألة الانتماء داخل المجتمع القومى، وقد بيَّنا منذ ١٩٦٢ أن ما يبدو أنه بدعة المعضلة ليس كذلك, إذ أنه يمكن أن نميز بين مستويين للانتماء القومى على أساس مفهوم الأمة «المجتمع القومى ذات المستويين»:

(أ) المستوى المباشر للأمة / المجتمع القومى: أى الوطن مقام الولاء الأوحد ـ وهو الدائرة وكذا المستوى المباشر الذى يجمع بين الفئات والطبقات المجتمعية فى الأمة ـ وفى هذا المستوى الحيوى الأول يتراضى أفراد الأمة بهذا المعنى المباشر على الاعتراف بأن مقام السلطة المجتمعية هو الدولة الوطنية المستقلة التى تحظى بولاء جميع المواطنين على تنوع طبقاتهم وتوجهاتهم السياسية ومدارسهم الفكرية وصراعاتهم فى بوتقة الوحدة الوطنية، على أن يكون التوجه على الدوام إلى توسيع رقعة مشاركة عموم الشعب فى الحكم وإدارة شئون الأمة.

(ب) المستوى الثانى من الأمة / المجتمع القومى: ألا وهو المستوى الذى يجمع بين مختلف وحدات الدائرة الجغرافية ـ الثقافية الواحدة, خاصة عندما يجمع بين رابط اللغة والثقافة الواحدة, وهذا هو الحال بالنسبة لما اصطلحنا على الإطلاق عليه القومية العربية أو الأمة العربية أو الوطن العربى, إن انصهار مختلف وحدات القومية / الوطنية المتميزة فى هذه الدائرة الثانية رفيع المستوى فى حالة الدائرة العربية, إذ تتواكب اللغة والدين بشكل متميز فى عالمنا العربى, مما هو ليس كذلك مثلا فى أوروبا اللاتينية المتوسطية ولا فى الهند, بينما هو كذلك فى مختلف الدوائر الچيو ـ ثقافية لأمريكا اللاتينية مثلا.

إن الذى يميز المستوى الأول بالنسبة للمستوى الثانى إنما هو: الولاء السياسى. والولاء السياسى يعنى أن المجتمع القومى حول الدولة الوطنية المستقلة له وحده الحق فى الاطمئنان إلى ولاء المواطنين الذين يبذلون الروح, عندما يهدد وجود الوطن الخطر،

بينما الرابطة بين مختلف وحدات الدائرة الچيو ـ ثقافية هى بالتضامن الوثيق العضوى الذى لا يصل إلى مستوى بذل الروح فى نهاية الأمر.

ثالثًا: فى مسألة نوعية المجتمعات القومية يمكن التمييز بين الأنماط ـ الصيغ التالية:

(أ) الأمة المجتمع القومى ذات الاستمرارية التاريخية، أى التواصل التاريخى ـ وأحيانًا الحضارى ـ عبر التاريخ كما هو الحال بالنسبة لمصر وإيران والصين فى المقام الأول, وكذا ڤيتنام وإثيوبيا واليمن والمغرب واليابان.

(ب) المجتمع القومى / الأمة الموحدة حديثا كما هو حال معظم الدول والأمم فى القارة الأوروبية منذ القرن الحادى عشر(فرنسا, إنجلترا, إسپانيا, السويد, روسيا على وجه التخصيص).

وهذه النوعية هى التى يقدمها لنا الفكر الغربى السياسى ـ والتاريخى عادة ـ على أنه مثال للأمة الحديثة ودولتها الوطنية، وكأن تاريخ ما سبق ذلك لا وجود له, مرة أخرى بطبيعة الأمر.

(ج) الأمة ـ المجتمع القومى حديث التوحد كما هو الحال فى ألمانيا وإيطاليا.

(د) الأمة ـ المجتمع القومى متعدد الثقافات, كما هو الحال فى الهند ومعظم دول أمريكا اللاتينية, خاصة فى أمريكا اللاتينية والوسطى والجنوبية, حيث يلعب المجتمع الهندى المقهور دورا بارزا, بل ودور الأغلبية، كما هو الحال (فى بيرو وأمريكا الوسطى كلها, خاصة جواتيمالا والمكسيك).

(هـ) المجتمعات التى اتجهت للوجود الموحد حول دولة جديدة, فى ظروف قدمت العنصر الاقتصادى على غيره من العناصر التكوينية, خاصة بعد تفكك المنظومات الاستعمارية الكبرى (الإنجليزية والفرنسية والإسپانية والبرتغالية, وكذا الإيطالية والبلچيكية), كما هو الحال فى إفريقيا الاستوائية والجنوبية على وجه التخصيص. وكذا فى دائرة ظهور الدول النفطية الجديدة فى الخليج وشبه الجزيرة بشكل متخصص. ومن الواضح أن إضافة هذا المستوى يثرى النظرة إلى كيفية تعامل مختلف الأمم / المجتمعات القومية مع الخارج فى صعيد العلاقات الدولية, بدرجات متنوعة مختلفة إلى حد كبير من الخصوصية والأصالة والمبادرة والإصرار على التواصل والاستمرارية والاستقلالية ـ

مجال دراسة العلاقات الدولية ـ خاصة فى مرحلة تغيير العالم وصياغة العالم الجديد.

تواصل الوحدة الوطنية

إذن: لا أحد يبدأ من فراغ. بل إن مصر ـ على وجه التحديد ـ أكثر المجتمعات القومية ـ الحضارية عراقة تدير ظهرها تماما إلى منطق «أنا, أولا» الذى يسود طروح وأفكار وصياغات المستشرقين العرب ذوى النيات الحسنة. لا مكان فى تفكيرنا الوطنى القومى المصرى إلى الإقليمية أو القطرية أو الذوبان فى دوائر سيادية واسعة تقلل من شأن السيادة المصرية والخصوصية المصرية والاستقلال والإرادة والرؤية المصرية فى الواقع والمستقبل, بدءا من تاريخنا الحضارى المتميز. نعم, إن هذا التمايز وذكر الخصوصية يصبان فى بوتقة العالم العربى الرحبة, وكذا الدائرة الحضارية الإسلامية والشرقية الأوسع. ولكن بيت القصيد أن أمتنا المصرية تقف, شامخة, مستقلة, سيادية, تتعامل مع الدوائر الأوسع ومختلف وحدات المجتمع الدولى بدءا من ذاتها, ومنه ـ أى من ذاتها التاريخية ـ سوف تتعامل مع جميع وحدات الغير دون هيبة ولا تردد, وكذا دون انحناء ولا توارٍ. من هنا كان التوجه العميق إلى إدراك مركزيتنا فى قلب الدائرة العربية منذ فتوحات إبراهيم باشا حتى أكتوبر عن الذات, من هنا يبدأ البحث.

سوف يقول البعض إن جمع المفكرين من هنا وهناك عبر نصف قرن ربما يلبى الفضول, ولكنه قد يؤدى إلى خلط المسارات والقيم, وعندنا أن تبسيط الأمور على صورة الأبيض والأسود, الخير والشر, الذات والآخر, أى الثنائية الفكرية التى هى أيديولوچية الحرب الأهلية والصراع الذى يفتت وحدة الأمة, نقول: عندنا إن هذا الموقف مرفوض, ليس فقط لأنه يضعف الترسانة الوطنية, ولكن أيضا لأنه يحقق هدفا ثابتا للحملة الحضارية الضارية الإمپريالية العنصرية التى تستهدف وجود مصر. إن مصر الأمة, أقدم أمم التاريخ, أولى الحضارات الإمبراطورية فى العالم عبر عصورها الثلاثة, نقول: إن مصر لا تمت من قريب أو بعيد إلى فصيلة المجتمعات التى يطلق عليها صفة «النظام» أو «الدولة» المرحلية الجديدة. إن الأمة ـ وحدها ـ هى التى تستطيع أن تولد من أعماقها باقة متعددة براقة ملأى بتباين التوجهات وتناقض الأطروحات. إن الأمة ـ وحدها ـ هى التى تستطيع أن تستوعب هذا التنوع الثرى دون فزع, ما دامت

المرجع والأم والوجهة. إن سيادة الفكر الثنائى الاستبعادى الذى يدعى البعض أنه يمثل الموقف «العلمى» أو الإيمانى الحق إنما تعبر عن فقر المعرفة وبدائية التكوين لمجتمعات المحدثين ـ ونحن لسنا كذلك.

إن الترحيب بكل جديد وكل إضافة وكل حجرة تبنى طريق مسيرة مصر واجب مقدس علينا يتعدى الأنا والذات والغرور الذى نراه اليوم ـ مع الأسف ـ ينتشر بشكل مجرح فى قطاع واسع من حياتنا الفكرية والثقافية. وعلى العكس، فإن العمل على لم الشمل وبناء الجسور بين الخصوم فى دائرة حب الوطن وبيان تواصل الشخصية المصرية والفكر الذى يعبر عنها تمثل الطريق الأمثل لمواجهة التحديات وتأمين المستقبل.. رسالة مصر ـ ونحن من رجالها.

قال صاحبى: أراك تاعب نفسك

«تبحث» عما هو موجود فى قلب قلوبنا أجمعين. ترى: كيف ضل البعض الطريق؟.. وهل من العقل والإيمان أن نبتعد ـ ولو لحظة واحدة ـ عن دائرة حب الوطن الواحد الأوحد ونحن: نواجه الآن تصعيد إيقاع رياح العدوان ضد الوطن والأمة بعد تحرير لبنان؟

انظر، حولنا: شعب مصر، شعوب أمتنا العربية يقفون إجلالا لتحية شعب لبنان وطليعة حزب الله المقاومة التى حررت أرض الوطن، وأخرجت العدو منهزما، حاقدا ـ يعد العدة للانتقام والتدمير من جديد ـ رسالة دوما على أرضنا الخضراء.. يوم النصر يجب أن يكون أولا وقبل أى اعتبار: يوم توحد الإرادة السياسية العربية، والإعداد حول محور مصر ـ سوريا.. أليس كذلك؟

ـ ٣٥ ـ

محمد على: رائد صحوة الشرق

أن تتجه أنظار وجهود صفوة من المفكرين والمؤرخين بدعوة من مجلسنا الأعلى للثقافة إلى إحياء معانى مسيرة محمد على باشا الكبير فى عاصمة المحروسة فى فترة ١٠ و١١ نوفمبر ٢٠٠٥ ليمثل تجاوبًا ملفتًا بين طلائع الفكر ووجدان شعبنا العريق، خاصة وقد تأثر إيقاع الشارع المصرى من تراكم الزوابع الخانقة التى بدأت تعصف بعالمنا العربى منذ الحرب العدوانية ضد العراق الشقيق. والملفت حقًا أن الناس اللى تحت يرحبون بهذا المؤتمر الذى طال انتظاره، إذ يستشعرون فى أعماقهم حاجة إلى استرداد تاريخنا المغيب منذ نصف قرن، والذى احتل فيه محمد على مكانة الفاتح ـ الفاتح المغيب رسميًّا ـ وكأن رسالته دخيلة ثقيلة على دعاة التروى والانكماش والتبعية. ولكنه الغائب الحاضر فى وجدان المصريين، وخاصة الشباب الذى يتساءل عن معالم الشموخ وأسباب التردى والتغيب.

اللحظة التاريخية

أولاً: أحوال مصر فى نهاية القرن الثامن عشر بالغة التردى. ولاية تابعة للخلافة العثمانية يتحكم فيها المماليك دون اعتبار لوحدة الأمة المصرية ودولتها المركزية العريقة، دعنا من معانى اللحاق بالحداثة القادمة آنذاك من أوروبا، شمال دائرة المتوسط. وفى مقابل ابتزاز المماليك للفلاحين والحرفيين فى الريف والحضر على السواء، بداية محاولات جمع الشمل صوب استعادة معانى القوة الذاتية الاستقلالية بقيادة على بك الكبير، وكم نحن فى حاجة إلى ندوة تضىء لنا شخصيته الطليعية بعد عقود من الإهمال. المحيط الدولى من الناحيتين الإستراتيجية والسياسية يمثل أرفع مستوى من

ضغوط الدول الاستعمارية المتحكمة آنذاك، وفى قلبه بريطانيا وفرنسا للسيطرة على مصر والمشرق، أى هذه همزة الوصل بين أوروبا الرأسمالية الطالعة وأسواق الهند وجنوب شرق آسيا الملتفة شمالاً تجاه الصين وكوريا واليابان. وثبة قوة فرنسا بعد ثورتها الكبرى عام ١٧٨٩ تتجه إلى السيطرة على دوائر حوض البحر الأبيض المتوسط ـ وخاصة مصر ـ بوصفها مفتاح التحكم وهمزة الوصل مع دوائر الشرق الكبرى فى آسيا. وبريطانيا بوصفها العدو اللدود لدولة البرجوازية الفرنسية المعادية للأنظمة الملكية فى أوروبا، تحشد أسطولها الضارب، يتمركز فى شرق دائرة المتوسط. يرتفع الصراع بين القوتين الرئيسيتين القادم من أوروبا إلى ذروته فى نهاية القرن الثامن عشر، إذ يقود الجنرال بونابرت ـ الإمبراطور نابليون فيما بعد ـ «الحملة الفرنسية» لغزو مصر عام ١٧٩٨ حتى هزم ١٨٠١، ومعه بعثة علمية تمسح معالم تاريخ وجغرافية المحروسة، وتنقل إليها بالتبعية فنون الصناعة وأساليب الحرب الحديثة آنذاك.

مصر المؤسسات الرسمية آنذاك ـ إن جاز التعبير ـ لا تملك أدوات المقاومة، ولكنما شعب مصر فى عاصمة القاهرة ثم الإسكندرية يهبّ فى ثورات مسلحة متتالية يطحن فيها جيش المعتدى. ثم يتقدم الأسطول البريطانى بقيادة أمير البحر نيلسون يحاصر القوة الفرنسية المحتلة ويدمر أسطولها فى معركة أبى قير، بينما تحتار دولة الخلافة العثمانية التى لا تملك معانى سلطانها على مصر.

لا تملك معانى السلطان، لكنما تكتفى بإرسال كتيبة من المشاة بقيادة اليوزباشى الألبانى محمد على للحفاظ على مظاهر تبعية مصر لمقر الخلافة. يشاهد اليوزباشى الشاب ـ الذى لم يرَ الدنيا من قبل ـ مظهر صراع أكبر قوتين فى الغرب آنذاك، وهو لا يملك القوة الضاربة للتدخل. إنه موقف لم تشهده أية مؤسسة حاكمة على أرض مصر قبل ذلك، ولم تشهده كذلك بعد محمد على حتى يومنا هذا. أكبر قوتين فى الغرب تحتل وتحاصر أرض الكنانة التى لا تملك دولة ولا جيشًا ولا مشروعًا. ولكنها ـ أى هذه الأرض الداخلية المحاصرة ـ وطن لشعب يريد الحياة، يثور، يحاصر قيادات جيش المحتل، يؤكد إصراره على الإفلات من الاحتلال والحصار، وإن كان لا يتمتع بقيادة للتوجيه وتنظيم الاستمرارية. اليوزباشى الألبانى الشاب يدرك معنى هذه القوة المصرية الطالعة، ويرى فيها العامل الفاعل القادر على تخطى اللاوجود المؤسسى. إدراك يشير

إلى إمكانية العمل. ولكن: أى عمل ترى؟ اليوزباشى الألبانى المسلم الشاب يتجه إلى طلائع شعب مصر آنذاك من رجال الأزهر والتجار يعرض عليهم وضع سفينته وقوته العسكرية الضئيلة رهن إرادتهم، هذا لو أرادوا تولية محمد على واليًا يتعهد بالحفاظ على مصر بعد انسحاب الغزاة، وهو ما تم عام ١٨٠٥، إذ تولى محمد على الشاب ولاية مصر، ليس عنوةً وإنما بإجماع ممثلى الصفوة على انتخابه حاكمًا لمصر باسمهم.

نترك الوالى الشاب على قمة مصر المفككة المحاصرة بعد ثلاثة أجيال من الاحتلال العثمانى لحظةً، نرحل عبر الزمان إلى صدى ما بدأ عام ١٨٠٥ فى أرجاء العالم.

ـ دولة الخلافة العثمانية كانت تعيش آنذاك فى جو العصور الوسطى، لا تعرف من معانى المواطنة ودولة القانون إلا أقوال المصلحين فى أوروبا، النذّ التاريخى للدولة العثمانية. وفجأة ـ ومن ولاية مصر الهامشية ـ تنطلق معانى تحديث الدولة والمساواة فى المواطنة بين جميع المصريين، المسلمين والأقباط على السواء، وإصلاح مؤسسات الإدارة التنفيذية والمحاكم، وإقامة شبكة التعليم الحديث فى دائرة ثورة صناعية وتكنولوچية خارقة فى خدمة احتياجات جيش أصبح بعد سنوات قلائل من أقوى جيوش العالم. نهضة مصر فى عصر محمد على موسوعة تجمع بين شموخ الإرادة والإبداع القومى الذاتى وفاعلية الإنجاز، أرّخ لها الأعلام: محمد صبرى، شفيق غربال، عبد الرحمن الرافعى، عبد الفتاح صبحى وحيدة، حسين فوزى ـ لن نضيف إليها من رسالتنا «نهضة مصر» إلا مجرد الإشارة ـ ولكن المهم أن صحوة مصر زلزلت أركان الركود والتخلف فى دولة الخلافة العثمانية، وكانت هى الباعث الرئيسى لمجموعة الإصلاحات التى أطلق عليها «التنظيمات» بدءًا من ١٨٣٩، إذ أعلن السلطان محمود الثانى عام ١٨٦٧ مساواة جميع الأديان أمام القانون، وفتح الوظائف العامة أمام الجميع (وكان ٤٠ ٪ منهم من المسيحيين فى الولايات التابعة)، هنا بينما أدخل السلطان عبد المجيد الأول نظام التعليم والإدارة على النمط الفرنسى منذ عام ١٨٤٠ وأنظمة موازية لإصلاحات محمد على لإصلاح الأراضى وإقامة المصانع ومؤسسات البريد والبرق، حتى بناء السكك الحديدية عام ١٨٦٦. وهكذا أصبحت الولاية المصرية المفككة التابعة المحاصرة رائدة صحوة دولة مقر الخلافة العثمانية الشامخة، التى استطاعت أن تفلت من الانهيار.

تولى مصطفى كمال (أتاتورك) حتى عام ١٩٢٣

ـ ولعل أبلغ تأثير لنهضة مصر فى عهد محمد على باشا الكبير تحقق فى دولة ما كانت فى الحسبان، لا فى دائرة أوروبا مركز العالم آنذاك أو الولايات المتحدة الجديدة فى مرحلة حربها الأهلية، دعنا من إمبراطورية الخلافة العثمانية، ولكنما هذا ما حدث بالفعل فى اليابان عند ما شرع الإمبراطور ميجى Meiji عام ١٨٦٨ فى ثورة تحديث بلاده فنقل عاصمة الحكم من العاصمة التاريخية العريقة كيوتو ـ حيث حاصره نبلاء الإقطاع والبيروقراطية التقليدية ـ إلى العاصمة التجارية «إيدو» التى أصبحت مدينة طوكيو، عاصمة اليابان بعد نهضتها. فى طوكيو: قرر الإمبراطور ميجى قائد ثورة التجديد فى اليابان دراسة التجارب الرائدة فى العالم، وقد حددها فى دائرتى أوروبا بطبيعة الأمر، وكذا وبالتوازى فى نهضة مصر محمد على. وبالفعل قامت إحدى كبرى لجنتى دراسة التجارب الرائدة فى العالم بدراسة نهضة مصر بقيادة محمد على، بوصفها أهم معالم صحوة الشرق بعد أجيال الانحدار، وقد اقتبس منها الإمبراطور ميجى العديد من معانى تحديث اليابان فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، هو الأمر الذى اعترف به أعلام مؤرخى ودارسى صحوة اليابان المعاصرة حتى اليوم. ومعنى هذا، فى كلمة: أن نهضة مصر بقيادة محمد على وفى عصره المجيد استطاعت أن تخترق جدار التخلف الرهيب والتهميش والتبعية وتقيم نظامًا اجتماعيًّا ودولة صناعية وعسكرية ونهضة تعليمية وثقافية لعبت دورًا مركزيًّا فى محاولة إنقاذ إمبراطورية الخلافة العثمانية، بل وكان لها دور تكوينى هام فى نهضة اليابان الذى احتل آنذاك المكانة الأولى فى دائرة آسيا حتى الحرب العالمية الثانية، لحظة صعود الصين إلى المكانة المركزية فى عصرنا، بينما ما زال اليابان ثانى قوة اقتصادية عالمية إلى اليوم.

أين نحن من هذا كله فى عصر التبعية؟ لماذا لم تلتفت الأجيال المتتالية لقيادات الحكم والفكر فى بلادنا لشموخ الدور المصرى لفتح الطريق أمام صحوة الشرق منذ مطلع القرن الثامن؟ والحق أن عددًا مرموقًا نادرًا من المفكرين ـ كما قلنا ـ أشاروا إلى ذلك. ولكن هذه الاجتهادات والإسهامات ـ على أهميتها ـ لم تستطع أن تخترق جدار التغييب، وكأنه لم يكتب لمصر الحديثة إلا التبعية لدول الغرب المهيمنة وتقليدها بدلاً من الانفتاح على العالم ومراكزه الجديدة الصاعدة، وخاصةً فى الشرق الحضارى ـ

قبل اليابان فى نهاية القرن التاسع عشر ـ دعنا من تصور أنه كان من شأن مصر أن تحتل مكانة الريادة فى صحوة مراكز هذا الشرق الحضارى التى صعدت الآن إلى الصفوف الأولى فى مرحلة تغيير العالم وصياغة العالم الجديد.

لا يمكن وضع حد للتغييب ـ أى تغييب التغييب ـ إلا لو سعى أصحاب الشأن ـ أى الشعوب والأمم والدول المعنية ـ إلى اختصار الطريق لتخطى عصور الانحدار وابتكار صيغ وأدوات اللحاق بمستوى المجتمعات المتقدمة أولاً لدخول ساحة المشاركة فى تغيير العالم. من هنا وجب علينا أن نتساءل: كيف كانت رؤية محمد على لتحدى الانحدار واختصار الطريق والوثبة؟ وهل ترى كان الرجل يملك رؤية تتسم بالإبداع بدءًا من خصوصية مصر الحضارية؟ أم أنه كان مجرد ناقل بارع؟ إن كان الأمر مجرد «النقل» لكان شأن مصر فى عصر محمد على شأن العديد من الدول المتوسطة التى تجتهد اليوم للارتقاء إلى مرتبة من التنمية تُمكّنها أن تكون همزة وصل بين الدول الكبرى وعشرات المجتمعات المختلفة، حيث تكمن مصادر المواد الخام والطاقة فى معظم الأحيان. وبما أن التاريخ العالمى سجل طفرة مصر الكبرى التى تمثلت فى نهضتها بزعامة محمد على دون جدال، وجب علينا أن ندقق النظر لتبيان خصوصية الريادة والوجود، سعيًا لفهم كيفية تخطى مرحلة «التقليد» للحاق بمستوى الإبداع والريادة الخلاقة.

١ـ نقطة البدء إنما تكمن فى إدراك «عبقرية المكان» ـ على حد تعبير جمال حمدان. منذ البداية أدرك محمد على الضابط الشاب أهمية موقع مصر الجيو ـ سياسى الفريد فى معترك الأمم. ومن هنا، من هذه الرؤية الجيو- سياسية والحضارية على وجه التحديد، جاء قرار تعبئة كافة القوى والطاقات المصرية التى استشعرت الحاجة إلى استرداد الوطن بعد القضاء على سلب ونهب المماليك والجماعات السلفية، وذلك بهدف بناء ترسانة القوة المصرية فى مجالات الدولة. القوة العسكرية والتحديث الاقتصادى على أساس أرقى معطيات العلوم والتكنولوجيا، وكذا إقامة نظام تعليم عصرى متكامل يعمل دون كلل على تكوين كوادر الدولة المصرية الناهضة. عملية مجتمعية شاملة جبارة عبَّر عنها رفاعة رافع الطهطاوى فى رسالته الخالدة التى توجت آخر أعماله «مناهج الألباب المصرية» (١٨٦٩) تفتح الطريق للجمع بين الوطنية

«الحداثة والحرية» من أجل نهضة حضارية: «ليكن الوطن محلّ سعادتنا أجمعين نبنيه بالحرية والفكر والمصنع!»

٢ ـ إقامة القوة المصرية فى الداخل تمثل قاعدة تحقيق الرؤية إيمانًا من محمد على وإدراكًا منه بأن ضعف القوة الذاتية للأمم تضعف من قدرتها على التحرك، وبالتالى تجعلها تابعة غير قادرة على الاستقلال، دعنا من القيادة والريادة. الانفتاح على الغرب المهيمن آنذاك أمر واجب لاختصار الطريق، وذلك بالتعلم من إنجازاته والإفادة من تجاربه الناجحة، وكذا تجنب المبالغات والهفوات ما أمكن. ولكنه تعلم نقدى ـ إن جاز التعبير ـ يهدف إلى بناء القوة الذاتية، ويرفض الاكتفاء بالتقليد، دعنا من التوكل، وكأن محمد على الشاب يكاد ينطلق بشعار قائد ثورة الصين وباعث نهضة شعوب الشرق ماو تسى تونج الذى حدد بعد نحو قرن ونصف شعار نهضة شعوب الشرق التاريخية فى شعاره الخالد: «ليخدم كل ما هو عالمى كل ما هو صينى» (أى: كل ما هو وطنى). كانت هذه هى الروح التى ألهمت منهج تكوين الكادر، ومفهوم تحديد مكانة جيش الوطن، قلب عملية النهضة فى عصر محمد على.

٣ ـ ثم ـ وبدءًا من هذه المداخل ـ تحديد سياسة واضحة للتحرك الخارجى الإقليمى والعالمى كانت تهدف صراحة إلى إحياء العالم العربى، بفضل إبراهيم باشا قائد جيوش محمد على، أداة لكسر انكسار الخلافة العثمانية، ومحاولة بعث الإسلام الحضارى قوة ناهضة فى مطلع تاريخ العالم المعاصر.

ـ ٣٦ ـ

مصطفى عبد الرازق: فى أصول الفكر المصرى

من دواعى السعى فى السنوات الأخيرة القلائل أن يرتفع مستوى الاهتمام بساحة الفكر المصرى, ولو بشكل متقطع غير متصل. وهو سعى محمود ؛ لأنه يعبر عن إدراك خصوصية مصر المتفردة فى التاريخ, المستمرة المتواصلة برغم موجات الاحتلال والتأثير والاستعمار والاختراق, خاصة فى العصر الحديث والمرحلة المعاصرة التى نحياها.. وبما أن هذا الاهتمام يصب فى جوهر ساحة البحث عن مصر التى نسعى إليها على الدوام, فقد رأيت أن أتوجه بالتحية إلى الأستاذ جمال الغيطانى للإشادة بالجهود القائمة فى هذا المجال على صفحات أخبار الأدب, وكذا دفع حركة الترجمة التى يجب أن تتولاها الهيئات الثقافية الرسمية وكذا دور النشر المصرية على تنوع اهتماماتها. وكنت قد أشرت المرة تلو المرة خلال نصف قرن إلى مركزية الفكر المصرى فى صياغة القوالب الوجدانية والفكرية, خاصة فى ساحتى الدين والفلسفة, فيما تصورنا أنه مصدر الحضارة. وعندى ـ بدءا مما أتيح لجيلنا من دراسة متصلة لعلماء المصريات العالميين, وكذا المصريين ـــ أن الفكر المصرى القديم الذى تمحور حول كتاب الموتى (وهو فى واقع الأمر حسب النص الأصلى كتاب الحياة) الذى انكب مفكرو اليونان على دراسته, خاصة أفلاطون وهيرودوتس, إنما هو المصدر الرئيسى للديانات الإيمانية التوحيدية الثلاث : اليهودية, وقد شاءت أن تتجه بسهامها ضد مصر بعد عصر الرسل الأولين, ثم المسيحية والإسلام وكلتاهما على صلة وثيقة فى الأعماق. ولعل هذه الصلة الوثيقة تتجلى فى ميدانين : التوحيد أولا, وقد اتخذ فى الحضارة المصرية القديمة أشكالا متعددة عبر المداخل التاريخية المختلفة ، وإن كانت ريادة أخناتون التوحيدية أبرزها وأكثرها وأقربها إلينا, وكذا فكرة الحياة بعد الموت, الحياة البعدية الأبدية ، حيث ينال كل إنسان نصيبه بعد امتحان قلبه فى نهاية عبور نهر الموت.

أما تأثير الفكر المصرى القديم فى بدايات صياغة الفلسفة اليونانية ـ أولى فلسفات الغرب ـ فلم ينل حتى الآن ما يستحقه من اهتمام. اللهم إلا فى عمل «مارتين برنال» الرائد «أثينا السوداء»، الذى تفضل المجلس الأعلى للثقافة مشكورا بتقديم المجلد الأول منه للمكتبة العربية من سنتين. بقى أن نتبين كيف أفاد أفلاطون ـ مثلا ـ من «كتاب الموتى» فى صياغة نظرية المثل؟ وكيف جاءت النظرية السياسية الرائدة فى أركان كتابه الجمهورية على صلة وثيقة بالفلسفة الاجتماعية والسياسية التى تعبر عنها برديات وكتابات ونصوص مصر الفرعونية عبر أجيال متعاقبة؟

الاهتمام لازم بالمطبوعات الحديثة المتزايدة، وهو أمر محمود دون شك. وإنما يجدر بنا كأبناء لهذا الوطن المتفرد أن نعى ما قدمه علماء ودارسو المصريات منذ القرن العشرين من أحمد كمال باشا. بطل فيلم «المومياء» أيامنا، ومن بينهم سليم حسن وأحمد فخرى وجرجس متى وسامى جبرة، جنبا إلى جنب مع كبار علماء الغرب الذين تعمقوا فى دراسة الفكر المصرى ـ وليس فقط اللغة والتاريخ ـ خاصة إرمان وبرانكة وجاردينر بعد «ماسبيرو» و«عصر الأولين». أكتب هذه السطور لتصب فى دائرة ما يقدمه زملاؤنا يوما بعد يوم فى التوجه نفسه. على تنوع المناهج والمداخل الفكرية. فى عالم يقولون إن الفكر الأوحد بدأ يسود فى كل مكان. فكر الهيمنة الأمريكية الذى يطلقون عليه صفة «العولمة» التى ـ هكذا يزعمون ـ لا تترك شبرا واحدا للخصوصيات الثقافية والقومية.

من أيادى مصطفى عبد الرازق

من هنا كانت أهمية البحث عن جذور مصر فى أعماق خصوصيتها الحضارية. ومن هنا كانت أهمية ومكانة الفكر المصرى منذ القدم، وكذا فى عصرنا. ولعل فى هذا مدخلا معقولا لما يبدو أنه بعيد عن هذه المقدمات. لكنه فى الواقع يصب فى الجوهر. كتاب لا يتعدى ٣٥٠ صفحة لرجل لعب دورا تكوينيا فريدا فى تعليم جيل كامل من أساتذة الفلسفة فى بلادنا. ألا وهو «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» تأليف الشيخ مصطفى عبد الرازق. وقد نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٤.

كان الجو السائد آنذاك فى دراسة الفلسفة الإسلامية فى الجامعة المصرية إنما هو

الاعتماد على مؤلفات كبار المستشرقين، ومن بينهم «دى بور» و«لوبون» و«ماسينيون» و«فينسينك». وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق من الرواد المرموقين فى هذه الكوكبة. لكنه كان أيضا ـ وفى الوقت نفسه ـ من سلالة الفكر الإسلامى المصرى الحديث حول رواده خاصة حسن العطار ومحمد عبده.

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مقدمته بكل تواضع:

«هذا تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية يشتمل على بيان لمنازع الغربيين والإسلاميين ومناهجهم فى دراسة الفلسفة الإسلامية وتاريخها.

والباحثون من الغربيين كأنما يقصدون إلى استخلاص عناصر أجنبية فى هذه الفلسفة, ليردوها إلى مصدر غير عربى ولا إسلامى, وليكشفوا عن أثرها فى توجيه الفكر الإسلامى.

أما الباحثون الإسلاميون فكأنما يزنون الفلسفة بميزان الدين.

ويتلو هذا البيان شرح لمنهج فى درس تاريخ الفلسفة الإسلامية مغاير لهذه المناهج, فهو يتوخى الرجوع إلى النظر العقلى الإسلامى فى سذاجته الأولى وتتبُّع مدارجه فى ثنايا العصور وأسرار تطوره.

ويلى بيان هذا المنهج, تطبيق له وتوضيح بما هو أشبه بالنموذج والمثال. ثم لهذا التمهيد ضميمة فى علم الكلام وتاريخه, ليست مقطوعة الصلة به, إذ هى لا تعدو أن تكون نموذجا أيضا من نماذج المنهج الجديد».

إلى أن يتبين أن الرأى نشأ منذ البدايات، أى منذ صعود الإسلام دينا وحضارة بين الناس, حتى عصر الجمود الذى تنكر لروح الإسلام. فيقول:

«وجملة القول إن الرأى بمعناه العام نشأ فى التشريع الإسلامى مع القرآن والسنة منذ عهد النبى على المذهب الذى نرجحه, أو هو نشأ بعد عهد النبى، وظل الرأى أصلا من أصول التشريع يستعمل كثرة وقلة, وضيقا وسعة, على حسب الحاجة إليه بكثرة السنن المروية كما فى الحجاز, وقلتها كما فى العراق. فلما انتهت الخلافة إلى العباسيين ونهضوا لإحكام الصلة بين دولتهم وبين الشرع ـ كما بينه جولدزيهر ـ ونشأت العلوم وأخذ فى تدوينها, تكونت المذاهب الفقهية, ووضع علم أصول الفقه. وظهرت

الخلافات بين المذاهب ظهورا واضحا فى الفروع وفى الأصول... فكان أهل العراق أهل الرأى.

هذا وإن كنا نرى الدلائل متضافرة على أن الرأى نشأ فى التشريع الإسلامى منذ نشأ الإسلام, ومن قبل أن يمتد به الفتح إلى ما وراء البلاد العربية, فإنا لا ننكر أنه كان فى تدوينه وتفريعه وضبط قواعده موضع للتأثر بعناصر خارجية, حتى لقد انتهى علم «أصول الفقه» بأن جمع من مسائل المنطق وأبحاث الفلسفة والكلام شيئا غير قليل. ويقول أهل هذا العلم: إن مبادئه مأخوذة من العربية وبعض العلوم الشرعية والعقلية. على أن هذا لا يمس ما قررناه من أن النظر العقلى نشأ أصلا من أصول التشريع فى الإسلام يؤيده ويحميه.

ولم تنزل مكانة الرأى فى الفقه الإسلامى إلا من يوم أن جاء دور الجمود, ووقف العلم والعمل بين المسلمين عند حد محدود».

ومعنى هذا أن الإفادة من روافد الجهود العالمية شىء مفروغ منه, ضرورى ونافع. ولكن بيت القصيد على الدوام إنما هو أن نتبين المصادر الذاتية, أى خصوصية الصياغة التاريخية لأفكارنا فى مختلف المجالات من الإيمان إلى العلوم, من الفلسفة إلى الاجتماع. وكان لمنهج مصطفى عبد الرازق أثر عميق فى تكوين جيل الأساتذة الذى على أيديهم تعلمنا. وأذكر كيف أن هذه الصفحات التى لفت نظرنا إليها أستاذنا الجليل عبد الرحمن بدوى فى أثناء دراسة الفلسفة بجامعة عين شمس, هى التى هدتنى إلى ضرورة التوجه إلى التعمق فى الجذور الذاتية لمسيرتنا الفكرية المعاصرة منذ الخمسينيات, وقد نتج عن هذا التوجه رسالتى للدكتوراه فيما بعد ١٩٦٤ و١٩٦٩.

كيف ندرس الفكر المصرى؟

حتى التقيت بكتاب جديد بكل معانى الكلمة على طريق البحث عن مصر فى مجال الفكر هذه المرة, أعنى بذلك «الفكر المصرى فى العصر المسيحى» تأليف الدكتور رأفت عبد الحميد عميد كلية آداب ومدير مركز دراسات الحضارات المعاصرة بجامعة عين شمس.

«الفكر المسيحى» ما معنى هذا؟ لعل المؤلف يقصد الفكر القبطى؟ أو الفكر المصرى فى العصر القبطى؟ طالعت الكتاب وإذا به يقصد ـ بالتحديد ـ إعادة دراسة الفكر المصرى فى المرحلة المسيحية المعروفة باسم القبطى, إعادته إلى جذوره المصرية, بدلا من دراسة الفكر فى هذه الآونة, وكأن رافدا من عالم خارجى لا علاقة له بمسيرة مصر وخصوصيتها.. أترك له الكلمة لكى نهتدى:

١ ـ **يقول المؤلف**: «رحت أقلب نظرى ذات اليمين وذات الشمال, فيقع البصر على مسميات تقول: مصر البيزنطية, ومصر فى العصر البيزنطى, ومصر القبطية, ومصر فى العصر القبطى... القول بـ«مصر البيزنطية» يستدرجه على الفور إلى القول بـ«مصر البطلمية» و«مصر الرومانية», وبعدها بـ«مصر الطولونية» و«مصر الإخشيدية» و«مصر الفاطمية» و«مصر الأيوبية» و«مصر المملوكية» و«مصر العثمانية».

أين مصر إذن؟ أين خيط تواصل شخصية مصر؟

٢ ـ ماذا عن مصر البيزنطية؟

فقمح مصر ـ على حد تعبير المؤرخ جونز ـ كان حجر الزاوية فى سياسة الإمبراطورية الرومانية والرومانية المتأخرة (البيزنطية) تجاهها, ومصر هى سلة الخبز أو قبو الحنطة للإمبراطورية, ولم يتوقف توزيع حصة القمح المجانى فى القسطنطينية إلا عندما تحولت مصر عن السيادة الإمبراطورية إلى الساحة الإسلامية. وتفوقها العلمى والفكرى بمكتبتها التى لا تقارن فى الإسكندرية, ومدرستها الفلسفية باتجاهاتها المتميزة, وعلو كعب كنيستها على الكنائس الرسولية الأخرى بفضل المدرسة السكندرية اللاهوتية, جعل المدينة كعبة الحجيج لطلاب العلم والمفكرين وقبلة الدارسين, وما المجامع المكانية, والمسكونية التى شهدها القرنان الرابع والخامس لعلاج «مكانة» المسيح ثم «طبيعته», إلا وبصمات الإسكندرية فيها واضحة، ولاهوتها له السيادة, وأساقفتها أصحاب الصوت الأعلى فى كثير من تلك المجامع. وثراء الطولونيين وعسكرية الأيوبيين والمماليك جعل العباسيين يقرون بقدرة مصر الفائقة على التصدى للصليبيين والمغول. ولم يكن ما فعله محمد على والخديوى إسماعيل لمصر فى علاقتها مع الدولة العثمانية بخاف عن أحد, ولا يمكن لباحث أن ينكر ذلك الدور الكبير والفعال الذى قام به الأزهر الشريف حفاظا على العقيدة والشريعة, وتصديا لظلامات الولاة العثمانيين, وانتهاكات

الجنود الفرنسيين.

القول إذن بمصر البيزنطية ـ وما يترتب عليها من نسبة مصر إلى من حكموها من قبل ومن بعد ـ يحمل فى طياته ظلما كبيرا لشخصية مصر ومكانتها التى احتلتها على امتداد هذه الآلاف من السنين. لم تكن مصر هى التى تلونت بمسميات حاكميها. بل هم الذين ذابوا فى أرضها موطنا وثقافتها حياة. يقول القضاعى: «ليس فى الأرض ملك أعظم من ملك مصر. ولو ضرب بينها وبين سائر قرى الدنيا سور لاستغنى أهلها بما فيها عن سائر البلاد. ولو زرعت كلها لوفت بخراج الدنيا بأسرها» ويقول ابن إياس: «اعلم ـ وفقك الله ـ أن مصر من أجل البلاد قدرا».

وماذا عن «مصر فى العصر البيزنطى»؟

لعل هذا يعد أقرب الأمور إلى الحقيقة. ولكن مع الحذر التاريخى. فنحن الآن نعالج القرون من الرابع إلى السابع. وهى فترة التحول الكبير فى مجرى التاريخ من العصر الرومانى إلى العصر البيزنطى. وقد اصطلح على تسميتها بـ«العصر الرومانى المتأخر» أو «العصر البيزنطى المتقدم» فلم تعد خصائص الحضارة الرومانية آنذاك كما كانت عليه فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد ونظيريهما بعد الميلاد. بل أمست باهتة. ولم تتضح بعد قسمات هذا الآتى الجديد الناجم عن اختلاط وتفاعل هذا التراث الرومانى بالتراث اليونانى والحضارات الشرقية القديمة والمسيحية. وإن بدت شاحبة. حتى قرب نهاية القرن السادس الميلادى، نقول: إن جوستران كان لغز الأباطرة الرومان ولم يصبح بعد بيزنطيا! واللغة باعتبارها الوعاء الحضارى استغرقت هذه القرون لتتحول إلى اليونانية بدلا من اللاتينية لغة الإمبراطورية الرومانية. عندما أقدم هرقل فى عام ٦٢٧ على إسقاط لقب «إمبراطور» اللاتينى واستعاض عنه بلقب بازيليوس اليونانى. ثم أصدر قراره باعتبار اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية. لنصبح أمام إمبراطورية رومانية بلسان يوناني!!

ومن ثم فإنه يصعب القول بـ«عصر بيزنطى» حقيقى قبل نهايات القرن الثامن الميلادى وأوليات التاسع؛ ولذلك، فالقول بـ«مصر فى العصر البيزنطى» يمكن أن يكون مقبولا تجاوزا؛ لأنه عندما جاء العصر البيزنطى واقعا كانت مصر خارج دائرته

بالفعل, إذ كانت آنذاك فى ظل سيادة الدولة الإسلامية.

٣ ـ أما القول بـ«مصر القبطية» أو «مصر فى العصر القبطى» فهو بعيد عن الحقيقة التاريخية تماما, ولا يتفق مع المنطق جملة وتفصيلا, فليس هناك فى التاريخ ما يسمى بـ«عصر قبطى» إلا إذا أطلقنا ذلك على التاريخ المصرى كله منذ بدايته المعروفة فى الألفية الخامسة قبل الميلاد, إلى أن تقوم الساعة. لأن كلمة «قبطى» تعنى مصرى. والقبط والأقباط تعنى المصريين جميعا منذ فتحت الدنيا عليها عيونهم قبل فجر التاريخ. وهذه الكلمة «قبط» تعود فى جذورها ـ على أكثر الأقوال شيوعا ـ إلى كلمة أجبه أى أرض الفيضان, وهى بذلك تعود إلى أصول مصرية, أو تعبير «حوت كا ـ بتاح» وتعنى «مقر قرين الإله بتاح», وهو إله مدينة منف, وهو الاسم الذى كانت تعرف به المدينة, ولما كان التقليد قد جرى عند المصريين دوما بإطلاق أو تعميم الاسم على البلد كليا, فلقد حدث ذلك فيما بعد, وقد جرى هذا أيضا على عاصمة مصر زمن الإمبراطورية المصرية القديمة, حيث يقول هيرودوت: «.. وكانت طيبة التى يبلغ محيطها ستة آلاف ومائة وعشرين ستادا تسمى منذ القدم «مصر». كما هو واقع الآن حيث يطلق المصريون على القاهرة «مصر», فالمصرى فى أقصى الصعيد يعلن أنه سوف يقصد مصر لأداء مهمة بعينها, وهو يعنى القاهرة, وكذلك يفعل السكندرى وكل أبناء مدن مصر وقراها.

ولما كان تعبير الحروف بحروف أخرى أو إسقاط بعضها أمرا واردا مع اختلاف طبيعة النطق فى اللهجات المخالفة وتباينها من شعب إلى آخر, أو حتى من وقت لآخر فى البلد الواحد, فقد تحولت «الحاء» إلى «هاء» وأسقط حرف «التاء» لتصبح الكلمة «هكاتباه», ثم صحفت هذه الصيغة فى اليونانية لتصبح «الهاء» همزة, والـ«كا» «جيما», وأضيفت إليها النهاية اليونانية, لتجيء على هذا النحو «إيجبتوس» Aegyptus ، ولترتبط بها مجموعة من الروايات الأسطورية كان من بينها أن اسم منف الذى حملته هذه المدينة, هو فى الأصل اسم لابنة الملك الذى بناها, وهى الفتاة التى تدله بحبها إله النيل وأنجب منها «إيجبتوس» الذى اشتهر بالفضيلة, فأطلق الناس اسمه على مصر. وعلى النحو نفسه, انتقلت هذه الصيغة اليونانية إلى اللغات الأوروبية الحديثة, مع إسقاط النهاية US والإبقاء على جذر الكلمة, كما عرفت فى العربية مع

التصحيف بقبط بعد حذف Ae اليونانية والإبقاء على جذر الكلمة الرئيسى «gyp». وهكذا فقد أضحت كلمة «قبط» تعنى مصر, كما تعنى أيضا أهلها, وهى فى هذه الأخيرة تستخدم فى صيغة الجمع, فالقبط هم المصريون, ومفردها «قبطى» أى مصرى, وقد تجمع أحيانا على «أقباط» أى مصريين.

القبطية إذن ليست دينا, فمن الخطأ البين القول بـ«الديانة القبطية» إلا إذا انصرف الذهن إلى الآلهة المصرية القديمة, و«القبطية» بالتالى لا تعنى «المسيحية» وليست بديلا عنها, ومن ثم فإن كلمة «الأقباط» تعنى المصريين جميعا, المسلمين والمسيحيين على السواء, فهذا «قبطى» أى «مصرى» مسلم, وهذا «قبطى» أى «مصرى» مسيحى, تضمهم جميعا بين أحضانها البلد العظيم.. مصر.

ومن ثم فالقول بـ«مصر القبطية» أى «مصر المصرية» أو «مصر فى العصر القبطى» أى «مصر فى العصر المصرى» لا يستقيم مع التاريخ ولا مع المنطق.

ولعل فى هذا التحليل التاريخى الدقيق ما يكشف أكذوبة «الأقلية» القبطية فى مصر.

٤ ـ حسنا.. إلى هنا والأمور واضحة, مقبولة, لماذا إذن التوجه إلى ساحة «الفكر»؟

يقول المؤلف: «لهذا كله آثرت أن أعنون الكتاب «الفكر المصرى فى العصر المسيحى», فقد كان ذلك واقع الحال الذى تعيش فيه مصر والإمبراطورية آنذاك, لقد عرفت المسيحية طريقها إلى الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الأول الميلادى, وظلت تنتشر على استحياء طيلة القرون الثلاثة الأولى, حيث كان للوثنية السيادة, فلما كان القرن الرابع الميلادى, وهو بداية الفترة التى نتناولها هنا, حدث انقلاب هائل فى الناحية العقيدية, وترتب على ذلك تحولات جذرية فى مختلف المفاهيم فى الإمبراطورية, فقد اعترف قسطنطين العظيم فى مطلع القرن ذاك بالمسيحية ديانة شرعية، أى لها أحقية الوجود إلى جانب الوثنية واليهودية, وتحول عدد كبير من الناس إلى المسيحية بحكم اعتناق الأباطرة خلفاء قسطنطين لها, حققت المسيحية انتصارا كبيرا عندما أعلن الإمبراطور ثودوسيوس الأول اعتبارها الديانة الرسمية للإمبراطورية, وحل بالوثنيين سوء العذاب. وعلى امتداد القرون الثلاثة التالية ـ حتى السابع ـ راحت الإمبراطورية تصطبغ بالصبغة المسيحية تدريجيا فى الفكر السياسى, والتشريعات القانونية, والمعاملات

الاقتصادية, والكتابات الأدبية, والتشكيلات الفنية, ومناحى الحياة الاجتماعية, وطغت المناقشات الدينية والجدل العقيدى على ما عداهما من الأمور الأخرى. ولم يكن آباء مدرسة الإسكندرية وأساقفة كنيستها أقل شأوا، خاصة فى المسائل الجدلية العقيدية, حتى أصبحت قسمات الفكر الدينى السكندرى علامة بارزة فى العقدية المسيحية آنذاك, وحتى ذلك الحين ـ أى مطلع القرن السابع الميلادى ـ لم يكن الإسلام قد ظهر بعد, من هنا كان استخدامى لمصطلح «العصر المسيحى» تعبيرا عن واقع الحال خلال تلك القرون من الرابع إلى السابع».

التفوق عبر التبعية

إلى أن يصل الدكتور رأفت عبد الحميد إلى جوهر رسالة مصر الحضارية:

«لم أشأ أن يأتى كتابى هذا «نمطيا» أو بتعبير آخر «تكرارا» لكتب عديدة سبقته تداولت تاريخ مصر إبان تلك الحقبة الزمنية, وتحدثت عن النظام الإدارى, والأحوال الاقتصادية, والنظم العسكرية, وأحيانا الحياة الاجتماعية, فتلك أمور لم تتغير فى مصر منذ عصر البطالمة حتى عصر محمد على, أى على امتداد ألفين ومائة من السنين تقريبا, وكانت كل المحاولات أو الإصلاحات التى يقدم عليها هذا الحاكم أو ذاك عبر هذه القرون التى بلغت واحدا وعشرين قرنا تهدف إلى غرض واحد فقط يتلخص فى تقوية قبضة الحكومة وسلطاتها, وضبط مياه النيل, لزيادة حصيلة الضرائب, وكلاهما مرتبط ببعضه, ومن ثم يغدوان كما قلنا هدفا أو غرضا واحدا, ولا شىء سوى ذلك.

لهذا نظرت إلى مصر فى جانب آخر غير هذه الجوانب جميعها, أعنى جانب تفوقها وسبقها على من كانت بأيديهم السلطة والنفوذ والجباية, إيمانا منى إيمانا يقينيا بأن مصر ـ كما قدمت ـ إذا فقدت استقلالها السياسى عوضت ذلك بالتفوق فى ميدان آخر, بحيث يسمى هذا المحتل تابعا لمصر فى هذا الجانب, وفى عصرنا هذا الذى نتحدث عنه حققت مصر مكانة مرموقة فى الجانب الفكرى, نعنى بذلك ما يتعلق بأمر العقيدة الدينية, فقد فرض اللاهوت السكندرى نفسه على الفكر الكنسى كله فى دنيا المسيحية, سواء كان ذلك فى «الأوربجنية» التى شغلت أذهان الإكليروس والرهبان وحتى الأباطرة حتى القرن السادس الميلادى, أو الأربوسية التى سادت الإمبراطورية طوال

القرن الرابع, أو «الكيرالية» التى عقدت من حولها المجامع فى القرن الخامس الميلادى. وليس هناك مدينة ـ كما يجمع المؤرخون ـ فرضت بصماتها وطابعها على المسيحية كما فعلت الإسكندرية, وكانت كنائس روما والقسطنطينية وأنطاكية تنتظر القول الفصل فى أمر العقيدة من الأسقف السكندرى.

وقد تناولت الفكر المصرى خلال تلك الفترة فى اتجاهاته كلها ؛ الاتجاه الوثنى بشقيه المادى والفلسفى, ثم الاتجاه المسيحى فى شكله الجديد, أعنى ما أطلقنا عليه المسيحية الفلسفية, ثم الاتجاه التأملى المتمثل فى الرهبانية, وهى الجوانب التى فاقت فيها مصر زمانها ومعاصريها, وخصصت لكل من هذه الاتجاهات فصلا مستقلا, وأضفت إلى ذلك فصلين آخرين حول امتداد هذا الفكر المصرى إلى إفريقيا بارزا فى الكنيسة الإثيوبية, وكيف نجحت مصر نجاحا كبيرا خلال هذه المكانة التى احتلتها فى التدخل المباشر ـ وهى الولاية ـ فى شئون البلاط البيزنطى ومن يعتلى عرش القسطنطينية.

ذلك مبلغى من العلم, فإن أصبت فمن الله, وإن أخطأت فمن نفسى».

ـ ٣٧ ـ

سلامة موسى: رائد التفكير العلمى فى مصر

«لا شىء يرفع مقام الوطن والوطنية فى بلاد مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا فى خدمتها، وقضوا أعمارهم فى العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها، ولا شىء يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان فى أمة وجهلها لتاريخها وعدم تقديرها الرجال المخلصين فى خدمتها».

(مصطفى كامل، ١٠ مارس ١٩٠١)

«إن بؤرة إيمانى هى الإنسانية بمن تحوى من فلاسفة وأنبياء وأدباء، وبما تحوى من شجاعة وذكاء ومروءة ورحمة وجمال وشرف .. وحين أتأمل شخصيتى وأهدافى أحس أنى أؤدى فى مصر فى القرن العشرين ما كان يؤديه رجال النهضة فى أوروبا فيما بين سنة ١٤٠٠ وسنة ١٨٠٠، ولذلك أجد قرابة روحية ونشاطًا رساليًّا بينى وبين «ليوناردو دفنشى» و«فولتير»، و«ديدرو»، ومن إليهم. ومن هنا دعوتى إلى العقل بدلاً من العقيدة، وإلى استقلال الشخصية بدلاً من التقاليد .. إننى أؤمن بالحقائق، ومن هنا تعلقى بالعلم لأنه حقائق. وإذا كان لا بد من عقيدة فإنى أؤمن بها عندما تكون ثمرة الحقائق العلمية. وأؤمن بأنه ليس فى الدنيا أو الكون أو المجتمع استقرار، لأن التطور هو أساس المادة والأحياء والمجتمعات، أى أساس الوجود، وأن الجمود الاجتماعى هو معارضة آثمة من الأشرار لسنن الكون والحياة».

(سلامة موسى: «تربية سلامة موسى»)

مصر للمصريين

«لقد قضيت عمرى إلى الآن فى بقعة مضطربة من هذا الكوكب، هى مصر.

وعشت هذا العمر وأنا أرى انتقالها المتعثر من الشرق إلى الغرب، أى من آسيا إلى أوروبا، وعاينت مخاضها وهى تلد هذا المجتمع الجديد الذى لا يزال طفلاً يحبو، كما عاينت كفاحها للإنجليز المستعمرين وللرجعيين المصريين، وكل هذا يستحق أن يروى، وأن يقف عليه الجيل الجديد. ميلاد كل منا هو مغامرة مع القدر. إن قصة كل منا هى قصة فترة مفردة تستحق أن تروى وتقرأ، كلنا يجب أن يتحدث عن نفسه...» هكذا كتب سلامة موسى عام ١٩٤٧.

كانت مصر عام ١٨٨٧ جزءًا من الإمبراطورية البريطانية. كانت بيئتها الاجتماعية تركية فى جميع نواحيها، كانت العقلية القديمة المتخلفة تسيطر على كل جانب من جوانب حياتنا العامة والخاصة. نشأ سلامة موسى فى أسرة ريفية متوسطة الحال، شديدة التمسك بالتقاليد، وعرف أهوال المدرسة المصرية المظلمة آنذاك. وقصد القاهرة لأول مرة عام ١٩٠٣ تلميذًا بالمدرسة الخديوية، وشاهد بها السيارة (الأتوموبيل) لأول مرة، وحملة قاسم أمين لتحرير المرأة، وأولى جولات الحزب الوطنى.

إنه يصف كيف كانت دعوة مصطفى كامل إلى تركيا سببًا فى تمزيق وحدة الحركة الوطنية المصرية، إلى أن جاء لطفى السيد: «لم يصلح هذا الفساد القومى غير أحمد لطفى السيد. أسس «الجريدة» ودعا دعوة مصرية بحتة ليس فيها شىء من الدعاية للأتراك أو العرب، وظل أحمد لطفى السيد فى الجرائد يدافع عن هذه البديهية الواضحة، وهى أن مصر يجب أن يملكها المصريون دون الأتراك ودون الإنجليز. ووجد فى البداية مصادمة قوية من الكتاب الذى ألفوا الدعوة للأتراك، ولكن سرعان ما انتصر وظفر بالرأى العام فى مصر. ووجد المثقفون فيه أملاً جديد يعبىء الأمة للإصلاح والتجديد».

ما هو الاستعمار

كرومر، جورست، كتشنر، هؤلاء حكموا مصر باسم الجلالة الإمبراطورية حتى ثورة ١٩١٩. كان الأول «لوردا لا يعد هتلر شيئًا بجانبه من حيث الاعتقاد بأن الأوروبيين يفضلون الآسيويين والإفريقيين». كانت سياسته كالآتى:

١ ـ قتل الصناعة المصرية قتلاً تامًّا بحيث لا يجوز لمصرى أن ينشئ مصنعًا، إذ أن

على مصر أن تستورد جميع المصنوعات من إنجلترا، بل وغير إنجلترا إذا اقتضى الأمر ذلك، حتى لا يتعلم المصريون شيئًا من الثقافة الصناعية.

٢ ـ إحالة القطر المصرى كله إلى مزرعة للقطن، وكأنه ضاحية لمصانع لنكشير، وتوجه نشاط الحكومة إلى هذه الغاية، حتى فقدت كلمة «مشروعات» معناها اللغوى عند الحكومة، وأصبح معناها اللغوى الوحيد زيادة المياه للرى حتى تزيد مساحة الأراضى التى تزرع قطنًا، وكانت هذه الزيادة فى المياه السبب فى تفشى البلهارسيا والإنكلستوما واستشباع التربة بالماء حتى وهنت.

٣ ـ قصر التعليم وتحديد عدد المدارس لتخريج الموظفين للحكومة فقط، وذلك بعد قصر نشاط الحكومة على مهمة واحدة فقط هى زراعة القطن وتصديره.

٤ ـ المحافظة على تقاليدنا التى ورثناها من القرون المظلمة وكانت تؤخرنا، وأهمها تثبيط تعليم المرأة، وقد اتبع من جاءوا بعده هذه الخطط كلها، حتى أننا لم نؤسس مدرسة ثانوية للبنات إلا فى ١٩٢٥».

ثم جاء «جورست» و«زاد على ذلك الوقيعة بين المسلمين والأقباط، وزاد أيضًا حبًا متبادلاً بينه وبين الخديوى عباس على حساب الشعب». ومن بعده اللورد «كتشنر» «صغيرًا فى أساليبه، شرسًا فى مبادئه الإمبريالية».

يقول سلامة موسى: «كانت مدرسة الطب محدودة العدد حتى أن خريجيها فى بعض السنين لم يكونوا يزيدون على ٦ أو سبعة فى العام كله، وكان أطباء الجيش المصرى يجلبون من لبنان من خريجى الكلية الأمريكية ببيروت. وإنى أذكر فيما بين ١٩٠٠ و١٩٠٥ أنى لم أزر طبيبًا مصريًا، ولم أكن أسمع عن طبيب مصرى، إذ كان كل الأطباء الممارسين بالقطر المصرى أجانب من اليونان أو الإيطاليين أو الإنجليز أو الفرنسيين. أما من ناحية الصناعة، فقد عرفوا المصنع فى عام ١٩٠٤ بأنه «محل مقلق للراحة أو مضر للصحة أو خطر»، ولا يزال هذا التعريف قائمًا إلى الآن، وهو يكفى لإقفال أى مصنع فى العالم...»

وهو يبين لنا أسباب انتشار الأمراض فى ريفنا المصرى بعد تحويل مصر إلى مزرعة قطن كبيرة: «وقد فشت ديدان البلهارسيا والإنكلستوما والإسكاريس التى لم نكن

نعرفها فى ١٩٠٠ إلا قليلاً جدًّا، إذ لم يكن الفلاحون ممن يحملون هذه الديدان فى أجسامهم تأكل لحومهم وتشرب دماءهم من ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠ سوى ٢ أو ٣٪، فأصبحوا الآن بفضل جنون الساسة التجاريين من الإنجليز نحو ٨٠ أو ٩٠٪ وأصبحنا أمة مريضة نحاول أن نشفى فلاحينا من هذه الديدان».

نهضة أوروبا

ثم التقى سلامة موسى بالحضارة الأوروبية فى مهدها، فى فرنسا وإنجلترا منذ ١٩٠٨. وهناك التقى الشاب الوطنى المطلع إلى الثقافة والمعرفة بالفكر العالمى الحديث، كما التقى بالاشتراكية كنظرية وحركة سياسية. قرأ سلامة موسى جريدة «أوماتيته» لسان حال الحزب الاشتراكى الفرنسى، وانضم إلى الجماعة الفابية الاشتراكية الإصلاحية فى إنجلترا، والتقى بكبار رجالاتها «برنارد شو» و«هـ.ج. ويلز» ـ وعرف جماعة العقليين من الفلاسفة والمفكرين الأحرار فى لندن وباريس. وبدأ سلامة يتساءل عن مغزى حياته، وعن هدفه من الدنيا، وهو فى مطلع الشباب:

«ماذا أفعل فى هذه الدنيا؟ من هم خصومى الذين يجب أن أكافحهم؟ من هم أصدقائى الذين يجب أن أؤيدهم؟ ووجدتنى أفكر وأجيب: أجل، ليس لى مأرب فى هذه الدنيا. فلست أبالى أن أكون ثريًا، لا بل لست أبالى أيضًا أن تكون لى زوجة وأطفال. وإنما قصدى أن أفهم، أن أعرف كل شىء، وآكل المعرفة أكلاً. ثم عدت فقلت:

ولكن لماذا؟ وأجبت: لأكافح. أكافح الإنجليز حتى يجلوا عن وطننا، وأيضًا أكافح تاريخنا. أكافح هذا الهوان الذى يعيش فيه أبناء وطنى: هوان الجهل وهوان الفقر. أجل إنى عدو للإنجليز، وعدو لآلاف من أبناء وطنى، لهؤلاء الرجعيين الذين يعارضون العلم والحضارة العصرية. وصارت هذه الأفكار همًّا يؤرقنى».

وجاء كتابه الأول «مقدمة السبرمان» عام ١٩٠٩ يلخص هذه التجارب الأولى وفى ٤٠ صفحة. وظل سلامة موسى طيلة حياته يعمل لكى تعرف مصر معنى «عصر النهضة» الذى عاشت فيه أوروبا منذ القرن الخامس عشر.

هؤلاء علمونى

يعقوب صروف، فرح أنطوان، أحمد لطفى السيد ـ يقول عنهم سلامة موسى: «كان هؤلاء الثلاثة من القوات التى صاغت شخصيتى الذهنية، فالأول وجهنى إلى طريق العلم .. والثانى بسط لى الآفاق الأوروبية للأدب. والثالث جعل من المستطاع لى ـ بوصفى أنى غير مسلم ـ أن أكون وطنيًا فى مصر».

ثم جاء دور أعلام الأدب والفكر فى فرنسا وإنجلترا وأوروبا: «نيتشه» الفيلسوف الألمانى الذى أَلَّهَ الفرد على حساب العقل والمجتمع، «أيبسن» الذى خلق المسرح المعاصر خلقًا هو و«تشيكوف»، ثم «برناد شو» و«ويلز».

«المغزى فى «شو» أن الإنسان سيتغير، جسمًا ونفسًا، لأن التطور يقضى بذلك، ورسالته هى أن يبعث وجدان التطور فى قرائه. ولكن المغزى فى «ويلز» أن المجتمع سيتغير، فى نظمه وأخلاقه، لأن الآلات قد أحدثت قوات اقتصادية جديدة. ورسالته هى أن يبعث فى قرائه وجدانًا هو أن هذا العالم قريتنا الكبرى، إلى أن يقول عن أستاذية «داروين» و«ماركس»:

«داروين وماركس»، كلاهما قد غرس فى رأسى مركبات ذهنية، وجعلنى أنظر إلى الدنيا وإلى الأحياء فى استعراض علمى وتحليل اقتصادى وسيكولوچى، وعندما أستبطن إحساسى الدينى أجد أن ثورة هذا الإحساس هى التطور ... والمتعمق فى دراسة ماركس لا يملك من الشعور بأنه هو ـ لا فرويد ـ الأساس الصحيح للفهم السيكولوچى. فإن ماركس أثبت أن العواطف الاجتماعية ـ أى التى نكتسبها مع المجتمع ـ أكبر قيمة وأبعث على التغيير والتطور، وأثبت فى كياننا مما نسميه العواطف الطبيعية. ولذلك لا يقتصر فضل ماركس على أنه جعل الاقتصاد علمًا، لأن الحقيقة أنه جعل كذلك الأخلاق والاجتماع والسيكولوچيا علومًا».

ثـــورة ١٩١٩

ويعبر سلامة موسى عن مفهومه عن ثورة ١٩١٩ الوطنية الكبرى بما يأتى: «ويبرز فى ذهنى ثلاثة أشياء عن ثورة ١٩١٩:

أولها: الإكبار العظيم الذى اتخذه الأقباط، ورفضهم أى مساومة مع الإنجليز بشأن حماية الأقليات...

والشىء الثانى: هو وثبة المرأة المصرية من الأنثوية والبيت إلى الإنسانية والمجتمع.

أما الشىء الثالث: فهو النهضة الاقتصادية التى أثمرت بجهود طلعت حرب وغيره..

وقد بعثت فينا ثورة مصطفى كامل تفاؤلاً عظيمًا، كما بعثت تشاؤمًا عظيمًا عند المستعمرين الإنجليز».

معركة الأدب الجديد

بدأ سلامة موسى اشتغاله بالصحافة منذ عام ١٩٠٩ بمقاله «نيتشه وابن الإنسان» الذى نشرته «المقتطف» آنذاك، وظل يكتب حتى يوم وفاته.

وفى عام ١٩٢٣ بدأت معركة التجديد فى الأدب. بدأها سلامة موسى، تمامًا كما بدأ من قبل معركة الاشتراكية. وكانت الأفكار الرئيسية لدعوته آنذاك هى:

«أن يكون لنا أدب مصرى عصرى، وأن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره، مع مداعبة للغة العامية، وهى مداعبة لم تثمر، أن نأخذ بالأوزان والقيم الأوروبية فى النقد الأدبى دون أوزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجانى وابن الأثير أو ابن رشيق، أن نجعل الأدب يتصل بالمجتمع ويعالج شئونه ويندمج فى مشكلاته، أن نوجد القصة والدراسة المصريتين، أن نجعل الأدب إنسانى الغاية عالمى المشكلات».

وانطلقت أبواب الرجعية تندد بسلامة موسى وتطارده فى كل مكان وتجعل حياته جحيمًا لا يطاق، وتتهمه بالخيانة وتقذفه بأحط الألفاظ، والرجل يتألم، ويصمد ويواصل سيره ويدعم آراءه ويتعمق فى فهمه للمعانى الكبار التى اعتنقها.

إنه يهاجم مذهب الفن للفن هجومًا شديدًا مقنعًا: «إن الأدب فى عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسيًا. وأعنى بالطبع السياسة العليا العالمية والقطرية، ولا أعنى أن يستأجر أحد الأحزاب كاتبًا ... ونحن نعيش فى عصر انفجارى يحفل بالانقلابات الاجتماعية والأدبية والعلمية. وذلك الأديب الزاهد الذى يعيش فى البرج العاجى إنما

يبتعد عن أهم الشئون البشرية حين يبتعد عن السياسة. وكل أديب له وجدان ـ بتطور العالم فى عصرنا ـ يحس أن واجبة الأول أن يكون هو نفسه عنصرًا من عناصر هذا التطور ؛ ولذلك يستحيل أدبه إلى أدب كفاحى سياسى».

الإنسان الحق

«هناك من يستجيبون بالاعتزال، ومن هنا يستجيبون بالإقدام والمكابرة، وهؤلاء هم الذين ينتفعون بالاختبارات. أما المعتزل الذى يؤثر السلامة بالصدور والاعتزال والإحجام والانكفاف فهو ميت، حتى لو طال عمره إلى المائة، لأن الحياة لا تقاس بالطول وحده ؛ إذ أن لها عرضًا وعمقًا أيضًا، ولا يكون لها العرض والعمق إلا بأن ننغمس فيها ولا نقف على ساحلها متفرجين، بل نقتحم عبابها ولو تعرضنا بذلك للموت المبكر».

والإنسان المصرى يجب أن يدرك أنه وريث لتاريخ قاس كان سببًا فى أزمة العقلية المصرية المعاصرة :

«إن مصر نفسها مصادفة سيئة لكل مصرى من حيث إنها مأساة جغرافية ؛ إذ هى تقع فى ملتقى القارات الثلاث الكبرى، كما أنها تقع فى طريق الملاحة بين آسيا وأوروبا، ثم هى فوق ذلك تخلو من الجبال التى تيسر الدفاع عنها، ولذلك وقعت فى أسر الغزو المتكرر». ومعنى هذا أن المصرى المحب لوطنة يجب أن يعمل على بعثه من سباته العميق :

«إن أعظم العقبات التى تؤخرنا فى مصر كما تؤخر كثيرًا من أمم آسيا وأوروبا ـ بعد الاستعمار ـ هى هذه الرواسب من الثقافات والتقاليد والغيبيات الفرعونية والبابلية وأمثالها التى انحدرت إلينا. والبيئة الصناعية وحدها هى التى تحطمها ؛ لأنها لا تنهض إلا على العلم، وهو نار كافية تحرق جميع الرواسب وتبدد عفنها هباءً».

وهذا ما فعله بالضبط سلامة موسى. وإن ظل وحده بين أهل القلم :

«تعدد مؤلفاتى من أدوات التطور الذهنى فى مصر. ففى الوقت الذى كنت أؤلف فيه عن «العقل الباطن» أو «نظرية التطور» وأصل الإنسان أو «البلاغة العصرية

واللغة العربية» أو «حرية الفكر» ثم «حرية العقل» أو «غاندى والحركة الهندية» أو نحو ذلك مما يوجه ويفيد، كان غيرى يؤلفون عن الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين! أجل، كنت أنشد الآفاق وارتاد المجاهل فى الوقت الذين كانوا هم فيه يشرحون لقرائهم قواعد الفعل الماضى. ولكن الجمهور الذى يتعطش إلى الثقافة العصرية كى يفهم الحضارة العصرية لا يحب غير هذه الموضوعات القديمة، فيبقى قديمًا غير عصرى...»

بين الجمود والخلود

وجاءت أحداث ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فحياها سلامة موسى تحية المصرى الصادق.

«كان خلع فاروق انتصارًا للقومية العربية، وليس محض انتقال من النظام الملكى إلى النظام الجمهورى؛ لأن الانتقال الأكبر كان من الحكم التركى الكردى الذى عاش ٧٧٦ سنة إلى الحكم العربى الذى سيعيش إلى الأبد بإرادة الشعب». بدأت مصر ثورتها الاستقلالية، ثم تحولت إلى الثورة الصناعية. وكنا ننتظر جميعًا أن يكون الرجل الذى كان رائدًا للفكر المصرى، والتفكير العلمى، والثورة الصناعية، والتطور، والاشتراكية، والثقافة الجديدة، والسلام، أقول كنا ننتظر أن يحتل هذا الرجل مكانته فى الحركة الثقافية. ولكن العناصر المشبعة بالعقلية القديمة والتى ما زالت تسمم جو الثقافة والتعليم والآداب والفنون فى الكثير من الأحيان ظلت تتنكر له وتنكل به بغية القضاء على سلامة موسى بعد أن أثبت التاريخ أنه على حق، وأنهم إلى زوال: لم يضمه أى منصب فى أى هيئة رسمية أو عامة فى مصر، ظل مبعدًا عن الإذاعة، لم تدرج مؤلفاته ضمن الأعمال المصرية التى تقرر ترجمتها إلى اللغات العالمية، منع بعض الأساتذة الجامعيين موضوع رسالة للدراسات العليا؛ لأنهم يكرهون سلامة موسى، لم يفكر أحد فى منحه جائزة أو تقدير عام، وكأن سلامة موسى لم يعش فى مصر، وكأنه عدو للجميع، أو دخيل على شعبه، وكأن الجيل الذى يمسك اليوم الأمور لم يتربَّ على أساس كتبه الأربعين، وكأننا نحن لم نفكر ولم نبن ولم نتحرك على هدى هذه الثورة الذهنية الكبيرة التى كان رائدها سلامة موسى، وكأن كل مثقف عربى لا يدين له بمفاتيح المستقبل.

لكن مصر اليوم تتحرك بسرعة نحو التحول إلى مجتمع صناعى حديث يهتدى بالتفكير العلمى. عندئذ سيرتفع اسم سلامة موسى إلى القمة، ساطعًا، ناصعًا، كبيرًا، فهو العالم الذى بفضله تغيرت العقلية المصرية فى القرن العشرين، وبدأت تساير العالم المعاصر.

كلا، لم يمت سلامة موسى، وإنما بدأ يعيش حياته الحقة فى قلوبنا أجمعين فى سجل تاريخ الحضارة العالمية، تلك الحياة التى حالوا بينه وبينها، حتى دقت أجراس الخلود، يوم الاثنين ٤ أغسطس ١٩٥٨.

ـ ٣٨ ـ

عود إلى مصر: رسالة الأستاذ العميد

تحتفل مصر ـ شعبًا ودولة ـ بكل اعتزاز وفخر ومحبة بالذكرى المئوية لأستاذنا الجليل الدكتور طه حسين، فى رحاب جامعته، جامعة مصر الأم، جامعة القاهرة. يشاركها فى هذا الاحتفال ـ من قريب أو بعيد ـ عموم رجال الفكر والرأى والعمل فى عالمنا العربى، وكذا كل من يعنى بتحرك مصر ونهضة شعوب الشرق فى القرن العشرين[1]. وكأن الاسم الكريم قد أصبح رمزًا لشىء كبير، لن نغالى إن قلنا إنه «نهضة مصر» الثقافية والحضارية فى مرحلتها الثانية، بعد الانطلاقة الكبرى فى عصر محمد على ورفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وعبد الله النديم، قبل الانكسار والاحتلال.

الاعتزاز، والفخر، والحب ،وكذا، ، وكيف لا؟، التساؤل والمراجعة التحليلية النقدية التى لا بد وأن تواكب كل ما هو كبير وأصيل، كل جديد، كل تحديد وإبداع، إن الفكر الوضعى، الراكد، التعليق على الهوامش، الفكر المسطح السائد فى عصر التردى هو ـ وحده ـ الذى لا يثير، ولا حاضر، ولا جذور. وبالتالى لا مستقبل له.

وتشاء الظروف أن يأتى هذا الاحتفال المئوى فى نفس العام الذى ثار فيه الجدل والتحليل النقدى الجذرى لأمور كبرى فى تاريخ الأمم كانت ـ ولا تزال ـ من الثوابت الإيجابية الهامة فى تطور الإنسان. إن إعادة صياغة الإطار المفهومى للاشتراكية فى القطاع الأوروبى منها كاد يطغى على الفؤاد، و يفرض تجلياته غير المتكاملة ـ وكذا تناقضاته التكوينية ـ على جميع مدارس الفكر والعمل فى عالمنا المعاصر: بين قائل إن التجديد

(١) فى مؤتمر الذكرى المئوية للأستاذ العميد الدكتور طه حسين، كلية الآداب، جامعة القاهرة (١١ ـ ١٤ نوفمبر ١٩٨٨).

معناه نهاية الاشتراكية، ويؤمن بأن التجديد هو طريق تطوير الاشتراكية وحيويتها، والدليل على قدرتها وإمكانياتها الكامنة، وقد شملت حركة التجديد هذه الكثير من الثوابت: مغزى وقيمة ثورة أكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية الكبرى، مغزى إقامة أنظمة اشتراكية بلا مقدمات ثورية مستقلة فى أقطار تابعة للقطب الاشتراكى الأوروبى الأول، العلاقة بين الدولة والحزب، معنى الديمقراطية، فى مجرد تعددية ليبرالية، أم أن لها مضمونًا أكثر عمقًا لا يتخذ بالضرورة شكل التعدد التنظيمى، وارتفعت زوبعة تحليلية نقدية مماثلة فى مركز أهم الثورات البرجوازية الديمقراطية فى العالم الغربى، بمناسبة الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية: أكانت حقيقة تقدمًا شاملاً للعقلانية والفكر العلمى والعدالة؟ أم كانت حربًا أهلية، أكثر الحروب الأهلية شراسة، بعد أن قضت على مقاطعات كاملة من فرنسا بالدم والسلاح، وتركت حتى اليوم أمة منقسمة إلى معسكرى اليمين واليسار، وكأن الفرقة سنة الوجود، بدلاً من وحدة التناقضات الجدلية.

ونذكر هذه الأمور الجليلة بمناسبة الجدل القائم ـ بل والزوبعة المثارة ـ حول مغزى رسالة أستاذنا العميد منذ حين. لا شك أنه عاش حياة واسعة، شاقة، مشرقة، جمعت فى رحابها بين الكثير من المتناقضات والطروح غير المتكاملة ـ شأنه فى ذلك شأن جميع المبدعين المجددين، خاصة فى مرحلة محاولة كسر الانكسار وشق الطريق إلى التحرك والتحرر والتقدم والنهضة. ولكننا نستشعر أن الزوبعة زادت إلى حد يلفت النظر منذ بداية الخمسينيات، ثم جاءت موجة جديدة من العوامل جعلت من طه حسين مثارًا لجدل عنيف فى مطلع السبعينيات.

ما الأمر إذن؟ لماذا هذه الزوبعة إن لم يكن الأمر جليلاً، إن لم تكن الرسالة حقيقة ذات أهمية مركزية بالنسبة لمستقبل مصر؟

نقول إذن بادئ ذى بدء: إن رسالة طه حسين ـ فكرًا وعملاً ـ جزء تكوينى لا يتجزأ من شخصية مصر، من تحرك مصر المعاصر، من النسيج الجدلى بين الشخصية والتحرك فى ظروف محاولة التحرر والنهضة، فى قلب مرحلة تغيير العالم وإرهاصات تشكل العالم الجديد.

إن هذه المقولة الأولية ـ المركزية ـ تعنى أن محاولة إهمالها ـ التى تمت على مرحلتين ـ هى السبب فى إثارة الزوبعة، وخلط الأمور، بحيث كادت الرسالة ومغزاها

تضيع، أو على الأقل تفقد جلاءها وفاعليتها، وفى كلمة: كادت تضيع على مصر طاقة، وسلاحًا، وترسانة فعالة هائلة هى منا وإلينا ولنا، ومن ثم لابد وأن نفسح لها الطريق واسعًا، بوضوح وصراحة وعزم أكيد.

كيف يمكن أن نستعيد المسار، بحيث نمسك بمفاتيح المشكلة، ونستعيد طه حسين على حقيقته؟ وعندنا أن الواقع التاريخي يفرض أن نتلمسه من خلال بيان المراحل الثلاث من مسيرة طه حسين ـ فكرًا وعملاً ـ فى مصر القرن العشرين.

١ ـ **مرحلة أولى** ـ البعد الأول ـ يمكن إيجازها على أنها محاولة التعامل مع التراث المصرى عمومًا والإسلامى على وجه التخصيص، محاولة عصرية، حية، بغية توظيفه لتحريك الركود، وتطوير مصر ـ فكرًا وعملاً ـ من أجل التحرير. على أن يتم هذا كله بواسطة الفكر العلمى، والإيمانية النابعة من تاريخها السبع ألفى، والتعامل مع العلم والعصر بالمنهج العقلى العلمى التحليلى الناقد الدقيق، وتناول الأمور السياسية الاجتماعية بواسطة التحرر الوطنى والديمقراطية الاجتماعية الحقة، والتفاعل مع العالم المحيط ابتداءً من علاقة حضارتنا المصرية الفريدة، انطلاقًا منها، اعتمادًا عليها فى المقام الأول.

القضية المركزية لهذا المجال تبدو وكأنها مسألة التراث، كيفية التعامل مع التراث فى عصر متغير. ولنستعيد بالذاكرة العصر الذى عاشه طه حسين فى طفولته وشبابه ورجولته. فعلى أرض مصر، ضرب الاحتلال العسكرى فى كل مكان، مؤكدًا انكسار المرحلة الأولى لنهضة مصر بزعامة محمد على وصحبه إبراهيم باشا، رفاعة الطهطاوى، على مبارك، ثم عبد الله النديم. وحول مصر ـ فى الإطار الحضارى المحيط ـ كان العصر هو عصر تدهور الخلافة العثمانية حول شخصية السلطان عبد الحميد المتناقضة المهتزة. وفى مواجهة هذا التردى، وقفت جماعة «اتحاد وترقى» ـ التى عرفت فى الخارج باسم «شباب الأتراك» ـ برئاسة رئيس هيئة الأركان العامة للجيش العثمانى، الجنرال أنور باشا، تسعى إلى التعامل مع العصر. وقد بدأ أنور باشا عهده محافظًا متزمتًا، وعدوًا شرسًا للاشتراكية، ثم انتقل بعد هذا إلى مقام الأب الروحى لثورة تركيا الاستقلالية بقيادة مصطفى كمال، تلميذه المختار، إلى أن رأى أن يبتعد عنه بعد أن اختار مصطفى كمال قبل أن يتحول إلى «أتاتورك» العلمانى المتنكر لحلفائه

الأوائل من الشيوعيين والإسلاميين، وإلى حد أن انتهى بأنور باشا المطاف فهاجر إلى الاتحاد السوفييتى، وعلى أرضه أنشأ «اتحاد الشيوعيين الأتراك» باسم الشيوعية والوطنية ـ حياة خرافية لا تزال مطوية ـ وقد بدأت تتكشف تدريجيًا فى البحوث التاريخية التركية منذ سنوات.

وفى وجه هذا التردى، استشعر طه حسين الشاب ـ وكيف لا؟ ـ أن النمط الناجح إنما يأتينا من شمال البحر المتوسط، من أوروبا الليبرالية، وهى بطبيعة الأمر أوروبا الاستعمارية والإمبريالية والعنصرية المعادية لشعوب أمتنا العربية والعالم الإسلامى، ولكنها تقدم فى الوقت عينه أشكالاً متقدمة فى مجال التنظيم المجتمعى، وتنظيم الحياة السياسية بقدر غير قليل من الحريات العامة يمتزج بمذبحة حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ الدامية لإعادة توزيع المستعمرات. وقد أراد حسين أن ينظر إلى الإيجابيات فى القطاع الثقافى والعلمى، دون السلبيات، شأنه فى ذلك شأن العديد من رجال الاتجاه التكوينى الثانى الذى حددناه فى تكوين الفكر المصرى والعربى الحديث المعاصر، اتجاه التحديث الليبرالى، كان فى وسعه أن ينتبه إلى مغزى التحرك السياسى النهضوى بجناحيه الإسلامى والعلمانى فى تركيا، كما فعل «الحزب الوطنى» تمامًا بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد، فقدَّم نمط «اتحاد وترقى» ثم مصطفى كمال أتاتورك، فى نفس الوقت الذى قدم فيه ريادة اليابان فى انتصارها على الأسطول الروسى القيصرى فى معركة تسوشيما ١٩٠٥، وذهب به الأمر أن حيا فى ثورة أكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية فى روسيا النصير الأول لثورة مصر الوطنية، بفضل بعد نظر محمد فريد، لم يكن طه حسين فى هذه الآونة على هذا المستوى ولا من ذلك الفريق. ولكن علينا ألا نبالغ فنظلمه. كان الجو الليبرالى السائد، تحت ضغط ونفوذ الثقافة الأوروبية، كان استجابة لاحتياجات مصر الثقافية والمجتمعية الملحة على المدى القصير.

وقد تجلت هذه الخطوات الأولى فى رسالته للدكتوراه من جامعة باريس السربون عام ١٩١٧ عن «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» (تعريب محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٢٥). الاختيار صائب كل الصواب: يتجه طه حسين إلى محاولة فهم قوانين التحرك التاريخى عند المفكر العلم الذى رأيناه منذ سنوات يبرز ـ كما بيناه ـ بوصفه مؤسس علم التاريخ والاجتماع الحديث حقيقة. وقد لاحظ المحللون أن الرسالة

متناقضة، بل وسطحية فى الكثير من الأمور، وخلصوا إلى أن الأمر يرجع إلى أن المؤلف ـ طه حسين طالب الدكتوراه ـ يعترف بأن الفلسفة الألمانية بالنسبة له غموض وإبهام، بينما الفلسفة الألمانية هى قلب فلسفة الغرب، الذى انبهر به طه حسين آنذاك، وكان مثلث الركيزة الفلسفية التاريخية دون جدال حتى عصرنا (كانط، هيجل، شبنجلر، ولثاى، جنبًا إلى جنب مع الإيطاليين كروتشى وغرامش). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اعتماده على الفلسفة الوضعية المسطحة، ممثلة فى أعماق أوجست كونت، ولا بد هنا من كلمة عن الرجل الذى لعب دورًا سلبيًّا خطرًا فى توجه الفلسفة الاجتماعية فى نهاية القرن التاسع عشر وحتى عصرنا. كان الهدف المعلن هو: «محاربة الاشتراكية». والمنهج هو: التنكر لجدلية التاريخ، هو: أن الواقع هو ما هو قائم، وما هو قائم انعكاس للظروف الطبيعية المحيطة. أى أنه ليس فى الإمكان خير مما كان. فلسفة تتمثل بالجمود والمحافظة، والرجعية التكوينية، وهكذا السطحية فى كل ما تناولته من تحليلات. كان هذا التأثر الرئيسى على تفكير طه حسين الشاب فى تناوله الأول للتاريخ وفلسفته. فلا عجب أن يكون الاتجاه السليم ـ إلى فلسفة التاريخ ـ مقرونًا بتناول محافظ سطحى، لم يمكن طه حسين أن ينفذ إلى جوهر خصوصية ابن خلدون المتفردة بوصفه الرائد المعلم للتاريخ، بوصفه علما، ولدراسة المجتمع بوصفه جوهر علم التاريخ.

ثم جاءت الأعمال الأخرى على التوالى وكلها تعنى بالإسلام الحضارى، وأثره على الحياة الاجتماعية والسياسية. الأعمال المعروفة، وكذا المعارك، وإن كنا نخوض فيها من جديد. وإنما يعنينا هنا أن نؤكد أن محاولته الصادقة كانت للجمع بين الإيمانية وبين ما تصور أنه منهج لفلسفة التاريخ العصرية، مما لم يمكنه من إدراك التكون الجدلى المركب لحضارة الإسلام، وخصوصيتها بالنسبة لما سبقها وما أحاط بها من حضارات الغرب، خاصة وأن طه حسين لم ينتبه إلى أن مكانة مصر الحضارية توازيها ـ على الجانب الآخر من العالم، أى من الشرق ـ مكانة حضارة الصين، وبينهما حضارة الفرس والدوائر المركبة للثقافات التى منها تكونت الحضارة الهندية. فى كلمة: لم يدرك طه حسين معنى الشرق الحضارى، وثقل آسيا، وأن الإسلام لم يكن من الممكن حصره فى الإطار العربى أو الشرق الأوسطى، وإنما لا بد وأن يدرس على سعة شريحته، وهى فى المقام الأول آسيوية، ثم عربية إفريقية، وبالتالى عالمية.

نخلص من هذا التناول السريع لعلاقة طه حسين بالبعد المباشر لتراث الحضارة المصرية، البعد الإسلامى، أنه حاول أن يؤقلم بين هذا البعد وبين ما رأى أنه مقتضى الأمر فى مجال فلسفة التاريخ، وقد أصاب هنا إلى حد بعيد، لم يدرك الجديد، وظلت الوضعية هى المنهج. فالتراث ليس ردة إلى الماضى، وإنما هو امتداد الماضى إلى الحاضر الحى، واستشراف لأبعاد المستقبل. لم يذهب طه حسين إلى هذا النحو، ولكنه ألمح إليه فى الكثير من كتاباته، وخاصة فى «حديث الأربعاء» (١٩٢٦) ثم دعاء الكروان (١٩٣٤)، وأخيرًا الوعد الحق (١٩٤٧)، مرورًا بثلاثية «الأيام» (١٩٢٧، ١٩٣٩، ١٩٧٢).

٢ ـ **الرسالة الثانية**، ولعلها جوهر حياة وبذل طه حسين، كانت فى تجديد فلسفة وسياسة ثقافة مصر الوطنية.

مرة أخرى نعود إلى العصر، لنتفادى الأحكام البعدية المتعجلة. كان العصر فى المقام الأول هو عصر تأكيد شخصية مصر، عصر الحركة الوطنية من أجل الاستقلال والسيادة، عصر التحرر وإقامة معانى الحياة الديمقراطية على أرض الوطن. وقد أكد طه حسين فى جميع كتاباته ـ على مدى العمر وفى كافة القطاعات والمناسبات ـ شخصية مصر الحضارية المتفردة: الفرعونية، القبطية، ثم الإسلامية منذ القرن التاسع.

ورأى: أن هذه الشخصية فى حاجة إلى ثقافة عصرية، ليبرالية، تواكب روح العصر، والعصر فى نظره ـ كما رأينا ـ يتمثل فى التقدم الأوروبى، شمال البحر الأبيض المتوسط. نعم، لقد بدأت الأنظار تتجه إلى الولايات المتحدة منذ الثلاثينيات. ولكن طه حسين ظل رجل الثقافة الأوروبية، وجذورها اليونانية التى استشعر أنها امتداد وتطوير للحضارة الفرعونية ـ وليست الأصل كما ظن الكثيرون، وهو رأى أكدته البحوث الموسوعية التجديدية التى قام بها منذ سنوات قلائل العالم البريطانى الشاب «مارتن برنال» فى كتابه الموسوعى «أثينا السوداء ـ الجذور الأفروآسيوية للحضارة اليونانية». وراح طه حسين يؤكد أن التماثل بين الثقافة المصرية الحديثة وثقافة أوروبا لا يمكن التفريق بينها بوضوح فهى وكأنها من طراز، أو نسيج متقارب، إن لم يكن واحدًا. ومرة أخرى الأصول اليونانية، امتداد للأصل الركين: حضارة مصر الفرعونية.

ويضيف طه حسين أن هذه الثقافة المصرية ـ والوطنية فى المقام الأول ـ لا بد وأن تتسم بالصبغة الديمقراطية، الليبرالية، أى أن تقوم على ركائز المنهج العقلى، والفكر العلمى، والذى لم يستشعر أبدًا أنه مضاد للدين، أو مقابل له، وكأن المسألة نسيج واحد وكل مترابط ـ كما هى بالفعل ـ كما بدت للغالبية العظمى من مثقفى مصر قبل تفجير الصراعات فى الستينيات بعد حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

يتساءل الكثيرون اليوم ـ وخاصة شباب مصر ـ عن موقع طه حسين من البعد العربى، ولا نقول العروبة. كان طه حسين ـ مرة أخرى ـ جزءًا من عصره، من التكوين المجتمعى السياسى الثقافى لمصر المعاصرة قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢. كانت مصر حتى ذلك الحين تؤكد أنها الوطن الوحيد لكل المصريين، وهذا المعنى يعبر عنه شعار الوحدة الوطنية، وأنها جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية بطبيعة الأمر. وقد رأى حزب الوفد أن يتجه إلى دائرة تحرك تدعم سياسية الاستقلالية، واستشعر أن دائرة العالم العربى هى أقرب الدوائر لنا، حيث توحد الثقافة، واللغة، وكذا ظروف كثيرة متشابهة، وخاصة فى منطقة الشرق الأدنى، الشام بالتعبير الشعبى. وقد اتفقت هذه الرؤية مع مصالح الرأسمالية الصناعية والمصرفية الوطنية، بقيادة مجموعة بنك مصر حول محمد طلعت حرب، التى رأت فى السوق العربية امتدادًا طبيعيًا لقاعدتها المصرية. من هنا كان قرار الوفد بإنشاء «جامعة الدول العربية» عام ١٩٤٥ فى الإسكندرية، لا تلبية لمخطط بريطانى، كما ادعت بعض الدوائر الاستعمارية المنافسة لإنجلترا آنذاك، وإنما تلبية لمصالح مصر دولة واقتصاديًّا وثقافة لوجدان شعبها، واحتياج مصر الملح إلى الحليف القريب لفك الحصار المضروب على أراضيها. كان هذا جو العصر، وهذه ـ على وجه التحديد ـ النظرة المصرية إلى العالم العربى، وهى النظرة التى أكدها «الميثاق الثقافى» لجامعة الدول العربية الذى نص فى بنده الأول على أن «كل من يتكلم العربية عربى». أى أن المفهوم مفهوم قومى ـ ثقافى، ينبنى على وحدة الثقافة، وليس مفهومًا قوميًا ـ سياسيًا ينبنى على وحدة الوطن، ومن ثم الولاء لمركزه، الدولة العربية المتحدة.

كان الجو المصرى ـ من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار حول الوفد ـ يشارك فى هذه النظرة، مع بعض التنوع هنا وهناك: فالتحرك المصرى السياسى من أجل النهضة الحضارية ابتداءً من ١٨٠٥ بقيادة محمد على وصحبه كان يهدف لإعادة قدرة مصر

ومجدها العتيد، ثم الانطلاق لدعم الخلافة الإسلامية العثمانية المتدهورة، وذلك لمواجهة أوروبا الضاغطة، القاهرة، التى رأى محمد على أنه لا بد من وقفها عند حدود العالم الإسلامى ومصر فى قلبه. وكان لإبراهيم باشا ـ سارى عسكر جيوش مصر آنذاك ـ الفضل فى إدراك أنه لا بد من تعريب لغة الجيش والقيادة لصهره أداة فعالة من أجل هذا الهدف لا لـ«تحرير» ولا نقل «توحيد» العالم، أو الأمة العربية. كانت النظرة مصرية إسلامية، فى مواجهة العدوان الأوروبى.

وقد استمر الموقف هكذا فى أجواء الحزب الوطنى الأول. تطور الأمر فى ثورة مصر الوطنية عام ١٩١٩ ـ ١٩٢٣ بقيادة الوفد، وقد لعبت مجموعة بنك مصر دورًا هامًا فى توجيه الأنظار إلى أهمية البعد العربى، داخل إطار الدوائر الحضارية الإسلامية بوصفه البعد الأقرب إلى التحرك السياسى الخارجى المصرى. وفى كلتا الحالتين، أو المرحلتين ـ المرحلة الأولى لنهضة مصر الوطنية بقيادة محمد على، المرحلة الثانية للنهضة الوطنية بقيادة الوفد، ثم جمال عبد الناصر ـ ظلت الدوائر النيلية ـ الإفريقية هى الخط الحياتى الأول لسياسة مصر الخارجية: فالسودان جنوب الوادى حقيقة وامتداده نحو منابع النيل، لا حياة لمصر بدون النيل، لا تواجد لإفريقيا الفعالة بدون مصر.

معان توارت منذ ١٩٥٢ لأسباب متعددة، ولكنها لا تزال فى قلب الواقع والوجدان، لا تُنسى.

قد استطاع طه حسين أن يفك الحصار المضروب من حوله بعد معركة «الشعر الجاهلى»، وأن يتولى المركز السياسى الأول فى وزارة المعارف العمومية، مركز المستشار الفنى، إلى أن تولى الوزارة فى حكومة الوفد، فوضع معانى كتابه الهام «مستقبل الثقافة فى مصر» (١٩٣٨) ـ وهو الكتاب الوحيد لأستاذنا العميد الذى لم تصدر له طبعة جديدة على أرض مصر حتى اليوم ـ مكان التطبيق. فى عهده أصبح لجامعة القاهرة ـ فؤاد الأول سابقًا ـ المكانة المرموقة على مستوى عالمى، وهو أمر يصعب تصديقه اليوم بعد ما أصاب عموم جامعاتنا من مصاعب ومشاكل من جراء نزيف هجرة العقول من صفوة رجال هيئات التدريس من ناحية، وبفضل الضغط العددى الهائل على المدرجات والفصول، مما غير الصورة تمامًا (من يصدق ـ مثلاً ـ أن كلية الآداب بجامعة القاهرة كان بها ستة كراسى للأساتذة قبل الحرب العالمية

الثانية؟!..). كان الرجل هو العلم، وقد التف حوله رجال أعلام: عبد الرزاق السنهورى، على مصطفى مشرفة، نجيب محفوظ، وعشرات من الذين رفعوا مكانة مصر عالميًا فى كل قطاعات العلم والمعرفة إلى درجة يستشعرها المبعوثون وشباب الأساتذة اليوم فى رحلاتهم الخارجية ـ وكأن هناك تراثًا غائبًا انكسر ـ وقد يعود ـ تراث صاحبه ومحركه الرائد أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين.

وكان لتطبيق أفكاره فى مجال التعليم الابتدائى ـ وخاصة الثانوى ـ أهمية خاصة، إذ أصبحت السنة التوجيهية بمثابة السنة الإعدادية للجامعة، فى مستوى رفيع لا يقل عن مثيلاتها فى مختلف الدول المتقدمة. وكان أيضًا همزة الوصل بين أعضاء هيئات التدريس وعالم الصحافة والإذاعة، كما أنشأ أهم مجلة ثقافية فكرية فى تاريخ مصر هذا القرن «الكاتب المصرى» التى حاولت مجلة «المجلة» ـ برئاسة صديقه وتلميذه الراحل الكبير الدكتور حسين فوزى ـ أن تستعيد روحها بعد السويس وعودة الجبهة الوطنية المتحدة إلى الوجود فى رحاب وزارة الثقافة الأولى لثورة مصر الوطنية ابتداءً من ١٩٥٦.

وفى هذا كله ظل العالم الاشتراكى بعيدًا عن النظر: الاتحاد السوفييتى، قاهر النازية، نصير المعذبين فى الأرض، بعد غائب فى إنجاز سياسات التعليم والثقافة الوطنية فى مصر. أمام الصين، صين المسيرة الطويلة، فقد ظلت بعيدة تمامًا عن الإدراك وكأن «طريق الحرير» لم يتواجد، وكأن مصر لم تكن صاحبة الفضل فى إحاطة ابن خلدون بالرعاية التى مكنته من صياغة تاريخ العالم وكأن ابن بطوطة لم يكن همزة الوصل الأولى الكبرى بين مصر وعالمنا العربى من ناحية وآسيا الوسطى والصين من ناحية أخرى. كان عالمًا ما زال يتمركز حول البحر الأبيض المتوسط والنيل. عالمًا مباشرًا، حياتيًّا حيويًّا بالنسبة لتحرك مصر وصياغة ثقافتها الوطنية. عالمًا قاصرًا، ما دام يستبعد مصر عن إطارها التاريخى التكوينى الحضارى، ألا وهو عالم الشرق الذى أدركه جمال عبد الناصر فى نظرته السياسية الفذة ابتداء من مؤتمر باندونج (أبريل ١٩٥٥).

ومع هذا، فقد شاء الخصوم أن يركزوا على التباعد بين فلسفة الثقافة الوطنية لطه حسين، المصرية المتوسطية المتجهة إلى أوروبا وحوض النيل، متناسين أن طه حسين شارك غيره من رجال عصره، وكان مع رجال حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وعدد كبير من وجوه اليوم فى عدم إدراك أهمية العلاقة التاريخية العضوية التكوينية بين حضارة مصر

السبع ألفية من ناحية وحضارات الشرق الشامخة، حول الحضارة الصينية، أى الدوائر الثقافية اليابانية والآسيوية الشرقية، والمالية فى جنوب شرق آسيا، ثم الحضارة الوسيطة فى نصف القارة الهندية، والحضارة المغولية فى آسيا الوسطى، ثم حضارة الفرس فى إيران المعاصرة. ما زلنا نتحرك فى إطار المفاهيم الموروثة من عصر التبعية، رغم «باندونج» ورغم مكانة مصر فى إنشاء الحركة الإفريقية ـ الآسيوية، ثم حركة تضامن القارات الثلاث.

٣ ـ **الرسالة الثالثة** كانت المشاركة الفعالة فى الحركة الوطنية فى تحرير مصر، مصر الأم، مصر الأمة، مصر الشعب.

لم تكن الوزارة فى مرحلة حكم الوفد الأخيرة مشاركة إدارية فى عمل إجرائى تقليدى، كانت هذه هى أيام المعركة ضد الاحتلال البريطانى، التى انتهت بإحراق القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥١، ثم انطلاق الضباط الأحرار إلى انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بعد نصف عام من الأحكام العرفية. كانت هذه المرحلة التى حركتها منذ الأربعينيات «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة»، فى علاقة تحالف عضوية بشباب حزب الوفد وقطاعات واسعة من شباب الجيش والإخوان المسلمين ومصر الفتاة والحزب الوطنى، حول البوتقة القيادية الشيوعية. كانت هذه حكومة الوفد التى استطاعت فيها وزارة للخارجية ـ الدكتور محمد صلاح الدين، بعد أن حاصره الطلبة بشعار «نريد السلاح يا صلاح» ـ أن يحمل مجلس الوزراء على نقض معاهدة ١٩٣٦، توطئة للثورة والعمل الذى أطاح بحكومة الوفد، ربما أكثر من حريق القاهرة.

وقد عبر طه حسين عن هذا الجو الملتهب فى مجموعة مقالاته «المعذبون فى الأرض» (١٩٤٩).

حقًا، لقد شارك طه حسين بشكل مباشر فى تحريك الشعور الوطنى من أجل التحرر والديمقراطية والتقدم. وفى هذه المرحلة بدأ يقترب من اليسار المصرى، وقد اجتمعت طلائعه فى مجموعة من المنتديات السياسية ـ الثقافية المرموقة التى كونت الرأى المصرى وطرحت الإشكالية المصرية فى اتجاه وطنى ديمقراطى تقدمى لم يتزحزح: «دار الأبحاث العلمية» «لجنة نشر الثقافة الحديثة»، ومجلات «الفجر الجديد» و«أم درمان» وكذا صداها فى «المصرى» و«الوفد المصرى». مرحلة كبيرة صاغت فلسفة

ومحاور تحرك الجبهة الوطنية المتحدة بطبيعة الأمر إلى إنجاز ثورة مصر الوطنية الديمقراطية حتى جاءت حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فاتجه المسار إلى طريق آخر، يواكب معانى الطريق الأول، ولكنه يرفض بشكل أساسى مفهوم الديمقراطية، ولا يقترب من الجبهة الوطنية المتحدة إلا بحذر، مفضلاً حركات القمع المتتالية التى أضعفت الجبهة الداخلية وفتحت صفوف الوطن لضربات الصهيونية فى أيام يونيو ١٩٦٧ السوداء.

لم إذن هذا الضجيج الذى يرتفع اليوم حول طه حسين ورسالته؟ وهل يمكن تُرى أن تفسره بوصفه تعبيرًا عن «تناقضات» الرجل العلم؟ أم أن هناك أبعادًا أكثر عمقًا وأهمية؟

المعركة الأولى، معركة الأصولية والتحديث فى دائرة فهم الإسلام ـ فى عصرنا ـ معروفة بما فيه الكفاية. وهى حقيقة ليست بيت القصيد فى عرضنا اليوم.

وعندنا أن المعركة الثانية كانت هى بداية تأزم سمعة طه حسين فى أوساط واسعة من الجيل الجديد. فقد رأى العديد من رجال حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ـ التى تحولت إلى ثورتنا الوطنية، ثم الاجتماعية فى مرحلتها الثانية ـ أن طه حسين يرفض الوحدة العربية، أى البعد العروبى، متمسكًا بالوطنية المصرية التقليدية، وقد شرحنا بإيجاز ما شاهدناه من موقف آنذاك. ولعل هذه المعركة التى لا تزال تترك جراحها إلى اليوم، فى طريق الإدراك المتعقل، خاصة بعد النقد الذاتى لجمال عبد الناصر فى أكتوبر ١٩٦١، بعد فشل تجربة الجمهورية العربية المتحدة، وتحول مصر إلى «إقليم جنوبى»، ثم اعتدال المسار فى السنوات الأخيرة. فمصر الوطن جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، فى دائرة الحضارة الإسلامية الآسيوية الإفريقية ـ أى الشرقية، وهى كذا، وبطبيعة تكونها التاريخى ـ الجغرافى جزء لا يتجزأ من إفريقيا ومحوره النيل، ومن دائرة البحر الأبيض المتوسط، التى تقف أوروبا على شمالها.

ولكنما الضجة الكبرى بدأت منذ سنوات، فى مطلع السبعينيات، عند تقدم الاتحاد الإسلامى فى عموم قطاعات ومستويات الحياة السياسية والمجتمعية والثقافية المصرية، ردًا على ما استشعره من تجاهل تارة، ثم ـ وخاصة بعد ١٩٧٩ ـ ردًا على الغزوة الصهيونية الإمبريالية العنصرية لأجواء مصر. وكان من الطبيعى، ومن الممكن ـ بل ومن اليسير ـ أن يدرك الجميع مكانة طه حسين فى هذا التحرك المشروع الطبيعى:

ألم يكن هو الذى أكد العلاقة الأكيدة بين الإسلام والعصر؟ ألم تكن المعارك المفتعلة التى أُثيرت حول محاولاته للتأليف بين التراث والمعاصرة مغايرة تمامًا لطروح اليوم؟

أم أن هناك معركة مفتعلة، أسقطها العدو الحضارى على أرض مصر منذ نهاية السبيعنيات، بغية تقسيم الصفوف بين معسكرين، لا يمين ولا يسار الأمس، وإنما «العلمانيون» و«الإسلاميون» وكأن الوطن ثانوى بالنسبة للتوجه المذهبى، وكأن وحدة الأمة فى المقام الثانى بالنسبة للتوجه الفلسفى الأيديولوچى، معركة نشهدها اليوم بحسرة شديدة إدراكًا من الجميع العقلاء والساسة المجربين أنها معركة مفتعلة مصطنعة، تهدف مرة أخرى إلى تقسيم صفوف جبهتنا الوطنية المتحدة، لبث الخلاف وتعميقه بين أبناء الوطن، فى اللحظة التى نحن أحوج ما نكون فيه إلى تعبئة كافة الطاقات الوطنية، إلى جمع جميع المدارس الفكرية التكوينية للفكر والعمل من أجل وقف التردى، وإعادة التقدم فى طريق صياغة مشروع مصر الوطنى الحضارى الكبير، فى قلب أمتنا العربية، فى قلب الدائرة الحضارية الإسلامية الآسيوية الإقريقية، فى مواكبة المحاولات المماثلة من معظم الدوائر الحضارية والثقافية التى بدأت تستشعر مأزق المشروع الحضارى الغربى. فالإنسان لا يحيا من أجل الإنتاج بلا حدود، والاستهلاك بلا حدود، والمتعة بلا حدود، الإنسان لا يحيا بالماديات فقط، دون المعانى الروحية، والدينية، والفلسفية، والأخلاقية، فالحياة بدون قيم لا مغزى لها، الحياة البهيمية القائمة على مفهوم التنمية الميكانيكى أدت بالإمبريالية إلى الانكسار فى كل مكان، وأدت بالأنظمة الاشتراكية التى حاولت أن تواكبها إلى التأزم.

فالثورة الروحية لا بد وأن تواكب الثورة الاجتماعية السياسية، موضوع كبير يشغل اليوم المكانة المركزية فى تجديد الفكر العالمى، فى مرحلة تغيير العالم وصياغة العالم الجديد.

عود إلى مصر إذن؟..

عود إلى مصر بكل المعانى وكافة المستويات، فكرًا وعملاً، إيمانًا وعقلاً، تحررًا ووحدة. عصرية وتراثية حية.

عود إلى مصر إذن. ومن هنا مكانة ومقام طه حسين. كان الرجل ـ وسيظل فى رأينا ـ

الممثل الأول ــ والأكثر بروزًا ــ للتشابك الجدلى المركب، شديد التناقض، عميق التوحد، لشخصية مصر الحضارية، منذ صياغتها، وعبر عصورها الحضارية الثلاث: الفرعونى، والقبطى، ثم الإسلامى العربى الحديث. فإذا أردنا أن ننصف الرجل، وكلنا هنا ممن يدينون له بالعلم والفكر والمحبة والاحترام والاعتزاز، إذا أردنا أن ننصف طه حسين فلا بد ـ نعم ـ أن ننصف مصر.

لم يكن ممثلاً لتراث ماضٍ حاول أن يتعصر. ولم يكن كذلك رائدًا ومنذرًا للمستقبل الثورى المتغير. كان رجل المرحلة الوسيطة: مرحلة الانتقال من عصر التبعية السياسية والفكرية والثقافية إلى عصر التحرر السياسى والثقافى والفكرى. وكان رجل هذه الوساطة فى مرحلة تاريخية لم تتضح بعد من خلال تحركاتها معالم ومحاور المستقبل، ما زال العالم آنذاك يتمركز حول الغرب ــ أوروبا ثم أمريكا الشمالية ــ لم يكن البعد الشرقى واضح المعالم كما هو اليوم، ابتداءً من مرحلة ١٩٤٩ ــ ١٩٧٣. لم تكن دوائر تحرك مصر الثلاث: العربية ـ الإفريقية ـ الإسلامية محل اجتماع. لم يكن فى مقدور أحد أن يتصور بوضوح مسارات المستقبل، وكم تعددت: من جبهة وطنية متحدة أجهضت إلى انقلاب عسكرى تحول إلى ثورة وطنية، ثم اجتماعية شاملة، ثم تردَّ إلى تبعية للنفوذ الأمريكى، رغم عبور أكتوبر الذى هز أركان النظام العالمى ورفع رأس مصر عالية إلى محاولة التضبيط، وتحديد المسار الواقعى الممكن مرة أخرى فى قلب نظام عالمى ثنائى القطبية بدأ يتزعزع يومًا بعد يوم، بينما لم تتضح بعد ــ على الأقل لدى الكثيرين على أرض الوطن ـ معالم تكوين العالم الجديد.

عود إلى مصر، ليس إنصافًا لأستاذنا الجليل، وإنما ــ نعم ــ إنصافًا لطلائع مصر التى عاشت وعملت وحاربت وأنتجت فى سبيلها ومن أجلها ـ وفى طليعتها ــ رجال ونساء يدينون لأستاذنا الجليل بغزير المعرفة، ويكنون له فى قلوبهم وأفئدتهم ــ رغم تباين وجهات النظر والمخططات السياسية، المحبة، والاعتزاز، والإجلال.

عاش ومات فى سبيل مصر. كانت رسالته دومًا العود إلى مصر، تأكيدًا لمكانتها ومقامها، والعمل من أجلها، تحقيقًا لريادتها الحضارية. من حقه إذن علينا أن نعتبر.

ـ ٣٩ ـ

رسالة فتحى رضوان: مصر العروبة، الإسلام، الشرق

لم نكن على موعد ـ أو هكذا قال خبراء العصر الغابر ـ عندما كنا نتحسس طريقنا فى الظلام. ثم ردد أمثالهم نفس المعنى فى زمن التخبط ثم التردى وفقدان الاتجاه. وكان هو قد رحل إلى رحمة الله. وكان الله فى رحمته أراد أن يجمع بيننا فكرًا وعملاً بعد أن انقشعت الغيوم والتفسيرات المزيفة وانحراف الرؤى. كان فتحى رضوان ـ عميد الحركة الوطنية المصرية الذى أدركت مصر واجب الاحتفال بالذكرى العاشرة لرحيله هذه الأيام ـ ينتمى إلى جيل الثلاثينيات, ولعلة أكثر الأجيال غموضًا فى الشارع المصرى وكذا بين الطلائع, وهو الجيل الذى جاء على أنقاض ثورة ١٩١٩, جيل استقرار الحكم للاستعمار البريطانى وحلفائه حول القصر, قبل الثورة الشعبية فى ١٩٣٥, ١٩٣٦, التى أدت إلى عودة الوفد وعقد معاهدة ١٩٣٦ للتدرج نحو الاستقلال المحاصر.

كان الجيل ـ جيل عقد الثلاثينيات من القرن العشرين ـ مليئًا بالتناقضات والتشتت، حيث نجح أعداء مصر فى إبعاد الوفد ـ حزب الأغلبية ـ عن الحكم بعد ١٩٢٧. وكانوا قد نجحوا فى توجيه الضربة القاضية لثورة ١٩١٩, عندما أجبروا قيادة الوفد المصرى على التحول من الثورة بقيادة «التنظيم السرى» للحزب وعلى رأسه القائم قام (عقيد) عبد الرحمن فهمى سكرتير عام الوفد آنذاك, وفى قلبه منظمة الكادر «اليد السوداء» شريطة قبول المحتل البريطانى أن يتفاوض مع باشوات الوفد بعد عودتهم من المنفى. وفى الوقت نفسه ـ أى فى نهاية العشرينيات ـ تم إقناع الوفد بإقصاء الحزب الشيوعى المصرى بزعامة حسين عرابى من الحلف معه ضد الاستعمار. فكان أن تولت أحزاب الأقلية الحكم فى الأساس, اللهم إلا لفترات قلائل عاد فيها الوفد, بحيث إن حزب الأغلبية لم يحكم مصر إلا سبع سنوات بين ١٩٢٣ و١٩٥٢.

كان المشهد غريبًا من بعض النواحى. هذا مثلا طلعت حرب باشا يرفع شعار «نريد بنكا مصريا لكل المصريين» فيتم تأسيس بنك مصر (١٩٢٠ ـ ١٩٢٣)، ومن بعده شبكة الشركات الصناعية والزراعية والتجارية والتأمينية التى كانت تمثل هرم الاقتصاد الوطنى المصرى رغم الاحتلال. ثم يجىء المحتل البريطانى بإسماعيل صدقى باشا «رئيس اتحاد الصناعات المصرية» القوى، ألد أعداء الوفد، وإذ به يفرض الرقابة الجمركية على حدود مصر عام ١٩٣٠ ليحمى المؤسسة الصناعية المصرية التى يرأسها طلعت حرب الوفدى البارز، إسلامى التوجه.

ما معنى هذا كله؟ تخبط؟ أم تلاق دون مغزى؟

وكنا نسمع بعد مرور السنين أن أحمد حسين ذهب لمقابلة هتلر فى ألمانيا، وأنه أصبح «نازيا»: أفلم ينظم شباب «القمصان الخضراء» تمثلا بالتنظيم الشبابى الألمانى، بينما أمر الوفد بتكوين منظمة «القمصان الزرقاء» للرد على أحمد حسين، ولم يقل أحد على الوفد بقيادة مصطفى النحاس ـ أبرز زعماء الأحزاب المصرية منذ رحيل سعد زغلول ـ أنه «نازى».

تساءلت، تساءلنا: ما معنى هذا التناقض؟ قال الحكماء: الوفد جاء بالانتخاب بينما مصر الفتاة لم تدخل انتخابات، لأن المحتل البريطانى رفض أن يسمح لها بذلك، بطبيعة الأمر ازداد الغموض.

ثم ظهر تنظيم سياسى مواكب فى بداية الثلاثينيات باسم «الحزب الوطنى الجديد» تيمنا بالحزب الوطنى الأصلى الذى أنشأه محمود سامى البارودى قبيل الثورة العرابية عام ١٨٧٩ ـ ١٨٨١،ثم قاده مصطفى كامل ومحمد فريد. كان على رأس الحزب الجديد كوكبة من الوجوه الجديدة: عبد الرحمن الرافعى بك مؤرخ الحركة الوطنية المصرية وعميد المدرسة التاريخية فى هذا القرن، وفتحى رضوان المحامى والدكتور نور الدين طراف، وعبد الرحمن بدوى الشاب (آنذاك) أستاذنا الجليل فى الخمسينيات يرحمه الله.

وارتفعت الأصوات نفسها تقول إن هذا الحزب حزب نازى: أفلم يذهب بعض أقطابه للقاء هتلر أثناء الألعاب الأولمبية فى «نورمبرج» (١٩٣٦)؟ ثم ألم يعد فتحى رضوان وقد ظهر له شنب قيل إنه يشبه شنب هتلر؟ إذن هؤلاء لا شك فى ذلك من

المعسكر الآخر: «وطنيون نعم,لكنهم مع الآخرين».

تمر سنون قلائل, ويلتحق كاتب هذه السطور موظفًا بالمركز الرئيسى للبنك الأهلى المصرى فى خريف ١٩٤٠, نفس المبنى الذى يقيم فيه الآن البنك المركزى المصرى على تقاطع شارعى قصر النيل وشريف أمام عمارة الإيموبيليا. وكنت وجماعة من زملائى قد اتجهنا إلى الاشتراكية الثورية، وبدأنا تكوين الحلقات والجمعيات التى أصبحت فيما بعد الحركة التقدمية ثم الحزب الشيوعى المصرى من الأربعينيات إلى الستينيات. كان العدو بطبيعة الأمر هو الاستعمار البريطانى وحلفاؤه من أحزاب الأقلية حول السراى, أعداء الوفد حزب الأغلبية، وكان العدو أثناء الحرب العالمية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥).

العدو البعيد الذى حدده حلف إنجلترا وأمريكا ثم فى الأساس الاتحاد السوفييتى هو المحور الألمانى النازى والإيطالى الفاشى، فى اليابان ,الذى دخل فى حرب شاملة للسيطرة على أوروبا فى شمال شرق آسيا للقضاء على الدولة الاشتراكية الأولى فى التاريخ, الاتحاد السوفييتى.

كيف كان من الممكن أن يكون الموقف معقولاً, وواقعيًّا فى آن واحد؟ هل نؤيد التحالف مع إنجلترا, الدولة المحتلة لمصر ضد ألمانيا النازية؟ هل نتجه إلى الحياد؟ مع العلم بأن الامتناع عن الحركة فى أثناء التقلبات العالمية معناه التهميش والزوال من الصورة؟

إلى الأمام يا روميل! لماذا؟

وسرعان ما جاءنا الجواب, مذهلاً ساطعًا. فى يوم لا أنساه من خريف ١٩٤٢, وبينما كنت أعكف على عملى فى قسم الحسابات فى البنك الأهلى المصرى سمعنا تصاعد هتافات مظاهرة كبرى تأتى من النيل متجهة إلى قلب العاصمة عبر شارع قصر النيل. كان «الفيلق الإفريقى» الذى أرسله هتلر عبر شمال إفريقيا لضرب الاتحاد السوفييتى من الجنوب قد عبر الحدود الليبية ـ المصرية متجها إلى الإسكندرية والقاهرة, ثم قناة السويس. وإذ بالمظاهرة الكبرى تسير تحت راية تحمل شعار «إلى الأمام يا روميل» ثعلب الصحراء، ألمع ضباط الجيش الألمانى فى عصره. تساءلت, تساءلنا فى تحفظ وذهول: إيه الحكاية؟ أليس هذا هو الشعب, شعبنا المصرى؟ وألسنا نحن الثوريين طليعة الشعب المصرى؟ كيف يمكن أن يكون الشعب على عكس رأى الطليعة, أى أن

ينتصر للجيش الألمانى وكأنه محرر للبلاد، ونحن ندين بألمانيا النازية ونحن نسكت على الاحتلال البريطانى باسم إنقاذ الديمقراطية؟ كانت صدمة الشباب، صدمة الجيل الذى قال عنه فيما بعد جمال عبد الناصر إنه كان على موعد مع القدر. وكان فى طليعة المتظاهرين إخواننا من حزب «مصر الفتاة» و«الحزب الوطنى الجديد» ومن ورائهم شعب القاهرة.

ثم بدأت سنوات المواجهة مع قوات الاحتلال البريطانى والرجعية، وارتفع مستواها حتى حركات المقاومة المسلحة فى منطقة القنال عام ١٩٤٧، سنة بعد انتخاب «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة»، وفى المعركة، على أرض التحرك الوطنى التحريرى وجدنا مع أولادك الذين قالوا لنا إنه ليس معهم موعد. امتزجت صفوف شباب الوفد ومصر الفتاة، الحزب الوطنى الجديد والشيوعيين، والضباط وصف الضباط من القوات المسلحة ومن البوليس مع رجال الشعب والعمال والفلاحين. الهدف واحد: تحرير مصر. العدو واحد: الاحتلال ورجاله.

عندئذ فقط أدركنا أننا ـ نعم ـ كنا على موعد: موعد مع بعضنا بعضا، لكى نلبى موعدنا مع القدر. ومن هنا كان طبيعيا أن يصبح فتحى رضوان أول من تولى مسئولية وزارة الإرشاد القومى بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

لكن أرضية جيل الثلاثينات ظلت غامضة إلى حد بعيد، رغم التقارب الموضعى مع جيل الأربعينيات والخمسينيات حول حرب فلسطين الأولى ثم السويس، توطئة ليونيو ١٩٦٧، ثم حرب اليمن وحرب الاستنزاف حتى عبور أكتوبر١٩٧٣.

هل نذكر «مؤتمر الطلبة الشرقيين»؟

إلى أن جاءت أيام لم تكن فى الحسبان، عدت إلى أرض الوطن من المنفى الاضطرارى فى يناير ١٩٧٤، بدأ العمل من أوسع الأبواب فى قطاعات الفكر والسياسة والمجتمع، وكذا المجال الدولى الجديد تعميقا لإنجازات العبور العظيم، وحمايتها من الإجهاض السياسى بدءا من معاهدة «كامب ديفيد» وما تلاها من مسيرة مأساوية حتى بدء الثمانينيات.

وفى هذا الجو رأيت أن أؤكد الدعوة إلى الاتجاه إلى الشرق, أى إلى أن تصبح مصر ليس فقط قلبا للعروبة وإنما محركًا رئيسيًّا لصحوة شعوب الشرق جنبًا إلى جنب مع الصين بقيادة الرئيس ماو تسى تونج والجبهة الواسعة الأفروآسيوية النابعة من مؤتمر باندونج (١٩٥٥). وقد تمثلت هذه الدعوة المكثفة فى نشاطات ـ خاصة كتابات مكثفة ـ رأيت أن أجمع أهمها فى كتاب «ريح الشرق» الذى تفضل الصديق الكريم الأستاذ محمد فائق ـ وزير الإعلام الأسبق ـ أن يرحب به فى قائمة مطبوعات دار المستقبل العربى عام ١٩٨٣.

كنت فى غمرة السعادة, اتجهت إلى أعز الإخوة أو بشكل أدق إلى الرجل الذى أصبح أعز الإخوة وكأنه علم الحركة الوطنية التى تصدت للموجة الغربية الأمريكية الجديدة وبوادر التطبيع مع الصهيونية. ذهبت إلى أخى الكبير وجارى فى مصر الجديدة الأستاذ فتحى رضوان, الذى كان يستضيفنى الأسبوع تلو الأسبوع مهللا بحرارة وإشراق فى منزله الكائن بجوار دارنا بمصر الجديدة أسأله أن يتكرم بوضع المقدمة لكتاب ريح الشرق. وقد أدهشنى حقيقة إذ يوافق على التو وبحرارة, لكن بشرط ألا أقرأ مقدمته إلا بعد صدور الكتاب مطبوعا من دار النشر.

كان لا بد لى أن أوافق. صدر كتاب «ريح الشرق» وفى صدره مقدمة فتحى رضوان. وبها تفسير لماذا كنا حقيقة على موعد منذ مطلع شباب كل منا, عبر مسيرة الحركة الوطنية المصرية.

يقول فتحى رضوان، بالنص:

إن الدكتور أنور عبد الملك ـ بكتابه هذا ـ سيبث القلق فى النفس, لكنه قلق مقدس,لأنه قلق الذين يرفضون الإذعان للأمر الواقع والاستسلام للأوضاع المهينة, وقبول الحياة العامة على علاتها, وكأن التغيير غير مطلوب, أو غير ممكن, أو غير عاجل. وفى الحقيقة أنه مطلوب وممكن وعاجل.

وقد أحسن الأستاذ المؤلف إذ لخص كتابه بقوله فى مقدمته ما نصه «يعم هذا التحول العظيم, أو على وجه التدقيق,الانضباط القومى الأصيل فى المرحلة بالذات التى

يشهد فيها النظام العالمى تغيرا شاملا, لأول مرة منذ القرن الخامس عشر,أى منذ صعود الغرب إلى مكانة الهيمنة التاريخية.. لم تعد مفاتيح المبادرة التاريخية بين يدى الغرب المهيمن ـ منذ مرحلة التغيير ـ وهى على وجه التدقيق مرحلة ١٩٤٩, انتصار ثورة التحرير فى الصين إلى سنة ١٩٧٣ حرب أكتوبر, وتفجير سلاح النفط. لم تعد بين يدى الغرب المهيمن ولكنها انتقلت إلى حركة شعوب الشرق.

وفى هذه السطور قال المؤلف كل شىء, لكن لاستظهار معانى هذه السطور القليلة يجب أن يقال كلام كثير,وقد قاله المؤلف بما لا أحتاج معه إلى إضافة, لكن قد أحتاج إلى تعليق.

وقد أكون أنا، مع الاعتذار عن(أنا) هنا, لكنها لا ترد على سبيل المفاخرة, أو الاعتداد بالنفس, إنما هى تقرير واقع متواضع. فمنذ كنت طالبا بكلية الحقوق بدا لى أن شباب الشرق الممتد من اليابان إلى المغرب بينه شىء مشترك, وأن عليه واجبا مشتركا.

أما الشىء المشترك, فهو ما تكفل به كتاب الأستاذ الدكتور أنور عبد الملك, ذلك هو التراث الحضارى الممتد زمانا على مدى القرون والممتد مكانا من أقصى الشرق, من اليابان, حتى الدار البيضاء على بحر الظلمات, المحيط الأطلسى, وأن هذا الرباط المشترك, مع هذا الواجب المشترك, هو موضوع هذا الكتاب. وقد سميت هذه المحاولة الساذجة والمبكرة (مؤتمر الطلبة الشرقيين). وقد سافرت من أجلها إلى تركيا وجميع البلاد العربية. داعيا مبشرا, فى وجه صعوبات هائلة أقامها الاستعمار وأقامتها غرابة الفكرة. فقد قاطعها عدد من شباب البلاد العربية بحجة أنها تصدر عن نزعة فرعونية, قصدت صرف الأذهان والقلوب عن الدعوة العربية, رددت على خصوم هذه الفكرة بما يدعو إليه ويروج له هذا الكتاب الفذ، أى: بأن العرب هم فى قلب حركة عودة الشرق إلى مكانه فى القيادة, والتجديد, والبناء, والحوار بين الحضارات، ولكن العرب لا يسوغ أن يحرموا أنفسهم من روافد الحضارات العديدة, التى التقت عندهم, التى دخلت فى بناء حضارتهم العالمية, دما ولحما, روحا وجسدا حتى استطاعات أن تهيئ الطريق لحضارة القرنين التاسع عشر والعشرين بكل غزواتها فى الأرض والسماء, فى تفجير الذرة والصعود إلى القمر, وإلغاء المسافات, وإيجاد عالم جديد, غاية فى الضيق حتى كادت الكرة الأرضية تصبح قرية كبيرة, وحتى أصبح فى مقدور عدد من بنى البشر أن

يصعدوا إلى القمر, ويطلوا عليها من عل, فتبدو لهم كرة كبيرة أو صغيرة تدور فى الفضاء, وقد فقدت نصف جلالها القديم, ونصف هيبتها على الأقل ؛ لأن النصف الآخر دخل فى حساب الإنسان,الذى كان ينظر إلى الفضاء فى رهبة, فأصبح ينظر إليه فى اعتداد, لأنه بات يعلم ويشعر برغبة متأججة فى أن يزداد معرفة وهو يكرر قول القرآن الكريم ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

والطريف فى الأمر أن محاولة سنة ١٩٣٢ الشابة, الساذجة, اقترنت بأشياء كبرت على مر الأيام, فقد تبنى هذه الفكرة أستاذ قانون كان عائدا لتوه من فرنسا بعد أن حصل على إجازة الدكتوراه عن رسالة وضعها عن نظام الخلافة الإسلامية, وبشر ببعث شريعة الإسلام, بروح من يؤمن بتلاقى الحضارات وتمازجها, وبأن حرب الحضارات انتهت ؛ لأنها لم تفلح فى تحقيق شىء, فاستعباد أوروبا لشعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية ونهب ثرواتهم والتسلط على مقدارتهم, وإقناعهم بأنهم وجدوا ليستهلكوا الحضارات ولا يصنعوها, ويطيعوا السادة, ولا يمارسوا السيادة, ويؤمروا فيطيعوا، كل هذا باء بفشل عظيم.

كان هذا الأستاذ هو الدكتور عبد الرزاق السنهورى, وقد صاحبه اثنان ممن شاركوا فى حركة التنوير, والتأليف والترجمة, واستلهام ثقافة الشرق الأقصى هما أحمد أمين، وعبد الوهاب عزام الذى ترجم إلى العربية (الشاهنامة) ودواوين إقبال الهندى المسلم الذى كان أجداده براهمة.

أما جيل الشباب الذى آمن بدعوة مؤتمر الطلبة الشرقيين, فكان كل منهم علما من أعلام حركة البعث المصرية, التى امتدت أجنحتها شرقا وغربا, وقد كتب لعدد منها أن يستشهدوا، أى يمهروا حركة البعث والتجديد والتبشير لروح الشرق بدمائهم: استشهد كمال الدين صلاح رئيس المجلس الاستشارى على الصومال التابع للأمم المتحدة والسفير بوزارة الخارجية المصرية سنة ١٩٥٧ فى مقديشو. واستشهد الدكتور مصطفى الوكيل أستاذ الرياضيات العليا من جامعة لندن فى برلين سنة ١٩٤٥, عقب نهاية الحرب العالمية الثانية, وشنق الدكتور موسى الحسينى فى قضية اتهم فيها بالتحريض على قتل الملك عبد الله بن الحسين على عتبة المسجد الأقصى, واستشهد عبد القادر الحسينى فى معركة «القسطل» فى حرب سنة ١٩٤٨ وهو يدفع بجسمه الحى زحف

الصهيونية على القدس.

استشهاد كل منهم معلم من معالم الروح الجديدة, وتعدد مواقع استشهادهم بين أوروبا, وآسيا, وإفريقيا يؤكد ما يقوله الكتاب الذى أقدمه إليك, من أن منطقتنا هى حلقة اتصال القارات الثلاث بحضارتها جميعا, وتدفق مواردها كلها, فى مصب واحد, يصنع حضارة الإنسان الجديد الذى يقف على قمة زحفه, عالم العرب, الذين هم حلقة قومية فى محيط الإسلام السياسى, الذى يحدثنا عنه الدكتور أنور عبد الملك القبطى المصرى، وجملة القول إن كتاب (ريح الشرق) يحدثنا عن مستقبلنا, نحن سكان هذه المنطقة النقية, التى ولدت, ونمت, ورعت, ونشرت ثقافات الإنسانية الكبرى, وأديانها السماوية وغير السماوية, وعلمت الإنسان وهذبته وجعلته كما يقول القرآن الكريم خليفة الله الخالق, ثم جاء الغرب ابتداء من القرن الخامس عشر, قرن الاكتشافات الجغرافية الكبرى, وأخذ يبنى هيمنته وسيطرته لا على هذه المنطقة وحدها, بل عليها وعلى العالم بأسره. وأخذ هذا الشرق العظيم ينحدر شيئا فشيئا إلى الأفول والضعف حتى انتهى إلى العبودية, فوضعه الغرب فى قفص وقلم أظافره, ونزع مخالبه, ثم أخافه وأرعبه, حتى أفقده ثقته بنفسه وثقته بما حقق وأنجز, فبعد عن حضارته وثقافته, وطاب له أن يقلد ويحاكى وأن يكون رجعا لصدى, وشبحا فى مرآة, وذيلاً لسيد، وكانت الخسارة مضاعفة: خسر الشرق نفسه, وخسر العالم حضارات الشرق وروحانيته, وعلمه الهادى, ورسالاته التى تسمو بالإنسان من دنيا الحيوانية إلى سماء الإشراق والإبداع والتسامح, والرفق وأناقة العقل ولطف مشاعره, وعمق إدراكه.

لكن الغرب ــ حين انفرد بالسيادة ــ تحول إلى وحش ضار, اعتبر أن القوة هى السيادة, وأن الرعب هو غاية القوة, وأن الاستبداد والتفرد هو سبيل الأقوياء إلى نشر حضارتهم, وبسط عقائدهم, وتورط الغرب فى جنون العنف, وخرج من مذبحة إقليمية إلى مذبحة عالمية, ومن عنف بالسلاح الأبيض, إلى عنف البارود, إلى عنف الطائرة المليئة بالقنابل, إلى القنبلة الذرية والأيدروجينية والحرب الكيميائية والبيولوجية, ثم تفاقمت أزمات الغلاء والكساد والجوع وموت الآلاف فى آسيا وإفريقيا, وسدت السبل, وتضاعفت الأزمات, وبات كل مشكل بلا حل, وكل مصاب بلا نهاية, وكل فاجعة مقدمة لفاجعة أكبر منها.

ولما حاول الشرق أن يعود إلى دوره, حينما جاء إلى مصر على بك الكبير ثم محمد على, وسبقت مصر سنة ١٨٠٥ واليابان التى بدأت حياتها الجديدة نحو ١٨٦٨ فى عهد الإمبراطور ميجى, تألب الغرب على (محمد على) وعلى مصر, وقتلوا مصر الحديثة, أى قتلوا البرعم قبل أن يورق ويثمر, ولم يهدأ بالهم حتى احتلوا مصر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢,فتصدى لهم عرابى, وإلى جانبه ضابط صغير لولاه لما كانت ثورة عرابى, أى ثورة الشعب المصرى. فالخديوى ــ خادم الاستعمار وصنيعه ــ قبض على(عرابى وإخوانه) وزج بهم إلى السجن, ورفع عن أكتافهم شاراتهم العسكرية, وبلغ كل هذا إلى محمد عبيد وكان برتبة مقدم,وكان يعمل فى حرس الخديوى, فانطلق بجنوده من معسكر الحرس الملكى, والخديوى ـ بالمصادفة ـ مطل من شرفته فى قصر عابدين, فأمر من يلحق بمحمد عبيد الذى ينطلق كالسهم إلى ثكنات قصر النيل يقتحم زنزانة عرابى, فيحطم بابها ويفك السلاسل والأغلال عن بطل المستقبل وزعيم الأمة القادم, المعتمد, وتبدأ الثورة فى أول أدوارها. صحيح أن هذه الثورة فشلت, وأن الاحتلال جاء إلى مصر, وقد اتخذها ذريعة لغزوة مصر. لكن كانت الثورة ضرورة لتجرب مصر, مصر الشعب, مصر الثورة أذرعها, وتواجه القوة الزاحفة الدخيلة, ليبدأ عهد جديد, انتهى بالثورة العسكرية الثانية سنة ١٩٥٢ بقيادة ضابط برتبة مقدم تماما كمحمد عبيد. هذا الضابط هو بذاته الذى سافر إلى باندونج سنة ١٩٥٥, بعد قيام ثورة سنة ١٩٥٢, وفى باندونج اجتمع قادة الشرق : سوكارنو, وشوان لاى, وجمال عبد الناصر. وهبت ريح الشرق ، ريح العالم الذى استيقظ ونفض عن نفسه وثن الرقاد, واستقام عملاقا, أرادوا أن يسدوا أمامه كل طريق, ولكنهم فشلوا.

فريح الشرق تهب على دفعات, فى عمليات تحرير, وثورات, ونجاح وسقوط وصعود وهبوط, الآم موجعة وطعنات فى الظهر والبطن, ولكن المسيرة تتقدم وتشق الطريق.

والكلام هنا كله عنها, والإهداء إلى محمد عبيد ؛ لأنه بداية الثورة والنفير المبشر بها ؛ ولأنه بذل نفسه فى حرب التل الكبير, وسقط تحت سنابك الخيل, ولم يعرف له قبر, ولم يكتب عنه أكثر من سطر, لكنه باق, خالد كرمز للوطنية, واليقظة, وهبوب الريح. والعجيب أننى لم أكف عن الإشادة إليه, وبعث التحية لبطولته وتذكير الناس

باسمه حتى تلقيت مقدمة الأستاذ أنور عبد الملك, فرأيت اسم محمد عبيد يتألق فى أعلى السطور, مصباح نور ساطع, وعلامة طريق باهرة.

وهكذا نتلاقى من حيث لا ندرى.

هذا هو الكتاب وهذه هى الرسالة.»

هنا تنتهى مقدمة الراحل الكبير فتحى رضوان. هنا كان ــ وما زال ــ مفتاح الموعد الذى تساءلنا عنه, عبر الشباب, ثم حياة النضال. كان هو ـ كبيرنا ـ يميل إلى الشنب. كان بعضنا يميل إلى «السكسوكة» (تشبها بلينين صارم الوجه أيام ثورة أكتوبر ١٩١٧), لكنما الوجه واحد, وكذا الوجهة. إنها مصر..فى قلب نهضة شعوب الشرق.

محمد عبيد بطل معركة التل الكبير

عدت إلى مقدمة الكتاب, وبها إهدائى الذى ذكره رائدنا الكبير ونصه: «إلى روح أمير الآلاى محمد عبيد؟ من هو؟ ولم إهداء «ريح الشرق» إلى روحه الخالدة؟

أترك الكلمة فى هذا الصدد إلى أستاذنا مؤرخ الحركة الوطنية الراحل الكبير عبد الرحمن الرافعى بك, فى كتاب «الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى»:

هو الأمير آلاى محمد عبيد, وقد استحق لقب البطولة بدفاعه المجيد فى التل الكبير واستشهاده فى تلك الواقعة. كان بكباشيا من ضباط الآلاى الأول (آلاى الحرس الخديوى), قبل شبوب الثورة. وهو بطل واقعة قصر النيل التى تعد أولى وقائع الثورة.

ولقد عرف عرابى لمحمد عبيد هذه اليد عليه وعلى صاحبيه, فكان يثنى عليه الثناء المستطاب, ورقاه إلى قائم قام ضمن من رقى من الضباط فى عهد وزارة البارودى, ثم إلى رتبة أميرالاى, وظل محافظا على عهد الثورة, حتى كانت واقعة التل الكبير, ووقع فيها ما وقع من الذعر والفرار, وكان عرابى من الفارين,لكن الضابط الشجاع محمد بك عبيد أدى واجب الدفاع إلى النهاية, وقاتل الإنجليز قتالا مجيدا على رأس آلايين من الجنود,حتى قتل معظمهم, وقتل هو ضمن من قتل, فختم حياته بصفحة مشرفة جعلته بحق آية البطولة فى تاريخ الثورة العرابية.

(الطبعة الثانية: مكتبة النهضة المصرية,القاهرة,١٩٤٩, ص (٥١١ ـ ٥١٢).

لم يكن هو الأول فى طريق لا أول له ولا آخر, هو طريق مصر ورواده, أبناؤها دوما, رغم المهانة والإكراه والحصار. لكنه توسط أجيال نهضتنا المصرية, ابتداء من على الكبير وعمر مكرم ومحمد على ثم إبراهيم باشا, إلى قادة ثورة الجيش عام ١٨٨١, ثم مصطفى كامل ومحمد فريد, عبد الرحمن فهمى وسعد زغلول, ثم قائمة طويلة من الرواد والشهداء: محمد طلعت حرب, مكرم عبيد, أحمد عبد العزيز, جمال عبد الناصر, شهدى عطية الشافعى, عزيز فهمى, مصطفى عبد الرازق, أحمد حسين, عبد القادر عودة, ومن حولهم وجدان مصر ونغمه يحمل وجه السيد درويش وأم كلثوم, ومناهجه, مناهج الألباب المصرية, تحمل وجوه حروب مصر وثوراتها وتضحياتها وأستبسالها واستمراريتها.

لعبة الاستعمار والإمبريالية ورجالهم.. لم تتغير ألا وهى: تفرقة صفوف أمتنا المصرية، ودق أسافين بين الأجيال المتعاقبة، وتأليب بعضهم على بعض, الأربعينيات والستينيات, الخمسينيات والثمانينيات, وكذا المسلمون والأقباط, أسرة محمد على، الجنود والضباط الأحرار, الوفد واتحاد الصناعات المصرية, «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» والإخوان المسلمون,أى الماضى ضد الحاضر, والتراث ضد المعاصرة, من أجل إجهاض المستقبل وتشتيت قوى الأمة.

ومن هنا كان لزاما علينا أى لزاما على مصر, لزاما على جميع قواها السياسية ومدارسها الفكرية ـ دون أدنى استثناء ـ أن تقوم بتعبئة جميع طاقتنا وإرثنا الحضارى الفريد بين الأمم. ومن هنا كانت دعوتنا المتكررة لصياغة الجبهة الوطنية المتحدة حول رئيس مصر ودولتنا الوطنية فى إطار العروة الوثقى بين شعب مصر وجيش الوطن.

وعلى هذا الطريق الشاق, المضىء, يقف الأعلام: من على بك الكبير,ومحمد على, وإبراهيم باشا, ورفاعة رافع الطهطاوى, ومحمد عبده, وعبد الله النديم إلى اليوم.

وعلى هذا الطريق الشاق المضىء, وقف فتحى رضوان عميدا لحركتنا الوطنية المصرية, فى قلب دوائرها العربية والإسلامية والشرقية, رائدا وقائدا ومعلما, كم نحتاج

إلى مطالعة أعماله الكاملة وسيرته التفصيلية الدقيقة لتضيء طريق الغد لشباب مصر الذى دخل الآن فى موعد مع القدر, مرة أخرى,لصياغة العالم الجديد.

قال صاحبى : «مرة أخرى رحنا نحلم.. الموضوع, إذن لم ينته ، نعم, أصابنا فقر الدم. لكن القلب نابض, والدم متدفق, والعقل يقرع أبواب الممكن.. يتحسس طريق الغد.. وبعد هذه المسيرة, يتحدث بعض المحدثين عن «المتوسطة» بعد فشل الشرق أوسطية.. بالله عليك : لماذا لا نقترح ــ معا ــ على من بيدهم الأمر أن يكون مسلسل محمد عبيد بطل التل الكبير المغيب, عبد الرحمن فهمى والتنظيم السرى, ثم فتحى رضوان وصحوة الشرق, خير تواصل مع ما بدأناه منذ عدة أعوام من «ليالى الحلمية» إلى حد هوية الناس؟ أليس كذلك؟.» .

ـ ٤٠ ـ

عبد الرحمن بدوى: كيف تكون الفلسفة

كيف يكون المدخل إلى رجل لا يقبل التصنيف المسبق؟ ماذا لو كان مناضلا وطنيا، ومفكرا تنقيبيًّا، وكذا شاعرا هائما معنيًا بالتراث، موسوعى المعرفة، عقليا علميا عصريا يجمع بين الشرق والغرب، وإنما أركان شخصيته وفكره تغوص فى أعماق الوجدان والحضارة التى ولد وعاش فى قلبها.

ما السبيل؟ أو بالأحرى كيف تكون المداخل إلى ظاهرة تنكر لها جيل بعد جيل من الأميين، وعجز من أدركها على إضاءة معالمها؟

على هذا النحو، تراكمت التساؤلات بين إشراق الذكريات وجراح المسيرة، عندما شاءت الظروف أن يعود اسم أستاذنا الجليل الدكتور عبد الرحمن بدوى رويدًا رويدًا إلى قلب الاهتمام الثقافى والوطنى والقومى فى مصر والعالم العربى والعالم الإسلامى ـ جيل الأربعينيات ـ باسم عبد الرحمن بدوى أثناء الحرب (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) تارة من خلال التلاقى أو الاصطدام لتحرك «مصر الفتاه» و«الحزب الوطنى» وتارة من خلال كلام جاءنا من أروقة جامعة لقاهرة (جامعة فؤاد الأول آنذاك) تشير إلى عدد من نخبة فكرية وعلمية متميزة، من العميد إلى على مصطفى مشرفه وبولس غالينوجى ومراد كامل وعلى إبراهيم وحسين فوزى وسامى جبره وأحمد فخرى، كوكبة لامعة سطعت فى سماء مصر آنذاك، ثم أسماء شابة من بينها من سمعنا أنه شاب يعنى بالفلسفة عبر دروب غير مألوفة، قيل إنها «وجودية» وأحيانًا «صوفية» تنوعت مداخل التلاقى، حتى جاء «الزمان الوجودى» (١٩٤٥) رسالة الدكتوراه التى تأكد فيها لكل قارئ جاد أن صاحبها يمثل بالفعل بعدًا جديدًا فى الطموح «الفلسفى» والجراءة الفكرية، والقاهرة تئن تحت الأحكام العرفية وإطفاء الأنوار مساءً، فى حرب لم نكن فيها طرفًا وإنما اتخذت من بلادنا قاعدة لقوات الغربيين فى الشرق الأوسط.

لم يكن أمامنا أن نسعى إلى لقاءات، فالكل منهمك فى تأسيس التنظيمات الوطنية والتقدمية الثورية على أرض مصر، إيماناً منا بأن الحرب سوف تؤدى إلى انكسار النظام القائم آنذاك، وأن الثغرة سوف تمكننا من تحرير الأرض والتحرك صوب النهضة.

هكذا، تأخرت مرحلة الدرسة الجامعية عشر سنوات، فكان أن اخترت الالتحاق بكلية الآداب جامعة إبراهيم باشا الكبير (جامعة عين شمس فيما بعد) بفضل تدخل أستاذنا العميد الدكتور طه حسين وزير التعليم آنذاك فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ يوم تأسيسها مختارًا قسم الفلسفة إعجابًا باسم عبد الرحمن بدوى، وتشوقًا إلى التتلمذ على يديه، وقد استحسن الأستاذ العميد طه حسين هذا الأستاذ آنذاك ورأى فيه تشابك الأجيال بشكل ربما لا يتفق مع أبعاده المستقبلية.

هنا، بدأت علاقة فكرية ووجدانية وإنسانية، كانت ولا تزال محورًا تكوينيًّا رئيسيًّا لما تعلمناه، وما استطعنا أن نسهم به فى مجال الفكر الفلسفى ابتداء من تساؤل طلائع كوادر الحركة الوطنية التقدمية المصرية فى الموجة الفكرية السلفية المضادة «بلاش فلسفة».

وما دام المجال هو إضاءة نواحٍ من سيرة ورسالة أستاذنا الجليل، لا تدوين صفحات من حوليات الجيل المغيب، فلعل الأوفق أن يكون التركيز على محاور محددة، يمثل كل منها ناحية من الرسالة التى أداها أستاذنا الجليل عبد الرحمن بدوى. أستاذاً معلماً رائداً لكل من تتلمذ على يديه، وأحاط بها عبر مسيرة مصر الطويلة المشرقة رغم المآسى.

الدرس الأول الذى تعلمناه من عبد الرحمن بدوى إنما هو **خصوصية الأستاذية** لمن يتصدى إلى هذا المقام.

فقد رأس قسم الفلسفة بجامعتنا الفتية منذ إنشائها بدرجة الأستاذ المساعد رغم ما كان له من العديد من المؤلفات آنذاك احترامًا منه للوائح التدرج الوظيفى فى سلم الأستاذية بالجامعة، وقد استحضر من أوروبا وجامعات مصر لفيف من كبار الأساتذة يكبرونه سنًّا ومقامًا ــ «ديبس» و«أرنلديز» ويوسف مراد ومصطفى زيور وحلمى مراد وغيرهم، وهمه الأول أن يمنح طلابه أرقى مسوى من المعارف الفلسفية والعلمية، وكأنه رئيس أركان حرب لجيل يعده للوطن بعيدًا عن الشكليات.

كان أسلوب التدريس هو ذلك الذى قرأنا عنه :

فمن ناحية ؛ الإملاء دون مذكرات ، ومن ناحية أخرى ، فتح النقاش من أوسع الأبواب فى كل محاضرة ولمدة عشرين دقيقة ، ثم وكأننا نجمع بين أسلوب الأروقة والمشائين ، جلسات يوميه تمتد نصف ساعة أو ساعة كاملة فى مكتبه بعد المحاضرة ، مع من سيأتيه من طلابه ، من نقاش والسؤال والاشتباك الفكرى أحيانًا. وقد أفدت من ترحابه اليومى عبر سنوات الدراسة أسأل ، وأجادل ، وأنتفض ، وأنبهر ، وهو دائم المنح ، واسع الصدر. وأذكر أنه التفت إلينا فى العديد من المناسبات بسؤال كله تحدٍّ : « وأين رأى الماركسيين ترى؟ » . وقد حدث أنه فى إحدى المحاضرات ، وأمام صمت الماركسيين ـ كانوا اثنين : الصديق المرحوم فيليب جلاب وكاتب هذه السطور ـ قرر رفع الجلسة وإنهاء المحاضرة احتجاجًا على امتناعنا عن مجادلته ، وعندما صعدت إلى مكتبه فى الطابق الأول لامنى لومًا مرًّا ، وذكر بموقفنا على أن يمثل السلبية الفكرية ، ورفض ممارسة حق الطالب فى تحصيل العلم وانتزاع المعرفة بمناقشته بل والتصدى له.

ولا داعى بطبيعة الأمر للتأكيد على أن هذا الموقف كان يقتضى منا قدرًا عاليًا من متابعة طبقات الفكر الفلسفى المتدفق ، دعنا من القدرة على مجادلة أستاذنا الموسوعى ، ولككنا حاولنا أربع سنوات ، بفضل ترحابه وإصراره ، فكانت سنوات لا مثيل لها فيما رأيته من أقسام الفلسفة فى معظم جامعات الغرب ، بل والعالم ، فى مستوى الليسانس أو البكالوريوس.

كان أستاذنا ــ ولا يزال ــ يعادى الماركسية والشيوعية عداءًا جذريًّا ، إيمانيًّا وعلمانيًّا ، وإن كان ومنذ اليوم الأول يحترم فى التوجه الاشتراكى للفكر المصرى الأصالة والجدية والقدرة على التضحية ، بينما اختفى الانتهازيون والمرتزقون أدعياء الثورة ومنهم من أثرى على حسابها باحتقار الواجب.

لم تكن المحاضرة مجرد إلقاء لتحليل الموضوع ، وإنما كانت ترتكز على جزء وافر من المراجع بكافة اللغات ، يجبرنا على نقلها ، كما أجبرنا على تعلم اللاتينية واليونانية ؛ لكيلا نتصور أنه صاحب الأفكار التى يطرحها ، وأنه ليس صاحب الرأى الوحيد الصائب ، إذن لا بد لمن يريد أن يتعلم أن يمسك أولاً بمفاتيح مصادر المعرفة على تنوعها واختلاف مساراتها.

أخذ عليه البعض القسوة ورفض المجاملة، فقد بلغ عددنا فى السنة الأولى فى قسم الفلسفة ستة وخمسون طالبًا، وأصبحنا أحد عشر طالبًا فى السنة الرابعة، وإذا به يصرخ فى المحاضرة الأولى فى شهر سبتمبر ١٩٥٣ أنه لن ينجح منا أحد، لأن مادة «المنطق الصورى» سوف تشمل «المنطق الرياضى»، وأن أحدًا منا لن يتمكن من فك طلاسمه، وقد اهتديت إلى أن ذلك التهديد جاد، فقررت أن أنكب على دراسة المنطق الصورى وإهمال المنطق الرياضى كلية، بينما رأى زملائى وزميلاتى أن يجمعوا بين الاثنين. وفى يوم الامتحان استطعت أن أفلت من المذبحة بالإجابة على السؤال الأول والثانى، فكان أن حصلت على درجة الليسانس فى يونيو ١٩٥٤ بدرجة جيد جدًّا، وكنت الوحيد فى هذه الدفعة الأولى، ما أحزن قلبى، فقد كان معنا لفيف مرموق من خير الزملاء أطاحت بهم معادلات المنطق الرياضى. وإن كانت القسوة والتشدد من منطلق علمى بلا شك، كم كان بودى أن يحن قلب أستاذى الجليل لزملائى وزميلاتى فى تلك الدفعة الأولى، التى مرت بخير والحمد لله فى ملحق سبتمبر ١٩٥٤.

وقد درسنا على يديه عدة مواد: «المدخل إلى الفلسفة العامة» و«علم المعرفة» و«مناهج البحث» و«تاريخ الفلسفة الإسلامية» و«تاريخ الفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة» و«فلسفة الأخلاق» و«التاريخ والسياسة». وقد عرض علينا منذ السنة الثانية بحثًا سنويًّا يتراوح بين عشرين وأربعين صفحة فى موضوع يختاره كل منا، وذلك ليدربنا منذ البداية على الكتابة الفلسفية، ويعد لمرحلة الماجستير والدكتوراه فيما بعد. وقد كان من شأنه فى إحدى السنوات أن انكب شهورًا طويلة على دراسة محاورة «فيليبوس» لأفلاطون وجوهرها، ومسألة الثنائية وتناقض الأضداد، ولعله أراد أن يمتحن قدرتى على التعمق فى فهم الجدلية التى كنت أعتنقها مذهبيًا آنذاك وما زلت.

وقد لفت أنظارنا أنه كان يقيم البحوث السنوية بصدر رحب، على عكس الامتحان النهائى، وكأنه يريد أن يعترف بأن الجهد المتصل يستحق التشجيع والمساندة ــ درس من الدروس العديدة لمعنى الأستاذية فى أرقى مستوياتها.

كنا نسأله على نوبات متتالية: لم «الوجودية»؟ ما علاقتها بالفينو مينولوجيا؟ وما قصة الوضعية المنطقية التى كان يرفضها ونحن معه، من زوايا أخرى؟ أردنا أن نعرف لماذا كرس شهورًا عديدة لتقديم «**رابعة العدوية**»: فهل الهيام طريق إلى التفلسف، أو

التصوف؟ أدركنا أنه يعشق الحب وله فيه صفحات هيامية فى مؤلفاته «**رابعة العدوية**» و«**شطحات الصوفية**» وكتاب سيرته الذاتية العاطفية «**الحور والنور**»، كان البعض يعيب عليه أحيانًا اللاتاريخية، والحق أنه ليس كذلك. بل كان أقرب منا تأكيداً لتأصيل الوجود فى التاريخ، كما جاء مثلاً من التلخيص الساطع الذى قدمه لفكره فى «**موسوعة الفلسفة**» (الجزء الأول، بيروت ١٩٨٤):

«وجود أو لا وجود، تلك هى المسألة هنا أيضًا فإن كان وجودًا، فلا بد من الزمان، وأما من دون الزمان، فليس ثمة وجود، ولا واسطة بينهما. أما عن الأولية بين آنات الزمان، فالرأى بإزائها قد انقسم ـ كما هو طبيعى ـ إلى ثلاثة مذاهب: مذهب يقول بفكرة الحاضر السرمدى؛ ولذا يجعل الأوليّة والأولوية ـ معًا ـ لحاضر، ومذهب يجعلها للماضى، وإليه ينسب المؤرخون وأصحاب النزعة التاريخية بوجه عام، ومذهب يجعلها للمستقبل ويمثله أصحاب النزعة الدينية، خصوصًا كيركجور وهيدجر. أما نحن فلا نذهب إلى القول بتفضيل آنٍ على آنٍ، بكل نؤكد وحدة الآنات الثلاثة وحدة تامة فى تكويناتها الزمانية الأصلية الحقيقية. أما الزمانية الزائفة فهى تلك التى تتعلق بأحدى هذه الآنات دون الأخرى. ذلك أن فكرة التوتر فى الوجود تقضى علينا بهذا.

ومن هذا البيان لطبيعة الزمان قد انتهينا إلى الكشف عن حقيقتين رئيسيتين: **الأولى**: أن لا وجود إلا من الزمان وبالزمان، وأن كل موجود لا بد متزمن بالزمان، وتلك هى ما نسميه تاريخية الوجود. **والثانية**: أن كل آن من آنات الزمان مكيف بطابع إرادى عاطفى خاص، فالزمانية إذن كيفية. وهاتان الحقيقتان معًا هما ما نعبر عنه بقولنا إن الوجود ذو كيفية تاريخية».

أعترف ـ بكل تواضع وصراحة ـ أننا لم نكن ندرك عمق الجذور التاريخية لفكر عبد الرحمن بدوى ـ آنذاك ـ فقد دفعت بنا الأيديولوچية إلى الابتعاد عنه ما دام أنه يستعمل عبارة «الوجودية»: بينما «الزمان الوجودى» من نسيج آخر، يقرب إلى مسار كبير فلاسقة هذا الجيل «مارتن هيدجر» الذى طالما كان يحدثنا عنه، ونحن نتأفف أمام رسائل «مدخل إلى الميتافيزيقا!» ثم هناك الرسالتان اللتان كان يطيب له أن يفتح بهما محاضراته، كأنه يستفزنا إلى التصدى لأهوال العمر: «اعلموا أن أصعب ما فى الحياة إنما هو الاستمرار فى الحياة».

مقولة الزمان كانت تبدو لنا معقولة وإن كانت غير مقبولة لشباب يتصور أنه محق فى كل شىء.

أما **المقولة الثانية** : فقد كانت ترمز إلى أبعد من مجرد الحياة الجسدية ، إذ تشير إلى المشاق النفسية والأخلاقية والذهنية والروحية كلما اقترب الإنسان من مرحلة النضج ، ثم العمر المتقدم فالشيخوخة إلى نهاية الطريق.

من أين ـ ترى ـ هذه الصعوبة الشاقة؟ أفليست الحياة نهرًا أزليًّا أبديًّا ، ينتهى ، نم ، ولكنه يتدفق دون أبطاء فى كافة المراحل؟

وقد علمتنا الحياة حكمة هاتين الرسالتين : أسئلة ، تساؤلات ، إشكالية الفكر التنقيبى فى عصر الحرب الأوروبية الثانية ، وقد امتدت فجأة إلى المحيط الهادى وإلى الصين واليابان. كنا على يقين ، وكان هو على طريق وكنا ـ معًا ـ نبحث عن « مناهج الألباب المصرية » علنا نحقق الحلم الكبير : تحرير مصر ، استقلال إرادتها ، نهضتنا المصرية والحضارية.

لعله من المفيد لمن يتصدى إلى الأستاذية فى عصرنا مثلاً أن يتعلم من أستاذنا الجليل عبد الرحمن بدوى هذا التواضع الفكرى ، والحرص على إتاحة المجال للحوار الجدلى ، ومسارات الإجابات الممكنة فى عين الوقت الذى تتدفق فيه المعرفة الفلسفية سيلاً جارفًا ابتداءً من التحصيل الدؤوب الدقيق المتصل عبر السنوات والعهود . فلا مجال للأستاذية إلا إذا قبل الأستاذ ـ بادئ ذى بدىء ـ أن يتواضع ويدرك حدوده ويتعلم يوماً بعد يوم بالاحتكاك بواقع عالمنا المتغير ، وكذا أفكار طلابه المتأججة أو الشاردة لا مجال للأستاذية دون التساؤل الفلسفى.

ثم كان **الدرس الثانى** ، يصب هذه المرة فى جوهر قالب **الوطن والحركة الوطنية** من أوسع الأبواب.

كانت الأولوية ـ ولا تزال ـ فى معرفة الفكر والمجتمع المصرى والعربى والإفريقى والإسلامى والشرقى هى تعاليم وكتابات علماء الغرب ومفكرية ، وكأن الذات المصرية والعربية والإفريقية والإسلامية والشرقية لا تصلح ولا تتيح المجال لبروز فكر إبداعى ذاتى ، وكأننا على موعد مع التبعية بالأصالة أو بالمولد ـ وهو الموقف الفكرى المنهجى

الذى تشكل بشكل جذرى فى دراستنا عن «**الاستشراق فى أزمة**» (مجلة ديوچين. اليونيسكو ١٩٦٢)، فكانت دعوة لتفكيك الاستشراق، وكان لها فيما بعد ـ وحتى اليوم ـ أثر واسع فى تحديد مسار العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ الستينيات.

نعود إلى الدرس الثانى، فلنذكر أولاً منهج أستاذنا عبد الرحمن بدوى فى تعليمنا الفلسفة الإسلامية. فقد استند إلى رسالة أستاذة، أستاذنا الكبير الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه الوجيز عميق الدلالة «**تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية**» (القاهرة ١٩٤٥): «وهو الكتاب الذى يشتمل على بيان لمنازع الغربيين والإسلاميين ومناهجهم فى دراسة الفلسفة الإسلامية وتاريخها. والباحثون من الغربيين كأنما يقصدون إلى استخلاص عناصر أجنبية فى هذه الفلسفة، ليردوها إلى مصدر غير عربى ولا إسلامى»، ومن هنا جاء المنهج الجديد الذى «يتوخى الرجوع إلى النظر العقلى فى سذاجته الأولى، ويتتبع مدارجه فى ثنايا العصور وأسرار تطوره»، أى أن المصدر لمعرفة الفكر والفلسفة إنما هو بالتنقيب عن جذورها التاريخية الذاتية، لا بمقارنتها بمسارات الفكر الفلسفى فى البيئات الثقافية والحضارية الأخرى باعتبارها المرجع والقاعدة والأصل.

لم أكن أدرك آنذاك أثر هذا المنهج على ما تم فى فيما بعد عندما لبيت دعوته الأولى للعشاء فى «كازينو بديعة» على النيل فى يوليو ١٩٥٤، بعد تخرج أولى دفعات قسم الفلسفة بجامعة عين شمس لعرض موضوع دراسة الماچستير. كنت ـ آنذاك ـ أتجه إلى فلسفة التاريخ عند هيجل. فإذا به يرفض ويشجبنى بعنف متسائلاً عما فى وسعى أن أضيفه إلى سيل المؤلفات حول هيجل وفلسفة التاريخ لديه، وخاصة وأننى كنت آنذاك لا أعرف اللغة الألمانية. وأضاف أنه يتشكك فى جدوى مثل هذه الدراسة بالنسبة لشباب المفكرين المصريين، مؤكداً بإصرار بالغ التشدد أن الواجب يقضى أن ينكب الجيل الجديد من مفكرى مصر على دراسة الفكر المصرى فى إطاره الحضارى المتخصص، وإلا فمن الذى يقوم بهذه المهمة؟ وكان من جراء هذه السهرة والصدام بين رؤيتين أننى بدأت أراجع نفسى، فرأيت أولاً أن أنكب على دراسة الفكر المصرى المعاصر، واتفقنا على تأجيل الموضوع على وجه التحديد؛ ثم جاءت مرحلة «الصراع فى الظلام» التى أثارها أصحاب فكرة التناقض بين «أهل الثقة وأهل الكفاءة»، فكان

أن قررت قيادة الثورة بعد أزمة ربيع ١٩٥٤ ، واشتدادها فى مرحلة الصراع مع رفض الولايات المتحدة لتمويل السد العالى ، وقرار الرئيس جمال عبد الناصر للذهاب إلى باندونج ، أن بدأت حركة قمع اليسار المصرى دون مقدمات ، أو أسس قانونية بشكل متصل وسرى بين عام ١٩٥٤ ــ ١٩٦٤ ، تخللتها الجبهة الوطنية المتحدة من يوليو ١٩٥٦ حتى ديسمبر ١٩٥٨ ، ثم من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٧ . وكان من سوء حظ كاتب هذه السطور أن يزج به إلى معتقل «أبو زعبل» للحاق بطليعة الفكر والعمل التقدمى فى ١٠ أبريل ١٩٥٥ لمدة ١٤ شهرًا.

نترك القصة والذكريات ونعود إلى الفلسفة. كان التساؤل الفلسفى فى أبى زعبل : «ما الذى جاء بنا إلى هذا الوضع المفزع ، ثم «من أين هذا الصراع بين قوى مختلفة ، نعم ، ولكنها تصبو إلى نفس الهدف التحريرى الوطنى التنموى النهضوى؟» ، وهى ـ أى هذه القوى المتباينة ــ تكاد تكون متجانسة من حيث الانتماء إلى شرائح الطبقة المتوسطة والفكرية. «ما معنى هذا الصراع فى الظلام؟ فإذا كان واقع الأمر كما ذكرنا ، أصبح التحليل الطبقى قاصرًا ، وإن قلنا بأولوية البعد السياسى ، لكان من الممكن استبعاد المعارضة دون شراسة الاعتقال والاضطهاد وأهوال ما تم. كان لابد إذن من البحث عن توجه آخر ، عن مستوى أعمق فى عمق أعماق أمتنا المصرية لعله يفسر ـ وإن كان لا يبرر ـ الذى حدث ، وكانت نتيجته إضعاف الجبهة الوطنية المصرية حتى انكسار ٥ يونيو ١٩٦٧.

من هذا الوضع الملتهب ، وتلك التساؤلات الجذرية ، عدت إلى تعاليم أستاذنا عبد الرحمن بدوى : أفلا يكون التوجه واجبًا نحو التنقيب عن الجذور الفكرية فى مختلف قطاعات المجتمع المصرى وحركتنا الوطنية؟ أفلا يكون من اللازم علينا أن ندرس الصياغة التاريخية بمختلف مدارس الفكر والعمل فى مرحلة نهضة مصر منذ انتخاب محمد على والى مصر (١٨٠٥)؟ وكان هناك عند النخبة إدراك بأن ثمة تباين بين المناخ الفكرى للقوى السياسية المختلفة. ولكن الشعور باختلاف المناخ شىء ، والتنقيب العلمى عن أسباب ونوعية ذلك التنوع شىء آخر. من هنا كان قرارنا ــ عملاً بتوجيه أستاذنا إلى دراسة الفكر المصرى ـ بتكريس جهدى سنوات البحث العلمى بعد المعتقل لدراسة صياغة الفكر المصرى المعاصر ، فكانت رسالة الدكتوراه الأولى فى علم

الاجتماع «**الفكر السياسى العربى المعاصر: (١) مصر**» (باريس ـ السوربون ١٩٦٤) ثم رسالة دكتوراه الدولة فى الآداب عن «تكون الأيديولوچية فى نهضة مصر القومية (١٨٠٥ ـ ١٨٩٢)» (الجامعة نفسها ١٩٦٩) ـ وهو المُؤلَّف الذى أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب فى القاهرة فى طبعة مُطوَّرة بعنوان: نهضة مصر ـ (القاهرة ١٩٨٣).

هكذا أمكن التوصل إلى جذور المدرستين الرئيسيتين للفكر والعمل: مدرسة التحديث الليبرالى ابتداءً من رفاعة الطهطاوى، ثم وبعد بداية توغل الإمپريالية، بدراسة الأصولية الإسلامية حول محمد عبده: وقد دلت الدراسة على أن ظروف مصر الچيو ـ سياسية وتوالى الهجمات الإمپريالية لتفتيتها من الداخل ومحاصرتها من الخارج لم تُمكِّن طلائع مصر الفكرية والسياسية أن تصوغ دائرة صهر هذين التوجهين بشكل كاف من التماسك والتجانس إلى مستوى التركيب، فظل التأليف التركيبى الغالب بدلاً من الوحدة المركبة المتجانسة، وهو الأمر الذى امتد إلى حياتنا فى نهاية القرن العشرين فازداد بشكل ملحوظ تأثير الإعلام الكونى المضلل وتسرب ثقافة الرأسمالية الريفية والسمسارية غير المنتجة والصهيونية العدمية إلى قطاعات وأركان حياتنا الاجتماعية.

موضوع كبير يستدعى مضاعفة الجهد العلمى والفكرى والفلسفى لرأب الصدع وصهر مشروعنا القومى والحضارى الجديد فى مرحلة صياغة العالم الجديد الذى نحياه.

لعلنا أطلنا بعض الشىء فى الجمع بين هذا الدرس الثانى وإحدى ثماره الميدانية. ولكننا لا بد من أن ندلل على مغزى الدرس بآثاره وثماره، وهنا مرة أخرى يرجع الفضل إلى أستاذى فيما حاولنا أن نحققه فى هذا المجال المتعين من المنهاج الفكرى الفلسفى.

يتساءل البعض ـ وأحيانًا ـ بنوع من السخرية: كيف أن المفكر الموسوعى العصرى عبد الرحمن بدوى بدأ يتوجه منذ سنوات إلى دراسة الفلسفة الإسلامية والإسلام حضارة ورسالة فى كتاباته الأخيرة؟ نفس التساؤل الذى قام بالنسبة لأستاذنا الكبير زكى نجيب محمود فى المرحلة الأخيرة الغنية من مؤلفاته.

وهنا ـ مرة أخرى ـ موقف اغتراب العديد حين يتصدون للفكر والثقافة والفلسفة فى مصر وأمتنا العربية بالنسبة لجذورنا الحضارية، وكأن دراسة الإسلام والعروبة، بل

وعند قطاع بدوى يتصاعد، حضارتنا التاريخية العظمى، فى مصر الفرعونية وكذا حضارات ما بين النهرين والشام، أمرًا «غريبًا» على المصريين والعرب. وكأن إعادة فتح أبواب البيت، أبواب بيت أسلافنا وآبائنا وإخوتنا وأبنائنا ـ أمرًا «غريبًا» ما دام أن الغير هو «الأساس»، عودًا إلى مقولة عصر الاستعمار: «إن بلاد مصر خيرها لغيرها».

يقول أستاذنا الجليل ومن حوله كوكبة مفكرينا وفلاسفتنا: بل إن بلاد مصر خيرها لأبنائها، وأمة العرب خيرها لأبنائها، وحضارتنا الإسلامية والشرقية ملك لبناتها وأبنائها أجمعين على تنوع قومياتهم ودياناتهم ومذاهبهم الاجتماعية.

ثم يأتى الدرس ـ التمسك بالريادة الأخلاقية ـ الثالث ولعله تجميع ما سبق وإن كان يبدو متخصصًا فى الزمان والمكان والوقائع والأفراد تحدثنا عن «الحرب فى الظلام» وعن مأساة معتقل «أبو زعبل» ومن بعده الواحات. وقد شاءت الظروف أن قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة عين شمس قد أعلن فى «الأهرام» فى صيف ١٩٥٥ عن حاجته إلى معيدين بالقسم. وقد شاءت الظروف أن يكون أول دفعة خريجى كلية الآداب جامعة القاهرة إسماعيل المهداوى وكاتب هذه السطور يشاركه الشرف بالنسبة لأول دفعات كلية الآداب جامعة عين شمس، أن يكونا من نزلاء «أبو زعبل» وكان أن وصلت نسخة «الأهرام» إلى المعتقل بالطرق المتعارف عليها فى مثل هذه الظروف. فرأينا أن نتقدم بطلب رسمى وعليه ورقة الدمغة إلى الكلية، وكنا آنذاك فى أهوال لا نود العودة إلى ذكرها أو تذكرها. وقد نهانا مأمور قسم التأديب بالمعتقل عن هذا العمل، وقال: «إن هذين الطلبين لو تم تحريرهما سوف يصلان إلى الكلية وعليهما أختام مأمور قسم التأديب بليمان «أبو زعبل»، ثم مدير الليمان، ثم مدير المكتب المختص بالبوليس السياسى، ثم وكيل وزارة الداخلية والأمن العام، وربما من يعلوه مرتبة، فكيف إذن يكون تصرف الكلية؟». ولكننا تمسكنا بحقنا الدستورى: أفلم نكن أول دفعة الفلسفة بآداب القاهرة وآداب عين شمس؛ وبالفعل حررنا الطلبين، ووصلت الأوراق مملوءة بالأختام إلى رئيس قسم الفلسفة، الدكتور عبد الرحمن بدوى...

ثم كان ما كان، وما كان يجب أن يكون، احترامًا لتقاليد الجامعة والمعايير العلمية المعمول بها، وقد أصر رئيس القسم على أن يوافق مجلس قسم الفلسفة على تعيننا

معيدين به. ثم انتقل الموضوع إلى مجلس كلية الآداب الذى لم يسعه إلا الموافقة على التعيين بناءً على طلب رئيس القسم المختص. ثم انتقل الموضوع إلى مجلس الجامعة، وهنا جاء وزير التربية والتعليم ـ كمال الدين حسين آنذاك ـ بوصفه الرئيس الأعلى للجامعات، وأصر على وقف قرار التعيين باسم المصلحة العليا. وبالفعل لم يتم تعيننا، ثم وبعد الإفراج عنا علمنا أن الدكتور عبد الرحمن بدوى قد ترك العمل فى رئاسة القسم بالكلية، وتم انتدابه مستشارًا ثقافيًّا فى سفارة مصر بسويسرا أربع سنوات، ومن بعدها كانت رحلته إلى جامعات ليبيا والكويت حتى استقر به المقام بعد سن التقاعد فى باريس، وقد اختارها مكانًا للإقامة، يقلع من غرفته فى الفندق كل صباح فى السابعة والنصف حتى نهاية اليوم، يعمل فى المقعد المخصص له منذ سنوات فى «دار الكتب الأهلية» بباريس، وينتج كتابًا تلو الآخر بمعدل كتابين كل عام، إلى جانب الموسوعات المتخصصة.

وشاءت الظروف أن تقترن هذه الفترة بنهاية عملنا أستاذا مديرًا للأبحاث فى «المركز القومى للبحث العلمى»، فى باريس، والتركيز على عملنا الموازى فى آسيا وخاصة منسقاً لكبرى المشروعات العلمية فى «جامعة الأمم المتحدة» فى طوكيو، بحيث لم يسعنا أن نكون إلى جانبه بشكل متصل.

ورغم هذا، فقد جرت العادة أن يرحب بنا أستاذنا كلما أمكن ذلك، وقد تنوع مكان الاجتماع فى فندقى المحبب ومنزلنا السابق فى باريس حتى استقر على المقهى الذى يطيب له أن يجلس فيه وقت الإفطار يوم الأحد أمام نهر «السين».

الكلام هنا يقودنا إلى باب آخر، باب المراجعات والذكريات لآمال المشروع وإجهاض المشروع، لم يتغير الرجل فى أصالته وموقفه وتوجهه فى أستاذيته، يشجبنى دومًا على ما لا يرضاه فىَّ، موقف سياسى تطور فى سياق متسق، ولكنه يسعد باتصال العمل والأداء، يستغرب فترات الإحباط، ويستنكر التوقف عن الأداء أحيانًا من ناحيتنا، يميز بدقة بالغة بين الوطنى الأصيل وأدعياء الوطنية والثورية الساعين إليه.

باب جديد نرجو أن يمتد السنة تلو السنة، وأن يتيح الله عز وجل لأستاذنا عمرًا مديدًا زاخرًا بالإمداد والعطاء.

ولعل من طرائف الأمور أننى عدت إلى دراسة «هيدجر» بشغف منذ عشر سنوات، فتذكرت بندم وسخرية كيف كنت أنتقد موقف أستاذنا، صارحته فى ذلك فابتسم وضحك طويلاً وقال: «أخيرًا، أخيرًا وصلت... منبع عميق وصعب ولكن الحمد لله».

لا أستطيع أن أختتم هذه السطور القلائل عن مغزى رسالة أستاذنا الجليل دون استخلاص ما أراه أنه ـ حقًا ـ تقصير من مصرنا المحروسة فى حق أمتنا وشعبنا وحضارتنا.

إننا نعيش ـ نحن معشر المصريين والعرب المسلمين ـ فى عصر ارتفع فيه لواء الفكر الفلسفى إلى مستوى ما كان عليه فى عصر «ابن سينا» و«ابن رشد» و«الفارابى» و«ابن خلدون»، بفضل كوكبة من الأساتذة، وعلى رأسهم وفى مقدمتهم، عبد الرحمن بدوى.

أتساءل، ونتساءل جميعًا: أين مصر؟ أين دولتنا، وحكومتنا وجهاتنا ومجالسنا المختصة، ووزراؤنا؟

كيف لا تدرك مصر أن فى عنقها ـ فى عنقنا جميعًا ـ دينًا عظيمًا لهذا المفكر العلم الذى كوَّن جيلاً بعد جيل من كبار الأساتذة والمفكرين فى أرضنا المصرية والعربية، وأثرى حضارتنا المصرية العربية والمعاصرة بمكتبة موسوعية على أرفع مستوى؟!

أفلا يحق لمصر أن تلتفت إلى ذاتها، فيكرم رئيس الدولة الأستاذ الجليل عبد الرحمن بدوى بأرفع الأوسمة، وهو الذى جمع فى شخصه أصالة الوطنية، وعمق الريادة الفكرية، واتصال العطاء والمنح منذ الشباب حتى سنوات العمر المتقدمة؟

والحق أن أرفع الأوسمة، بل وإنشاء جائزة خاصة به، تمنح باسمه فيما بعد إلى العاملين فى سبيل الفكر المصرى والعربى والإسلامى بمناسبة مؤتمر عالمى تقيمه مصر للاحتفال بابنها العظيم على أرض الوطن وفى قاهرة المعز، أن هذه الأمور وما يواكبها أصحبت لزامًا علينا جميعًا عملاً بقول صديق مصر العظيم «شو إنلى»، رئيس وزراء الصين وصديق جمال عبد الناصر منذ باندونج: «فلنذكر من حفروا الآبار إذ نشرب من مائها».

ـ ٤١ ـ

صبحى وحيدة: فى أصول المسألة المصرية

كلما اقتربت من هذه الصفحات ذكرت قامة الرجل فى مطلع حياته وقوته أتساءل: متى تعترف مصر ـ ترى ـ بكبار رواد مسيرتها؟ وإن أرادت أن تحتفل: كيف؟ وعلى أى مستوى؟

أقول هذا بمناسبة لقائنا اليوم فى مسيرة «البحث عن مصر» مع كتاب فاتح بكل معانى الكلمة دخل فى أعماق وجدان عشرات وربما مئات الآلاف من المصريين. وما زال السواد الأعظم من المثقفين يجهلون اسمه وعمله أو لعلهم يتجاهلون.

صدرت الطبعة الأولى من كتاب (فى أصول المسألة المصرية) لمؤلفه الدكتور عبد الفتاح صبحى وحيدة عام ١٩٥٠ من مطبعة مصر، وكان ملتزم التوزيع مكتبة الأنجلو المصرية. عرفنا بعد رحيل الرجل أنه تم توزيع ٨٠ ألف نسخة من هذا الكتاب المتعمق فى جذور فلسفة تاريخ مصر وتحركها الممكن المستقبلى. وحسنا فعل الحاج مدبولى إذ نشر طبعة ثانية من نفس الكتاب فى مطلع الثمانينيات. وأعتقد أنه لقى نجاحا واسعا. ورغم هذا ـ أو ربما من أجل هذا ـ أقصد هذه الأرقام المذهلة بالنسبة لعصر التردى والانكماش والأمية الفكرية والتبعية الثقافية باسم العولمة والحداثة. أقول: ربما من أجل هذا كله ما زال الكتاب ومؤلفه فى مكانة هامشية من الرأى العام. سألت عشرات من شباب مصر. وعددا مماثلا من كبار المثقفين والساسة المرموقين عن هذا الكتاب ورأيهم، ولا أذكر أن عدد المجيبين بالإيجاب زاد على ثلاثة حتى اليوم، كلما قلت إنه كتاب مركزى ومفكر رائد علم. ساد الاندهاش بل والذهول «من تقول؟.. ما اسمه.؟ أين هذا الكتاب؟ وكيف يمكن أن نحصل عليه؟..» وعندما يسمعون عن حكاية الكتاب يسود الذهول والسكوت، ويقرر السائل أن يسعى إليه فورا.

لست أدرى إن كان الكتاب وجد محله فى بيوت الجيل الجديد، وإن كنت أرى لزاما علىَّ أن اقترح على القائمين على شأن «مكتبة الأسرة» أن يقدموه فى أقرب فرصة ممكنة إلى شعب مصر.

عبد الفتاح صبحى وحيدة من مواليد ١٩١٢, وقد حاز على الدكتوراه فى القانون من جامعة روما, ثم عاد إلى القاهرة يعمل فى سكرتارية «اتحاد الصناعات المصرية», حيث التقطه رئيس الاتحاد الراحل إسماعيل صدقى باشا, الرجل القوى للرأسمالية، وكذا اليمين المصرى منذ الثلاثينيات, فعينه أمينا عاما للاتحاد عام ١٩٥٠، وبعد سنة, صدر كتاب «فى أصول المسألة المصرية» ومعه ملزمة من آراء رجالات مصر: إسماعيل صدقى باشا, عبد القوى أحمد باشا, توفيق دوس باشا, حسن نشأت باشا، وكلهم يعبر عن دهشته لظهور هذا المفكر الجديد الذى رأى أن يركز التحليل على الحالة الداخلية لمصر, أو بوجه أدق على عملية الصياغة التاريخية للمجتمع المصرى عبر الأجيال, بدلا من الاكتفاء بالتنديد بالاحتلال, وإن كان موقفه من الاحتلال والاستعمار والتبعية عميقا لا هوادة فيه. وكذا لاحظ كبار باشوات مصر أن المؤلف يركز بشكل لم يسبق له مثيل على الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية, بدلا من الدبلوماسيات والتاريخ السياسى. وبينما باشوات مصر على هذا النحو, كنا ـ معشر الشباب التقدمى أعضاء «دار الأبحاث العلمية» ـ نتحسس طريقنا إلى معانى وعناصر الجبهة الوطنية المتحدة المرموقة منذ ١٩٤٤ حول رسالة «أهدافنا الوطنية» وعندما تغير الأمر وتم حل المنتديات والجمعيات والصحف والهيئات فى ١٠ يوليو ١٩٤٦ على أيدى إسماعيل صدقى باشا, استمر العمل المواكب بمختلف الطرق لمواصلة التنقيب والبناء. وإذ بنا نلتقى بكتاب «فى أصول المسألة المصرية» على غير موعد, أو هكذا تصورنا. شاءت الظروف أن يكلفنى شهدى عطية وزملائى بتولى مهمة الاتصال بالمؤلف لمحاولة فهم الأمر الغريب الذى أذهلنى: كيف يمكن أن يكون الأمين العام لاتحاد الصناعات المصرية ـ أى قلب الرأسمالية الصناعية فى مصر خليفة إسماعيل صدقى المختار ـ على خطوط متوازية وساحات واسعة من التواكب، بل والاتفاق مع القطاع التقدمى للحركة الوطنية المصرية؟ سؤال مذهل حقيقة لم أتبين حقيقته إلا يوم استقبلنى الرجل فى مكتبه بعمارة الإيموبيليا على تقاطع شارعى قصر النيل وشريف

بعد إجازات صيف عام ١٩٥٠ ، كان ذلك فى الحادية عشرة صباحا على ما أذكر بمكتبه بالدور التاسع (إن لم يكن الرابع)؟ وجدته ممشوق القوام باسما مُرَحِّبا, هو أيضًا مستغربا, على ما يبدو. بدأ الحديث بحذر من الناحيتين, ثم ارتفعت نبرة الاستغراب حتى بلغت مرتبة الحماس ، وبعد ساعتين انتهينا إلى إن هذه النهاية للقاء الأول بداية لمسيرة مشتركة بين زملائى والقطاع الذى يمثله المؤلف, وهو الذى أطلقنا عليه فيما بعد اسم فئة التكنوقراط, أى علماء ومحترفو إتقان تكنولوچيا الاقتصاد «رواد» تصنيع مصر آنذاك. مرت السنوات واتصلت لقاءاتنا حتى ١٩٥٤, عندما ابتعدت نحو سنتين عن القاهرة فى ظروف قهرية, كانت مصر قد تغيرت, خاصة بعد تأميم قناة السويس ، وبدء حركة التمصير والتأميم الواسعة فى قطاع الاقتصاد, الزراعة, ثم الصناعة والبنوك. سمعت أن الدكتور صبحى وحيدة يعمل فى مركزه, رغم إبعاد الباشوات من الحكم ، وكأن النظام الجديد يأتمنه على اتحاد الصناعات المصرية قلب الرأسمالية الصناعية فى البلاد. وفجأة, وبينما نحن فى حشد المعركة لصيانة مصر من العدوان الثلاثى, فى الأسابيع القليلة السابقة لهذا الأمر, سمعنا خبرا مفزعا : مجهول طعن الدكتور وحيدة بالسكين على باب الإيموبيليا وهو يهم بالخروج من منزله, فينهار قتيلاً فى دقائق. ثم سمعنا أن القاتل كان يعمل فراشا فى مكتب الدكتور وحيدة, وقد شجبه الفقيد, فما به ـ أى بالفراش ـ إلا وقتل الدكتور وحيدة بالسكين.. قصة غريبة مريبة, لم أتابع إجلاءها على أيدى النيابة, وإن ساد شعور فى أوساط كثيرة أن هذا الأمر الغريب يذكرنا بغرائب أخرى, من بينها مقتل المحامى والمناضل الوطنى الكبير عزيز فهمى ـ المرشح لقيادة الوفد المصرى بعد مصطفى النحاس باشا ـ فى حادث تاكسى غامض على طريق القاهرة ـ الإسكندرية الزراعى ، هنا أيضا لم يفهم الرأى العام حقيقة الأمر, إذ قيل إن التاكسى الذى كان يركبه الفقيد وقع فى ريَّاح, وإذ بسائق التاكسى فى الأمام يخرج من التاكسى سالما, بينما الأستاذ عزيز فهمى يفقد العمر وهو فى مؤخرة التاكسى, أى خارج مياه الريَّاح.. شعرنا أن شيئا ما يدور, ربما لم نعرف كيف نمسك بخيوطه ، ولست أدرى إلى اليوم ماذا آل إليه التحقيق.

فى كل من هاتين القضيتين اللتين أبعدتا عن مسرح مصر السياسى وقيادة الحركة الوطنية وجهين على أرفع مستوى من الفكر والإشعاع ، كم كانت حركتنا الوطنية فى

حاجة إليه آنذاك ـ ولا تزال. مدخلا إلى لقائنا مع فكر عبد الفتاح صبحى وحيدة بعد نصف قرن من الزمن ـ وقد دخل التاريخ.

مدخل أول يعنى باستمرارية مصر ـ رغم تنوع أطوارها ـ عبر التاريخ، هنا يرى صبحى وحيدة أن الانكسار جاء على الموجة الموعزلية (أى الفتح العثمانى) فى القرن السادس عشر فقط.

١ ـ «مصر قد تعرضت منذ نهاية العهد الفرعونى إلى ثلاث هجرات ضخمة: الهجرة الإغريقية والهجرة العربية ثم الهجرة المغولية بمشتقاتها الكردية والشركسية والتركية. وقد اختلفت كل من هذه الموجات الثلاث عن الأخرى من نواح متعددة أهمها فيما يتعلق ببحثنا الحالى هى الوسيلة التى تم بها تأثيرها فى المجتمع المصرى. فقد كانت هذه الوسيلة لدى الأغارقة هى الأشكال الاقتصادية الجديدة والثقافة، وكانت لدى العرب الوحدة فى الدين واللغة، وكانت لدى المغول الجيش. كان ما بين شاطئ البحر المتوسط والمحيط الهندى وحدود الصين مثل وعاء واحد ضخم, تختلط داخله الأجناس والأفكار والتقاليد, ويحتل كل جنس منه الطبقة التى تلائم الدور الاجتماعى الذى يجتازه إلى أن تذوب جميعا ما استطاعت, فى الوحدة الجديدة التى جمعت بين شتاتها, فيحتل أصلحهم لحمل السلاح, وهم عادة أقربهم عهدا بالبداوة وحياتها الخشنة, مراكز الدفاع, وكانوا فى أول الأمر عربا فصاروا أكرادا وزنجا ومغاربة وتركا وديلما. ويحتل أقدمها عهدا بالنظم الحكومية مراكز الإدارة فيكونون فرسا لدى العباسيين ومصريين لدى الفاطميين والأيوبيين والمماليك، ويكون السوريون تجارا وصناعا وقضاة إلخ.. والذى يدرس التراث الثقافى الإسلامى اليوم يستطيع أن يميز فيه التفكير المصرى من التفكير العراقى والتفكير الشامى, نقصد تفكير أهل مصر وأهل العراق وأهل الشام؛ لأن طبيعة أولئك غير طبيعة هؤلاء، ولكنه لا يستطيع بالغا ما بلغ جهده أن يرتفع بهذا الاختلاف فى التفكير إلى قومية مصرية أو عراقية أو شامية واعية. وكان هؤلاء النازحون يتلاقون ويختلطون ويتعاونون فى مجتمع واحد يجمع بينهم بروحه الدينية وينشئ منهم دولة واحدة تنعكس على سطحها ملامحهم الغريبة المختلفة: دولة يلقب رئيسها ــ منذ بيبرس حتى الغورى ــ بـ«سلطان الإسلام والمسلمين» وارث الملك وسلطان العجم والترك إسكندر الزمان صاحب القبلتين خادم

الحرمين الشريفين سيد الملوك والسلاطين» لا سلطان مصر؛ وتمتد حدودها إلى أرمينيا القصية. وتجمع بين المصريين وغير المصريين من أعراب ومغول وأتراك وأكراد. وتقوم على نظم لم تعرفها مصر فى عصر من عصور حياتها الطويلة قط. وقضى بنو عثمان على هذه الدولة فى القرن السادس عشر، فتم بذلك لآسيا الوسطى الظهور على شعوب هذا الجانب من البحر المتوسط. حكم كان الناس يتكلمون إلى آخر أيامه التركية لا العربية. كما كانوا يفعلون فى القاهرة فى أشد أيامها تعرضا للموجات المغولية. ويكتبون بالتركية لا العربية كما كانوا يفعلون تحت حكم المماليك. ويتجهون فى حياتهم العامة والخاصة اتجاهات آسيوية بارزة.

٢ ـ ماذا إذن عن شخصية مصر وخصوصيتها بين أمواج الحروب. من القرن التاسع حتى القرن السادس عشر؟ نقرأ لمؤرخى ذلك العصر كابن إياس نفسه والمقريزى وتغرى بردى والجبرتى بعد ذلك فلا نجد تحت ما يبعثه سقوط الدول والسلاطين فى نفوسهم سوى الإشفاق على مصالح الناس أو عزة الإسلام أو خراب الدولة أو تدهور الحضارة أيضًا أو كل شىء سوى الشعور بكرامة وطنية ديست أو عزة قومية جرحت.

وقد كان من شأن هذا الوضع الذى اتخذه المجتمع الإسلامى وقتئذ أن انهارت الخلافة العباسية وأنشأ الخطر المغولى يهدد آسيا الصغرى بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر حتى صارت مصر ملاذ المسلمين من جميع الأجناس. ونحن نعلم أن الصليبيين ما كادوا يهددون مصر فى القرن الحادى عشر حتى ثار أهلها على الفاطميين واتصلوا ببغداد ومهدوا السبيل لقيام حكم صلاح الدين.

كان صلاح الدين من الرجال الأشداء الذين شاركوا نور الدين زنكى فى مجاهدة الصليبيين، وكان يقدم مصر استجابة لمقتضيات هذا الجهاد على رأس جيش غريب تجمعه به عصبية حية، ويفصل بينه وبين المجتمع الفاطمى الذى كان ينزل عليه اختلاف بعيد فى المستوى الاجتماعى. فضلا عن تميزه بما كان عليه من اتصال مباشر بتلك الأصقاع الآسيوية السحيقة التى كانت تطلق على العالم الإسلامى حينئذ سيلا لا ينضب.

٣ ـ كان أهل الدولة الفاطمية هم الذين دعوا الأيوبيين إلى إسقاط هذه الدولة بعد أن عجزت عن الوقوف فى وجه الكفار. وكان الأيوبيون بالذات هم الذين أنشئوا فرق

المماليك ومهدوا لهم الحكم، وكان المماليك هم الذين واطئوا بنى عثمان وانهزموا لهم وتعاونوا معهم فى الحكم حتى جفت عروق الدولة العثمانية.

وكل دولة من هذه الدول حم قضاؤها تتلفت حولها طالبة النجدة فلا تجدها فى غير أعضاء العائلة التى تحكمها وأتباعها المباشرين؛ لأنها لم تكن قط إلا حكومة شخصية, حكومة عائلة بعينها.

ونحن ننظر إلى مصر فى هذه الفترة فنجد مجتمعا غريبا لا سابق عهد له به, مجتمعا تغلب على حياته فكرة الحرب, حرب المسلمين للنصارى، وحرب المغول للمسلمين وحرب المماليك بعضهم بعضا، وكل هذا فى وحشية كئيبة, وسط فوضى بدوية لا توصف, وبكثرة عجيبة حقا. ونجد فى مناصب الحكم الذى كان يقوم بشئون هذا المجتمع أولئك الأمراء الغلاظ من الأيوبيين والمماليك الذين كانوا ينفقون حياتهم فى الحروب، وحولهم فرق من العسكر تخضع لإرادتهم، أو تخضعهم لإرادتها، وتوجه أمور الحكم كما تشاء. نجد دولة عسكرية من نوع الدول البدائية التى قامت فى الغرب بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، وقامت فى الشرق على أنقاض الإمبراطورية العباسية: جند فى الأسفل، ثم أمراء عسكريون، ثم قائد أعلى يزاول السلطات جميعا، والجميع لا يعرفون لهم عملا غير القتال.

٤ ــ ورغم هذا, وفى قلب هذا كله, مجتمع مغاير يعمل وينتج, يواصل مسيرة الحضارة المصرية التى كادت تتوه فى متاهات الغزاة.

قال صاحبى: كيف نذكر أعلام الفكر؟.. بالله عليك: هل نتساءل إلى أبد الدهر, ونحن فى عصر الجوائز من جميع التسميات والدرجات؟

ألا يجدر بنا أن نمنح الجوائز مرفقة بأسماء الأعلام الرواد: طه حسين, عباس العقاد, سلامة موسى, على مشرفة, مصطفى عبد الرازق, مثلا فى عصرنا.. بعد الفاتحين: عبد الرحمن الجبرتى, رفاعة الطهطاوى, عبد الله النديم, عبد الرحمن فهمى, طلعت حرب!.. عناوين لجوائز الدولة فى مختلف التخصصات والقطاعات.. إيه رأيك؟..

رحلة صبحى وحيدة إلى أعماق مصر ـ إلى ما أطلق عليه المستعمرون منذ قرن تسمية المسألة المصرية ـ تستمر الموجة تلو الموجة, تؤكد طاقات الشعب والأمة على الدوام برغم القهر والعدوان.

طاقات هى مقدمة أركان شخصية مصر، وقد أصبحت هذه الشخصية معضلة أو مشكلة تؤرق بال العدو المحتل, ومن ثم تسمية المسألة المصرية وكأن وجود مصر على قيد الحياة عبر عشرات الأجيال عقبة لا يمكن إزالتها.

أمثلة قليلة تجدها هنا وهناك فى كتب العصر، وهى تشعرنا بأن الأمر لم يكن شذوذا, وإنما كان قاعدة عامة فى عهود السلاطين جميعا وفى دواوين الحكومة ودواوين الأمراء على السواء.. وكان هؤلاء الرجال يأتون من صميم الطينة المصرية ويشتركون فى الحكم ويوجهون مصائره دون أن يكون فى سلوكهم شىء من روح العبودية الذى أراد أن يراه الذين عرضوا لتاريخ ذلك العصر, قياسا على ما حدث تحت حكم المماليك.

هل تعلم أن أهل المدن كانوا يصنعون وقتئذ أنواع السلاح جميعها ويحملونها فى الطرق، ويتبارون بها فى الميادين العامة، ويشتركون فى حرب المغول والصليبيين، وأن أهل الإسكندرية كانوا يملكون على أيام ابن بطوطة مستودعات كبيرة تذخر بأنواع السلاح، ويرفضون أن يقوم السلطان بالدفاع عن المدينة من دونهم, ونعلم أن أبناء البلاد جميعا كانوا يجتمعون وقتئذ فى نقابات لها قوانينها وتقاليدها ورؤساؤها، وأن هذه النقابات كانت تتمتع إزاء أعضائها بسلطة إدارية ـ قضائية ـ مالية واسعة تجعل منها وحدات حكومية قائمة بذاتها تعترف بها الدولة, وتعتمد عليها, وتحسب حسابها إلى حد بعيد.

الموجة الغربية

يدخل صبحى وحيدة مرحلة التاريخ الحديث من بوابة الحملة الفرنسية, يرى فيها غزوا لقوة أكثر تقدما من الناحيتين العلمية والعسكرية, والسياسية فى المقام الأول, ساعيا لمتابعة مقاومة شعب مصر عبر ثورات القاهرة والإسكندرية عبر كتابات الرواة والمؤرخين.

١ ـ حتى يلتقى بمحمد على فى صفحات لا تنسى :

« وكانت سياسة محمد على تقوم على الاحتفاظ بمصر وتقويتها والقدرة على الدفاع عنها, ثم تمتد بدافع تخوفها من انهيار الإمبراطورية العثمانية, وطموحه الشخصى, إلى الرغبة فى توسيع حدودها والبلوغ بها إلى الخطوط الطبيعية التى تمكنها من القيام بنفسها, ثم تعلو إلى محاولة الوصول إلى الأستانة لتحقيق ما كان يصبو إليه العالم الإسلامى حينئذ من إنهاض الإمبراطورية العثمانية, وكانت تدفع لذلك به دفعا نحو سوريا, وتميل به إلى الانسياق خلف مشروعات تركيا فى آسيا (حملة بغداد) أو شرق البحر المتوسط (حملة المورة وكريت), ومشروعات فرنسا فى إفريقيا الشمالية (حملة الجزائر), وإن كانت لم تمنعه من النظر فى جميع هذه المشروعات والانتفاع بها أوسع الانتفاع, كما فعل باستغلال كريت فى سياسته البحرية حين أعطتها تركيا إياه, وانتهاز مشروع الجزائر لمحاولة الحصول على ما كان يحتاج إليه من مال فرنسا وسفنها حين عرضته عليه الحكومة الفرنسية, كذلك لم تمنعه من السعى للتحالف مع إنجلترا خوفا من اتساع نفوذ فرنسا فى إفريقيا الشمالية وأثره عليه, ومن عرض التحالف على فرنسا ليؤثر بواسطته فى سياسة أوروبا ويبعث فيها الشقاق.

كان المصريون يعودون إلى صنعة السلاح بعد أن هجروها منذ أن اتصلت مصر بالإمبراطورية اليونانية والرومانية والعربية ، وهى إمبراطوريات كانت تعتمد فى حروبها على المرتزقة من شعوبها الخشنة, ويجتمعون فى كتلة واحدة منتظمة ، ويلتقون فى ميادين القتال بالشعوب الأخرى فيشعرون بشخصيتهم ووحدتهم واختلافهم على غيرهم, وقد استتبع تكوين هذا الجيش قيام المرافق والمدارس والإدارات اللازمة لتغذيته, وكانت تستخدم هى أيضًا أهل البلاد وتدربهم وتوجههم الوجهة التى تقتضيها الحياة الجديدة ، أى تنبعث نواة هذه الدولة الفتية بجوهرها المصرى, وأوضاعها الأهلية ومواردها الخاصة.

وأفاد من هذه السياسة أيضًا الاتصال المستمر بأبناء أوروبا ، هؤلاء الذين كانوا يعملون حينئذ كل شىء ويشرفون على كل أمر, ويمثلون الحضارة الجديدة والنفوذ السياسى فى أجلى معانيهما, فكان يلقى تجارهم وصناعهم وعلماءهم كل يوم, وكان يسمر فى ساعات فراغه مع طائفة ذكية منهم ويحاول أن يتعلم كل ما يستطيع أن يتعلمه

من خيارهم، ويتطور بذلك تطورا لم يفتر قط فى السنين الأربعين التى قضاها فى الحكم, بيد أن أثر اتصاله هذا بالغرب لم يبلغ صميم نفسه, أو ينل من معدنها البتة, وإنما ظل يعمل خارجها, ظل يعمل فى دائرة الوسائل التى كانت تتلمسها لبلوغ غاياتها الخاصة, ومن هنا ما تنفرد به سياسته من حزم, وما يبدو عليها أيضًا من تناقض بين المظاهر الحديثة والنزعات القديمة, فهو يقيم المجالس الاستشارية, ولكنه يغلب عليها إرادة الحاكم وهو ينشئ المدارس ثم يغلقها فى غير ما تردد, حتى يرى تحقيقها للغايات التى قصد بها إليها, وهو يقيم المنشآت الزراعية والصناعية الحديثة, فى الوقت الذى يتمسك فيه بسياسة اقتصادية عتيقة.. والنزعات القديمة تتغلغل لديه فى المظاهر الحديثة, وتكبح جماحها بقوة تنبثق من شخصية سليمة لم يرتقها الشك أو يتطرق إليها التردد. وهى بعد شخصية حاكم عثمانى عريق من نسيج الحكام الذين قادوا المسلمين إلى الانتصارات الصليبية والمغولية, وأقاموا حكم المماليك وبنى عثمان, فهو مثلهم لا يرى من الحكم إلا الجانب العسكرى, ولا ينظر إلى الحياة المدنية إلا كوسيلة من وسائل الانتصارات فى ميادين القتال. فيسأل القناصل ماذا لم يفعل لمصر, ألم يعطها جيشا وأسطولاً ومدافع ؟ ويقول لقنصل فرنسا إنه يريد أن يكون فى كل وقت على أتم استعداد عسكرى حتى لا ينساه المسلمون.

ويكتب لمديريه قائلا : إن رفاهة مصر ترجع لجيشها, ويستنكر تفكير أوروبا فى حرمانه من بلاد أخذها بحد سيفه.

٢ ـ ومن هذا العملاق بكل معانى الكلمة إلى (الموجة الغربية) هجومها الشرس وتوغلها باسم ــ الحضارة والتقدم بطبيعة الأمر ــ موجة العنصرية والخداع التى اصطدمت بإسماعيل المفترى عليه فأطاحت به (١٨٧٩) ومن بعده بقادة ثورة الجيش عام ١٨٨١ بدءا للاحتلال.

وما كان من زرع القناة ـ حين احتال ديليسبس على سعيد للشروع فيها ــ بالشىء الذى تؤمن به أوروبا نفسها إيمانا صادقا, ومع ذلك نالت إنجلترا سكة حديد السويس ثمنا لمساعدة عباس فى الاحتفاظ بحقوقه ـ كاملة ــ ونال ديليسبس قناة السويس مقابل ثنائه العاطر ووعوده السخية, ومضت القاهرة فى تنفيذ المشروعين بخطى سريعة كانت تثير أهل البلاد ومعارضة الدول التى كانت لا تفيد من مثل هذه المشروعات فائدة مباشرة.

وهكذا كان إسماعيل يجد خلف إرادته فى الحكم الحقيقى ـ حين ولى مصر ـ تيارا دوليا قويا, وروحا داخلية ظاهرة, ومن هنا اعتناقه السياسة التى كانت تنتهجها إنجلترا فى محاربة مشروع القناة من المناداة بوحشية السخرة التى كانت تلجأ إليها شركة القناة, إلى إبراز الخطورة السياسية التى كان ينطوى عليها امتلاك هذه الشركة مساحات واسعة من الأراضى المصرية, إلى الإلحاح فى إنشاء قضاء منظم يضع علاقة الأجانب بحكومة البلاد ورعاياها فى حدود طبيعية, ويقفل الباب فى وجه الامتيازات التى كان ممثلو فرنسا ينالونها من حكامهم، ثم كثرة الاعتداءات على الأجانب التى صحبت ارتقاءه العرش, وقد أثارت هذه السياسة فرنسا.

وكانت الظروف المالية ترجع إلى ما اضطر إلى أن يحتمله فى سبيل تسوية النزاع الخاص بمشروع القناة، وترضى السلطان والتقرب من العواصم الغربية, ثم ما اختطه لنفسه من سياسة مالية أراد أن يتجنب بها ما انتهت إليه اتجاهات سعيد المالية من نتائج وخيمة, وكانت هذه السياسة تقوم على استثمار مرافق البلاد بإنشاء شركة قوية كالتى كانت تقوم فى أوروبا لذلك الوقت, يعهد إليها بهذا الاستثمار, ويشترك هو ورجاله فى رأسمالها ويخضعها لقضائه, وكان هو يقصد من ذلك إلى تنسيق الاستقلال الاقتصادى, والإسراع فيه، وتفادى الضغط الأجنبى من طريقه, ولكنه كان يعرض الخزانة العامة ـ وكانت ما زالت منذ أيام المماليك المتأخرين لا تفترق عن مال الولاة ـ إلى أخطار الاستغلال التجارى, دون أن يستطيع بعد ذلك الاستغناء عن رؤوس الأموال الأجنبية وخبرة أصحابها, وما يصحب ذلك من تدخل قناصل الدول بنفوذهم السياسى العريض, وقد أخفقت غالبية هذه الشركات.

الموجة الغربية إذن هى التى ضربت مشروع نهضة مصر، منذ تولى محمد على (١٨٠٥) إلى الاحتلال البريطانى (١٨٨٢) بعد أن استطاعت الطاقة المصرية الذاتية الكامنة أن تفرد أجنحتها بفضل ريادة محمد على, وحروب إبراهيم، إلى أن اتجه إسماعيل نحو تأسيس طبقة رأسمالية مصرية بكل معانى الكلمة، وعندئذ أطاحت به أوروبا الديمقراطية المتحضرة، إذ رأت أن يتسلم خديوى مصر فرمان الباب العالى بإقالته عام ١٨٧٩ على أيدى صديقه ديليسبس صاحب عملية قناة السويس.

أعراض المراهقة

وبرغم كل شيء, برغم الانكسار والاحتلال وإجهاض محاولة إقامة دولة حديثة واقتصاد وطنى ونهضة شاملة, لم تتوقف مصر منذ على بك الكبير, ومحمد على خاصة, ولكنه كان تحركا يتسم بشبكة هائلة من التناقضات الداخلية, كانت وما زالت إلى حد ما تمثل التحدى الحقيقى لنهضة مصر الوطنية الحضارية ـ رسالة شعبنا دوما.

١ ـ رأينا كيف يرجع ضعف مقاومتنا فى المحيط السياسى وقلة إنتاجنا فى ميدانى الاقتصاد والفكر قبل كل شيء إلى عدم انبثاق تلك المقاومة وهذا الإنتاج من حياة اجتماعية زاخرة تجمع بين طبقات المجتمع جميعا فى حزمة واحدة فهما لا يعدوان أن يكونا نفرة الطاقة العليا من مجتمع قديم يلج جوا جديدا ويحاول الذود عن نفسه والملاءمة بين شئونه ومقتضيات هذا الجو, وهذه الملاءمة عسيرة غاية العسر ؛ لأنها تقتضى خلق بعض الظواهر الاجتماعية خلقا, وتعجل نضوج البعض الآخر, وتنسيق أطوار هذه الظواهر جميعا تنسيقا شاملا, أى تحقيق ما حققه المجتمع الغربى فى قرون من السير الطبيعى الهادئ فى دفعة واحدة وبتدبير مقصود.

ونحن نحاول هذه المحاولات ونعالج مسائلنا على وجه العموم بخبرة من لدينا من عناصر فتية نالت نصيبا من التربية الغربية, دون أن يكون لها حظ كبير من الثقافة الشرقية الصحيحة, ويدفع بها التيار الغربى الذى يحيط بنا من أقطارنا جميعا إلى أجهزة الحكم, دون العناصر التى كان يحق للمجتمع بتكوينه الزراعى ـ الدينى أن يرسلها إليها لو لم يكن هذا التيار الغربى بمقتضياته الاجتماعية ونفوذه السياسى, وهذه الخبرة هى النتاج المباشر للثقافة الجامعية التى نالتها هذه العناصر فى الغرب, دون أن تكون بينها وبين الحياة العملية التى أنتجتها أو حياة البلاد الحقيقية سبب كبير.

وهى تخضع لوضعها هذا حين تفكر وحين تعمل وحين تعالج ظواهر لما تظهر أو ظهرت ولكنها لم تنضج, كما نضجت مثيلاتها فى الغرب. ولم تتخذ على كل حال الأوضاع نفسها التى اتخذتها هناك, وتفعل ذلك بالأساليب التى ابتدعها هذا الغرب تحت ضغط تلك الأوضاع.

وهكذا لم يهتم الذين وضعوا دستورنا يوم وضعوه بدرس ماضينا الدستورى أو

حاضرنا الاجتماعى كما اهتموا بدرس الدساتير الأجنبية, ولم يعن الذين وضعوا نظمنا الحكومية بماضى هذه النظم لدينا كما عنوا بنقل القوانين الفرنسية, وما زال الذين يضعون تشريعنا الاجتماعى والاقتصادى ينتهجون مثل هذا المنهج إلى حد بعيد.

٢ ــ هناك إذن مجتمع مصرى جديد ترتفع نشأته إلى مطلع القرن التاسع عشر, وترجع أصوله فى مجموعها إلى تراخى الصلة بين السلطنة العثمانية ومصر, وتحلل النظم المملوكية, ثم النزعة الانفصالية التى بدأت تحت مشايخ البلد، وبلغت أشدها بمحمد على, ثم انتهت إلى غايتها عند انفجار الحرب العالمية الأولى, إذ تضافرت هذه العوامل فى تكوين أسرة مالكة جديدة وحكومة محلية ومصالح وطنية, وأتاحت لأبناء البلاد الغلبة على من كان يختلط بهم إلى ذلك الحين من عناصر أخرى.

وهذا المجتمع يرث عن ماضيه فكره العربى وضميره الإسلامى ونظمه المغولية, فى حالة ثقيلة من الفساد الذى دب إليها جميعا تحت الدولة التركية, ويخضع لتأثير هذه الحضارة الغربية البراقة, التى تكونت بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر, أى فى أثناء نكبته العثمانية بالذات, بفضل الحروب الصليبية, التى ردت الغرب إلى حياة البحر المتوسط, وأعادت الصلة بينه وبين ماضيه الإغريقى ــ الرومانى وأشركته فى ثمار الحضارة الإسلامية, واكتشاف الأمريكتين, الذى وسع آفاقه توسيعا لا عهد له به من قبل, ثم العلوم الحديثة وما مكنته منه فى طريق استثمار هذين العاملين.

٣ ــ هذا التأثير الغربى يتخذ إلى المجتمع المصرى الجديد طريق التغلغل الاقتصادى, فيقيد منابع ثروته بإنتاجه والنفوذ السياسى، إذ يبعد هذا التغلغل ويدفع بحكومات القائمين به إلى الضغط على الحكم, ثم الاستئثار به والغزو الثقافى, إذ يشعر أبناء البلاد بمقتضيات الحياة الجديدة التى يتجهون إليها فيقبلون على التعليم الحديث ، ويشعر الغرب بالحاجة إلى إيلافهم, فينشر بينهم ما يريده من هذا التعليم, وتنشأ بذلك طبقة من المفكرين المحدثين, ترفعها مقتضيات الحياة الجديدة إلى الصدارة, ثم تنتشر الصحف، وتعم الإذاعة فتلحق البلاد بدائرة الرأى العام العالمى, وهو يبدأ فى هذه الميادين جميعا كتيار يهب من الغرب, ثم ينقلب جذوة تتقد من الداخل.

فقر الدم.. عقد النقص..

أين نحن من العالم؟ سؤال ١٩٥٠ ما زال حيا يرزق فى عصر العولمة :

المقارنة الزائفة، أولا :

والمقارنة بين نظم الحكم فى مصر قبل الفتح العربى وبعده وبين الحكم فى المدن اليونانية والجمهورية الرومانية أمر لا يستقيم، كما لا يستقيم النظر إلى تاريخ مصر بين العصر الفرعونى ونهاية القرن التاسع عشر بمنظار القومية التى لم تعرفها البشرية إلا بعد ذلك بقرون. فقد كانت النظم المصرية فى الوقت الذى ينصب فيه هؤلاء المؤرخون المقارنة بينها وبين النظم الإغريقية والرومانية نظما عريقة لدولة كبيرة استقرت دعائمها فى بلد زراعى كثير السكان، وكانت لذلك نظم يتركز فيها السلطان، ويتسع الاختصاص، وتبعد المسافات بين الحكام والمحكومين، فى حين كانت النظم اليونانية والرومانية نظما ناشئة لمدن صغيرة تزاول التجارة فى الغالب، ولا يكاد أهلها يجتمعون فى وحدة سياسية حقيقية.

ونحن إذا بدأنا تاريخ حياة أوروبا بقيام روما فى القرن الثامن ق.م واتخذنا الثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر تاريخا لعود الحريات السياسية إلى أوروبا، وذكرنا ما بيننا من عدم مزاولة عامة روما الحقوق السياسية حقيقة، إلا بين سنتي ٥١٠ و٨٧ ق.م تكون أوروبا قد تمتعت بالحريات السياسية زهاء خمسة قرون من خمسة وعشرين قرنا، ويكون الذين يدعون النظم التى قامت فيها فى أثناء تلك القرون الخمسة بالنظم الغربية ويعدونها الأصل فى حياة أوروبا السياسية ويهملون العشرين قرنا الأخرى، ويدعون ما قام فى الشرق من نظم شبيهة بالنظم التى قامت فى أوروبا فى هذه القرون العشرين بالنظم الشرقية، قوم متعنتون.

قوم متعنتون؟ أم قوم جهلة؟ الجهل الذى يسوق الكثيرين إلى طريق التبعية.

٢ ـ ما العمل، إذن ؟ من أين نبدأ؟

ونحن ننتهى من هذه النظرة السريعة لأوضاعنا الحاضرة، إلى ما وصلنا إليه بالعرض لأهم أحداث تاريخنا تحت المماليك من أن الأمر فيما عليه حالتنا الراهنة هو قبل كل شىء أمر فقر الدم هذا الذى أصاب أطراف مصر جميعا بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر: فحد من نشاطها الاقتصادى، وهبط بحياتها الاجتماعية إلى الحضيض، ودفع بفكرها إلى الجمود الأزهرى، أمر مجتمع يخرج من أقصى ما يستطيع أن يتردى فيه شعب من دمار إلى أحدث ما انتهت إليه البشرية المتمدنة، ويحاول أن يساير هذه الحياة

الجديدة دون تقاليد أو مقومات حقيقية, وهو يتعثر لذلك بين هشيم الماضى وعقبات الحاضر، ولا يريد أن ينظر إلى ظروفه الخاصة النظرة المجردة التى تستحقها, ويعالجها بالحزم الذى تقتضيه، ومعالجة مثل هذه الحالة لا تستطيع أن تستقيم إلا بتنقية هذا الدم وتغذيته والإكثار منه, وهو عمل يقتضى مجهودا كبيرا يشترك فيه جميع أفراد المجتمع, لأنه يتصل بنشاط كل منهم.

سطور قلائل من الكتاب الأوحد تركه عبد الفتاح صبحى وحيدة إلى شعب مصر, قبل رحيله أو لعله استشهاده المبكر.

رجل ينتمى إلى الجيل الذى تشبع بالفكر الغربى فى الأعماق, ومع ذلك نراه فى التوجه العام يتجاوب فى الأعماق مع محاور الفكر والعمل الوطنى، بل والتقدمية المصرية, ويضيف إليها البعد الحضارى, وذلك بفضل تعمقه فى دراسة الصياغة التاريخية لمصر عبر القرون, وهو الأمر الذى ينقصنا فى كثير من الأحيان, ربما سعيا وراء بريق النشر المتعجل، والتلاعب بالمفاهيم اللامعة، وأسماء الشخصيات المرموقة التى تؤكد أننا دخلنا فى الجو أو لعل الجو الذى دخلنا.

من المهم أن ندرك كيف أن التعمق فى دراسة الفكر والثقافة والعلم من الغرب يتفق مع التمسك بكل معانى العزة الوطنية والإصرار على استقلالية القرار والاعتزاز بالخصوصية القومية والثقافية والحضارية لمصر. وهذا فى الوقت الذى يرفع فيه التحديث المتغرب والعولمة التابعة شعار أنهُ لا مفر من إعادة صياغة شخصيتنا المصرية لكى نصبح مقبولين فى المجتمع الدولى، أى لكى تصبح مصر تابعة طيعة لهيمنة المركز الواحد.

حان الوقت بعد طول غياب ـ أو تغييب ـ لكى تدخل معانى الكتاب الرائد «فى أصول المسألة المصرية» بيوت المصريين، عقولهم وقلوبهم. عندئذ سوف يتساءل شباب مصر فى ذهول وإصرار: أهكذا كنا؟ ماذا حدث؟ ثم كيف يمكن مواصلة المسيرة بعد أن نفيق؟

قال صاحبى: وبعد هذا يتساءل المخرجون عن أسباب انصراف جمهور الشباب إلى الأساطير والملاحم الأجنبية.. هلا يفكرون فى مسيرة مصر؟

فى روايات الشموخ, وعواصف الحروب والثورات.. فى هيام الحالمين الذين صنعوا تاريخنا.. وبالمناسبة: ماذا تم فى محاولة إخراج مشروع فيلم إخناتون للرائد العظيم شادى عبد السلام؟.. إلى متى تظل أمجاد مصر فى طى النسيان؟

ـ ٤٢ ـ

حسين فوزى: فى أصول الحضارة المصرية

تحتفل مصر هذه الأيام ـ أقصد مصر الوجدان والذاكرة والحضارة ـ بالذكرى المئوية للعالم والمفكر الفنان الكاتب رفيع المقام الأستاذ الدكتور حسين فوزى، رائد بناء صرح الثقافة الوطنية منذ ١٩٥٢.

رحب بالثورة منذ اليوم الأول مديرا لجامعة الإسكندرية، ثم أصبح وكيلا لوزارة الثقافة، أى الوزير الدائم التنفيذى حسب التقاليد القديمة إلى جانب الوزيرين الدكتور ثروت عكاشة وفتحى رضوان، أنشأ «المجلة» كبرى دوريات الفكر المصرى بعد أيام «الكاتب المصرى» أنشأ البرنامج الثانى للإذاعة المصرية، وجعل منه طليعة للفكر الجاد والفن التجديدى. ثم وضع مكتبة نادرة من المؤلفات جمعت بين فلسفة التاريخ والموسيقى والرحلات وسياسة الثقافة تعتبر صرحا نيرا لحركة التنوير الكبرى فى عصرنا. وفى قلبها سلسلة «السندباديات» وأهمها «سندباد مصرى» و«حديث السندباد القديم». ليس هنا مجال العود بحنين لم ينطفئ إلى علاقة فى الفكر والعمل جمعت بيننا منذ ١٩٥٢حتى رحيله يوم ٢٠ أغسطس ١٩٨٨.

وإنما الواجب أن نحيى هذا الرائد العملاق بإحياء صفحات معدودات تنفذ إلى جوهر خصوصية الحضارة المصرية ومستقبلها المرتقب.

من أين يبدأ «سندباد مصرى» مسيرة البحث عن مصر فى رحلته النادرة؟ اختار حسين فوزى أن يتأمل فى يوم الجمعة الحزينة عندما تم لسليم الأول سلطان بنى عثمان إتمام النصر على آخر المماليك بذبح طومان باى. آخر من تولى باسمهم. إيذانا بالسلب والنهب فى نهاية عام ٩٢٢ هـ.

لإنهاك الطاقة المصرية

يرتفع الستار ـ إذن ـ على مذبحة ومأساة ليتساءل حسين فوزى : من أنا؟ أى من هو كاتب هذه السطور وتلك الملحمة؟ يقول :

« فلنحاول أن نكون صادقين مع أنفسنا »، ويسأل هذا السؤال : متى شعرت ـ وأنا أُطالع التاريخ المصرى ـ بأننى أعيش بين عشيرتى وبنى وطنى من أهل القرون الغابرة؟ حدث هذا وأنا أُطالع التاريخ المملوكى، ثم ما تلاه بطبيعة الحال، أنا معبر عن نفسى كقاهرى مسلم، من أسرة قاهرية حتى القرن السابع عشر على الأقل، ولدت فى أحياء القاهرة التى نسميها المعزية نسبة إلى من أشار ببنائها، ولم يبق من آثار منشئيها سوى القليل، فالقاهرة القديمة التى نشأت فى حاراتها، هى القاهرة المملوكية، والطابع الغالب على آثارها، ولكن جو القاهرة الذى غمرنى فى طفولتى، أحسست به وأنا أطالع تاريخ المماليك، والحياة التى تجيش بها صفحات الشيخ تقى الدين وأبى المحاسن والسيوطى وابن إياس هى حياتى، لأول مرة شعرت حقا بأننى أعيش بين عشيرتى وبين وطنى من أهل القرون الغابرة.

الثابت والمتغير

أكاد أتبين على ملامح القارئ الشاب لهذه السطور الدهشة كل الدهشة : أهذا هو رمز الوحدة الوطنية الذى نسوقه خلال رحلتنا للبحث عن مصر؟

وإذ بالدهشة تنقلب إلى دهشة مضادة، إن جاز هذا التعبير، إذ يرى المؤلف يصول ويجول فى تاريخ مصر السبع ألفى معلنا ـ بادئ ذى بدء ـ أنه لا سبيل إلى فهم الحاضر ـ أى مكانة مصر المركزية فى دائرة الحضارة الإسلامية والثقافة العربية ـ إلا بالغوص فى أعماق حضارتنا، أولا خلال المرحلة الفرعونية التى امتدت نحو خمسين قرنًا، ثم المرحلة المسيحية القبطية التى احتلت نحو ستة قرون، قبل الفتح العربى.

١ ـ افتح التراجم عند أية صفحة : العلم والدراسة والمتون والصلاح والفتاوى والإقراء تلازم المصريين، والحرب والضرب والغدر والقتل والنهب والعودة بالرءوس المقطوعة والجلود المحشوة، تجدها دائما فى تراجم المماليك والعثمانيين. نحن الفرس، نحن المقدونيين، نحن الرومان، نحن الروم، نحن العرب، المغاربة الكرد، أبناء فرغانة وكردستان

نتوكل بأمر الحرب والضرب, ونتولى عنكم أيها المصريون صناعة الحرب, لأن صناعتكم يا أهل مصر هى إحياء موات الأرض, وصناعتنا القتل والنهب والسلب, والكر والفر والدفاع والغزو, تحرثون وتبذرون وتحصدون, ونخرب وندمر ونسطو. حرفتكم بناء القصور والمعابد والمدارس والمساجد والخوانق والترب, ونسج الحرير والكتان والتكفين والتذهيب والنقش, وحرفتنا الحكم, والظلم والاستيلاء. صناعتكم ـ يا أولاد مصر ـ هى الحضارة والتعمير, بس!

٢ ـ « .... الفلاح المصرى اليوم هو نفسه فلاح آلاف السنين, لا فى نوع التفكير, ولا فى لغته ولا فى عقيدته, ولا فى لباسه ـ وإن كان المظنون أن لبس الفلاح اليوم هو الكلاميدة اليونانية من أيام البطالسة ـ ولكن فيما له علاقة بالأرض والرى والزراعة, يخرج إلى الحقل ويعود إلى مأواه البدائى, يتزوج ويخلف الأولاد أيادى عاملة, وينام هو وهم والبهائم والدواجن فيما يكاد يكون مكانا واحدا, ينظر إلى العمدة وشيخ البلد نظرته إلى صاحب السلطات, هذه هى وحدة المصرى عبر تاريخه، وحده الحياة على ضفاف النيل».

«وأهم منها وحدة الشقاء الناشئ عن الاستغلال: استغلال رجل المدينة صاحب الأرض, وكاهن المعبد, وممثل السلطة, وقصة الشقاء هذه لا تتغير بتغير الأشخاص: جناب اللورد فى قصر الدوبارة وأفندينا فى القصر العالى, ومولانا ظل الله على الأرض فى المابين والملك الإله فى القصر الكبير «فر ـ عاو» قاع الصورة واحد لا يتغير مظلم عابس نياخ بكلكله. وحياة الفلاح ترسف فى سلاسل محكمة الحلقات, لا فكاك له منها: المال للحكومة, والسخرة للدولة, وكل شىء لصاحب الأرض: أى للمملوك المالك, والباشا, ورجل الدين, والإستراتيجوس الرومانى نائبا عن قيصر, والبطليموس, وكل من حكم به عليه الزمان من قديم الزمان.

وساكن المدن فى عهود الذلة ـ وتحت حكم الأجانب ـ خضع لظروف ربما كانت أقسى من ظروف الفلاح, بسبب آلامه الروحية: كان اليونانى يحتقر المصرى, وكان اليهودى ـ المماليك لليونانى ـ يحتقر المصرى, وجاء الرومان ينظرون إليه جميعا من عل. ولم تكن بيزنطة أرحم بالشعب المغلوب على أمره, ولا كان الولاة العرب, فيما عدا عمرو بن العاص, وقلة ممن حذوا حذوه فى المائة عام الأولى من حكم الولاة العرب.

فالنقمة الطويلة ممسكة بخناق الشعب المصرى على يد حكامه الأكراد والترك والشراكسة والأعيان والأمراء والمقدمين, حبسهم فى أبراج الإسكندرية وخاناتها, انتظارا لقيام المراكب بهم إلى القسطنطينية. وكان قد نزع من بيوت مصر والقاهرة أثمن ما فيها من منقول وثابت, حتى الأخشاب والبلاط والرخام والأسقف المزيكة والأعمدة السماقية بإيوان القلعة, ومجموعة المصاحف والمخطوطات والمشاكى والكراسى النحاسية والمشربيات والشمعدانات والمقابر..»

العصر المسيحى ـ القبطى

١ ـ ثم ينتقل «سندباد مصرى» لرفع الستار عن المرحلة القبطية, أو كما يقول الدكتور رأفت عبد الحميد, عميد كلية الآداب بجامعة عين شمس, فى كتابه القيم «الفكر المصرى فى العصر المسيحى» إنه «العصر المسيحى» وليس القبطى ـ ما دام كلمة «القبطى» هى التعبير المكتوب لتسمية المصرى. وهنا يقدم حسين فوزى فهما فريدا فى صفحات نيرة لما كانت عليه هذه المرحلة المغيبة ـ أو تكاد ـ من تاريخ مصر العريق.

٢ ـ تاريخ لا يعرفه إلا قلة من المصريين ـ وما أقل المصريين معرفة بتاريخهم! هو أن أجدادهم القبط تعذبوا واضطهدوا على يد حكام بيزنطة المسيحيين، أشد بكثير مما عرفوا من مهانة وتقتيل واستشهاد أيام الأباطرة الوثنيين ساويرس ودقيوس ودقلديانوس, لا لسبب إلا لأنهم حرصوا على عقيدتهم المسيحية, التى أقرها أعظم المجامع الكنسية, وأولاها بالاحترام, هو المجمع المسكونى الأول, المنعقد بمدينة نيقيا, فى آسيا الصغرى عام ٣٢٥ م.

... ولم تكن فى الحق مجرد «يوتا» أو مجرد خلاف فى العقيدة, بل كانت روح مقاومة وطنية أذكت أوارها المسيحية, وهى نفس الروح التى أملت على المصريين ترجمة الأناجيل إلى اللغة القبطية, وحافظت على لغة الآباء والأجداد, وهى اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية, مدى ألف عام بعد غزو الإسكندر, وألف عام بعد الفتح الإسلامى. هى هى التى قاومت الفكر الهلينستى, ومدرسة الإسكندرية القديمة, وأقامت لمعارضتها مدرسة الكاتشيس(الديد سقلية). روح المقاومة الوطنية هى التى حرمت على

مصر ورود منابع الحضارة الإغريقية, علما وفلسفة وأدبا. فإذا كان ثمن هذا فادحا, فإن معناه القومى لا يمكن أن يغيب عنا, وهو شدة مقاومة المصرى لغزاته, مقاومة روحية. وتتخذ المقاومة صورة جديدة, فى الحركة الدينية التى تعد من مآثر الكنيسة المصرية على العالم المسيحى : ألا وهى حركة الرهبنة والتبتل والانفراد للتعبد. ولم يكن الانفراد والتعبد جديدين على المصريين. فقد عرفوه فى عهد الأسرات, ونقله عنهم «الثرابيوتاى», الذى روى عنهم فيلون الإسكندرى أنهم كانوا رهطا من بنى إسرائيل هجروا متاع الدنيا, وخرجوا رجالا ونساء إلى الإسكندرية فى منطقة مريوط, يتأملون الإلهيات, ويقيمون الصلوات, ويسبحون بالمزامير والترانيم.

٣ ـ ولا أحسبنا نفهم الفتح العربى, إلا إذا عرفنا مقدمات الحوادث التى تحولت فيها مصر من الوثنية إلى المسيحية, وأهملت طريقة كتابة لغتها القديمة بالحروف الديموطيقية, والظروف التى عاشت فيها مصر المسيحية, يحكمها إمبراطور مسيحى فى بيزنطة, ويضطهد أهلها اضطهادا أنكى وأشد من اضطهاد الأباطرة الوثنيين. وعندئذ يمكن أن نفهم كيف انتقلت مصر من المسيحية إلى الإسلام, وكيف أهملت لغتها القديمة, لتتخذ من لسان العرب لغتها الوحيدة.

٤ ــ يتعين علينا أن نطالع خلال حوادث الألف عام التى انقضت بين غزو الإسكندر والفتح الإسلامى, حياة مصر الروحية, وحياة الشعب المصرى خلف ستار البطالسة, والأباطرة الرومانيين والبيزنطيين ؛ لأننا بدون فهم تلك الحياة لن نعرف من تاريخنا شيئا غير تاريخ مصر الإسلامية, فهو التاريخ الحى فى نفوسنا إلى اليوم.

لم تستطع كل تلك الأرزاء والإحن أن تقضى على القومية المصرية. وكلما زادت محنتهم, ازدادوا استمساكا بقوميتهم. وسوف يقدم لنا تاريخ المسيحية فى مصر أروع صور مقاومة المصريين للغرباء, وهى حقبة رهيبة رائعة فى وقت واحد.. وإنما هى رسالة حفظها لنا تاريخ المسيحية فى مصر, كتبها البابا أثناسيوس, بطريرك الكنيسة القبطية, يصف واقعة من الأحداث الكثيرة التى جرت فى عهد ولايته, كما حدثت من قبل ومن بعد. قال يصف محاصرة آلاف من الجنود البيزنطيين لكنيسة العذراء بالإسكندرية وقت الغروب :

أما أنا فجلست على الكرسى الخاص بى, وأوعزت إلى الشماس أن يتلو المزمور

السادس والثلاثين بعد المائة, وكان المصلون يرددون قائلين «هو الرحيم إلى أبد الآبدين» وحان وقت الانصراف, وكان الظلام قد بدأ يهوى على خارج الكنيسة, وشرع العسكر يطرقون أبوابها طرقا عميقا.. ثم فتحوا الأبواب عنوة, واقتحم الجيش الرومانى الكنيسة, ورجاله يزعقون كمن فتحوا مدينة حصينة.. وكانت سيوفهم تلمع فى ضوء أسرجة الكنيسة, واندفعوا كالسيل الجارف متجهين إلى حيث أجلس, فوقفت وأمرت الناس أن ينجوا بأنفسهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا, ولكن بعضهم حاول اعتراض الجند فى طريقهم إلىَّ, فذبحهم الجنود ذبحا, وداسوهم بأقدامهم, وتعقبوا الفارين منهم. وألح القساوسة علىَّ كى أنجو بنفسى فأبيت قائلا:

«ليست نفسى بأعز علىَّ من نفوس الآخرين», وكنت موقنا بأن ثباتى فى مكانى ـ أمام الساعين إلى حتفى ـ سيجعل الجنود ينصرفون إلى شخصى, ويتركون الآخرين, فعولت أن نبقى حتى ينجو الشعب.. ولما انصرف أكثر الناس, جاء الرهبان, مع من تخلفوا من القساوسة, وحملونى خارجا.

قيراط واحد للشعب

عبر هذا كله, يغوص حسين فوزى إلى أعماق خصوصية الشعب المصرى.. يقول مثلا:

١ ـ نرى المصريين عن بكرة أبيهم أحد اثنين: إما مسلم يحس إحساسا شديدا بالجامعة الإسلامية, بحكم اقتصار دراسته وفهمه على التاريخ الإسلامى, والدور الذى أداه الإسلام للحضارة, وإما مسلم ـ أو مسيحى ـ يشعر بجامعة اللغة والتراث الحضارى, وهى التى تجمع شمله بالشعوب التى تتكلم اللغة العربية.

٢ ـ «وعندما أستمع إلى حديث أوساط الناس فى أحيائنا الوطنية, أستعيد أيام طفولتى بينهم، فأفهم المعانى المستترة وراء لغتهم السمحة المهذبة, من أمثال «يفتح الله» ومعناها السعر الذى تعرضه غير مقبول, و«صلى عالنبى» أى فلنبدأ فى الفصال, و«على الطلاق» أى لا تصدق كلمة مما سأقول, و«يا فتاح يا عليم» أى أول القصيدة كفر, وبعدها وياك, وربنا يكفينا شرك, و«باسم الله» أى تفضل وشاركنى لقمتى التى لا تكاد تكفينى, ثم يتشجع عندما ترفض دعوته فيقول «حلفت عليك» ومعناها: أيها

الأريب لقد فهمتنى, و«توكل على الله» يعنى اغرب عن وجهى من غير مطرود و«دستور إيه يا عم الله يخليك» يعنى شبعنا من هذا الكلام وأمثاله.

هذه لغة شعب فيلسوف مسالم يتكلم «بالكتابة» وينادى على سلعته بصورة شعرية «ياللى طاب, وطلب الأكال, يا بيض اليمام, يا ناعم!», وبعض هذه النداءات قديم, وقد اكتشفت المناداة المعروفة على الكتاكيت: «ملاح الملاح».

٣ ـ «عثرت لك على حسبة بسيطة من صدر الدولة المملوكية فى عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين, فى أواخر القرن السابع الهجرى (٦٩٧ هـ) وتقول هذه الحسبة إن الروك الحسامى قسم مصر أربعة وعشرين قيراطا, أربعة للسلطان وعشرة للأمراء والإطلاقات, وعشرة للجند. هل تحسن الجمع؟ أظن أننا لا نخطئ فى الحاصل هنا, فهو أربعة وعشرون قيراطا.. أين منه نصيب الشعب المصري؟

احفظ هذه الحسبة البسيطة فإنها لم تجئ من برما, وإنما نقلها عن ابن إياس، ويمكن الاطمئنان إلى أنها طبقت على طول التاريخ المصرى, من عهد مينا حتى.. فلنقل حتى بيع أراضى الدائرة السنية فى أواخر القرن العشرين.

وقد تتغير أرقام المعادلة, يعدلها الولاة والملوك والسلاطين وقد يدخل فى الحسبة الباشا العثمانى, والباب العالى, والإستراتيجوسة.

الرومانى والخواجات وحدة الأراضى المقدسة وغلالها وديون الخديوى, ولكنها تظل معادلة صحيحة, طرفها الثانى لا يتغير, فهو هو أربعة وعشرون قيراطا. وتلك ميزة النظريات الرياضية الثابتة على مر الدهور: البساطة والدقة.

من كتاب الثورات

١ ـ «سوف يشرق فجر القومية المصرية فى سنة ١٩١٩, وحركة الشعب المصرى فى مارس من ذلك العام وما تلاه, جديرة بعناية المؤرخين؛ لأنها تميزت بكل صفات القومية الكاملة, لا أثر فيها للدين ولا للملة, ولا زيغ فيها نحو خلافة الباب العالى, أو نحو المحتل. ومع أنها كانت حركة تحرير من الرتبة الأجنبية, فقد حرصت على مقومات الحضارة الغربية ولم تنبذها, فالكل مصريون قبل كل شىء, يقاومون الغاصب, ويطلبون

لبلادهم الاستقلال السياسى والتحرر الاقتصادى والفكرى, أى أنهم يهاجمون الرجعية فى كل صورها».

٢ ــ «من كان يظن أن الشعب المصرى, الذى بدأ حركاته القومية بالنبابيت والمساوق وقراءة البخارى, يتولى أمر تحريره فى النهاية أبناؤه الأصالى من حملة السلاح, رجال المدافع والدبابات والطيارات والطرادات؟ ولكنه منطق التاريخ, الذى لا يحسب أعمار الأمم بالأيام ولا بالأشهر..»

إلى أن ينتزع سندباد مصرى الحقيقة من الأعماق:

«ليس أروع عندى من كلمة ذلك الباشا العثمانى فى آخر القرن الثامن عشر, ومصر فى حضيض من المهانة والذل والفقر والعذاب, وكان يستقبل مشايخ الأزهر, فيناقشهم ويباحثهم فى الرياضيات فيحجمون؛ لأنهم لا يعرفون هذه العلوم, فيتعجب الباشا ويقول مستنكرا: المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم».

معجزة هذا الشعب المصرى إذن ليست فى الحضارة التى وهبها للعالم فحسب, إنما أن يظل الشعب حيا متمكن الشخصية, لا يغنى فى غزاته ومستغليه, شعب زارع بناء صناع اليدين, صانع حضارة, سواء حكمه محب للعلم, ذواق للفن, أو مغامر, شعب يفرض الحضارة على حكامه فرضا...

قال صاحبى: «ورغم هذا كله, هل قرأت مقال المدعو «فريدمان» فى تجريح وتهديد مصر ورئيسها فى الأسبوع الثالث من شهر يوليو ٢٠٠٠, لعلك تذكر معى كيف أن أدعية الفكر والفكاكة السياسية ورئاسة المؤسسات والمراكز زحفوا أمام هذه الحثالة، وفتحوا له طريق مصر من أوسع الأبواب عندما جاءها رسولا لمباهج التبعية والعمالة.

أتساءل: أين هؤلاء العملاء الحضاريون اليوم؟ لا كلمة ولا مكلمة.. لا تفسير ولا مراجعة. لا نقد ذاتى ولا اعتذار ولا ندم.. لعلهم يستعدون للرحيل..»

ـ ٤٣ ـ

عبد الحميد يونس: تاريخ الشخصية المصرية

لا أظن أننا نحتاج إلى أى نوع من الكتب أكثر من حاجتنا إلى دراسات عن المجتمع المصرى، خاصة تلك التى تنتهى بإدخال أفكار وتعديلات جديدة على صورة «الشخصية المصرية» القابعة فى أذهان الناس. من أجل هذا رأيت أن أقدم اليوم عرضًا بكتاب الدكتور عبد الحميد يونس عن «مجتمعنا»؛ لأنه من الكتب الهامة التى ظهرت فى الفترة الأخيرة ولم تنل بعد الاهتمام اللازم من الرأى العام...

«إن المجتمع المصرى هو أقدم مجتمع متجانس عرفه التاريخ...» بهذه العبارة المركزية، يضع الدكتور عبد الحميد يونس الإطار لبحثه عن شخصيتنا القومية. وهى عبارة جديرة بأن نقف عندها لحظة، بل ولحظات خاصة، وقد انزوت هذه الحقيقة إلى حد ما بعد الحرب العالمية الثانية، بعد أن اتسعت قضيتنا الوطنية المصرية إلى المجال العربى كله.

معنى الشخصية

وعند المؤلف أن عملية اكتشاف الإنسان لشخصيته المفردة هى فى الواقع أهم شىء بالنسبة لوجود هذه الشخصية المفردة، لكنه يتعجب إذ يدرك أن «قليلا من الناس استطاعوا فى العصور القديمة أن يحققوا شخصيتهم، وأن يرتفعوا بكرامتهم الإنسانية فوق الضرورات...»

ويتساءل عن الأسباب، فيكاد يهتدى إليها، إذ يقول: «لم تكن الفردية طابع جميع الناس، ولكنها كانت طابع الأقلية، اكتسبها بعضهم بالرسالة التى طولب بأدائها، واكتسبها البعض الآخر عن ظروف اجتماعية أو اقتصادية خارجية، يسرت

عليهم مئونة العيش، وحررتهم من ربقة الحاجة، وأسر الضرورة وتسخير الغير...» أى بعبارة واضحة: ظلت شخصية الإنسان مغمورة وسط التقاليد والطقوس الجماعية فى المجتمعين العبودى والإقطاعى، ولم تظهر إلا فى القرن التاسع عشر، أى بعد الثورات البرجوازية الكبرى فى أوروبا. وشخصية الإنسان لا يمكن تحقيقها إلا إذ توفرت الأسباب المعيشية المادية أولاً وقبل كل شىء. ثم ينظر إلى مصر فيقول:

«ليس من الغلو أن نقول إننا فى مصر لم نصل إلى اكتشاف الشخصية الفردية التى تجعل كل واحد يستطيع أن يحقق ذاته. نعم، أفاد المثقفون من ذلك الكشف، وإذاعة الأحرار منهم، ونجح آحاد من المفكرين فى تطبيقه على ذواتهم، وبرزت بعض الشخصيات المنفردة فى الفكر والأدب والفن والدعوة إلى إصلاح الحياة، ولكنهم يعدون على الأصابع...»

والسبب فى ذلك ـ وفى ظواهر اجتماعية عديدة أخرى كالجريمة فى الريف مثلا ـ هو «انخفاض مستوى المعيشة انخفاضًا شديدًا، وهو انخفاض لم يكن له مثيل إلا فى البلاد التى بلغت من التخلف الاقتصادى درجة كبيرة جدًا».

اكتشاف الوطن

ويبدأ الدكتور يونس بحثه عن الشخصية المصرية بما يسميه (اكتشاف الوطن)، أى (اكتشاف مقومات الوطن المصرى من الناحية الطبيعية)، وهى عنده ثلاث:

(أ) أولى هذه الظواهر الكونية الكبيرة هى الشمس التى تكاد تبدو سافرة النهار بطوله على مدى العام... ومن هنا قدسها المصريون الأقدمون ولاحظوا دورتها، وقاسوا عليها فترات الزمن فى اليوم، نهاره وليله، وفتراته من السنة، فصولاً محددة... وقبسوا منها الوضوح، والبساطة وعدم التعقيد، والنظام والاستقرار، وأخذوا من دفئها ما يعمر قلوبهم بالحرارة، ثم جعلوا منها رمزًا للضمير أو العين التى ترقب أبدًا أفعال الناس. ولا يزال المصريون يتأثرون بهذه الظاهرة الكونية فى فطرتهم، وفى وجدانهم، وفى أخلاقهم... فى النقش على الكعك... وحين يلقى الصغار بأسنانهم فى عين الشموسة. وتقويمهم القديم لا تزال وظيفة حية فاعلة إلى الآن... لا يزال أدق فى الدلالة على الطبيعة المصرية..»

(ب) وثانية الظواهر الكونية الكبيرة هو الرمز الخالد على مصر، هذا النهر العبقرى الذى لا نظير له بين أنهار العالم جميعًا فى طوله، وانتظام فيضانه، واستقامة مجراه... والنيل هو الذى علم المصريين فلاحة الأرض، ونظمها لهم مواسم رى وبذر وحصاد، وعلى ضفافه نبتت آلة الحضارة الأولى وهى ورق البردى، وأقلام القصب، فكتب المصريون وسجلوا أعمالهم، فتواصلت المعرفة وانتظمت الحياة، وكانت خلة الاستمرار المتجددة أبدًا ميزة أخرى من ميزات النيل...

«وإلى جانب هذه السمة البارزة المكتسبة من النيل، سمة النزوع الأبدى الدائم إلى الاتحاد، نجد خصيصة أخرى لا تقل عنها خطرًا هى: أن اختيار النيل لمجراه بين هاتين الصحراوين العظيمتين الشاسعتين جعل المواطن المصرى يحتفظ بأهله، ويتثبت بهم، وجعل الجاذبية البشرية إلى الداخل، بعكس ما نراه عليه فى أقطار أخرى جاذبيتها البشرية إلى أطرافها، أو إلى خارج حدودها، وهذه الخصيصة ـ التمصير ـ دفعت بالعناصر التى تفد إلى الوطن المصرى أو تقدم عليه تنطبع ـ إذا استقرت ـ بالطابع المصرى...

(ج) وتأتى بعد النيل الظاهرة الكونية الثالثة التى شكلت الحياة فى مصر وجعلتها تميل إلى الاستقرار فى واديها الخصيب أزمانًا متطاولة، وإن لم تعزلها عن العالم حولها، وهذه الظاهرة هى الصحراء التى تمتد عن يمين النيل وشماله. هذه الظاهرة هى التى أسبغت على المواطن المصرى صفة المحافظة على التراث المادى الشاخص... وإليها يرجع الفضل فى الاحتفاظ بآثار الأقدمين... كما أنها وصلت بين مصر وبين الجماعات البشرية الأخرى فى الشمال الشرقى والشمال الغربى...»

واضح من هذا العرض السريع أن المؤلف يقف عند حد العوامل الجغرافية الطبيعية التى أحاطت بالمجتمع المصرى منذ أقدم العصور حتى اليوم؛ لأنه يرى فيها القاعدة الأساسية لتطور هذا المجتمع، والإطار العام لكل ما طرأ على الاقتصاد المصرى من تنويع وتفسير. ثم يمضى الدكتور يونس إلى دراسة أثر هذا الإطار العام على «وجدان الشعب».

سير الأبطال

وهنا يبرز دور «الشاعر الشعبى». إنه بحق وجدارة رمز القومية المصرية خلال الأجيال المتعاقبة التى حكمنا فيها الأتراك والإنجليز:

«وظهور الشاعر الشعبى، وازدهار صناعته فى مجتمع من المجتمعات يدل بجلاء من ناحية النفس الجماعية على يقظة الوجدان الشعبى... إن الشاعر الشعبى كان عالى الصوت فى المجتمع المصرى فى تلك القرون المتتالية، وإنه يظل يجوب المدن والقرى فى الأعياد والمواسم والحقول العامة بعد الاحتلال الإنجليزى الذى رآه الوجدان الشعبى المصرى امتدادا لحكم غير المصريين، أو بعبارة أخرى كانت مألوفة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، لحكم غير «أولاد العرب!».

ومن هنا كان اتجاه الفنان الشعبى والفن الشعبى كله إلى البطولة، لتأكيد الكيان المصرى والشخصية الجماعية المصرية فى وجه محاولات القضاء عليها أو طمسها على أحسن تقدير:

«لقد التمس الشعب المصرى عصر البطولة فى سير فرسان العرب، ولكنه أخذ هذه السير وعدل فى وظيفتها القبلية، وحولها إلى وظيفة قومية. لم يلق باله كثيرًا إلى إلى ما ذكرته تلك السير من أيام دفعت إليها هذه العصبية أو تلك، ولم يحتفل بما قيل من خلاف بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وانتخب من هؤلاء عنترة وبنى هلال، وانتخب من أولئك سيف بن ذى يزن، ثم أضاف من تاريخه الخاص سيرة الظاهر بيبرس الذى وقف فى وجه الصليبيين والتتار وأنقذ العالم العربى من الحشاشين المتهوسين، وغير من واقع التاريخ لكى يلائم بينه وبين واقعه النفسى، فبرأه من الرق ووصله بالأشراف، وربطه بالعرب...»

الخرافة والأساطير

ويرى الدكتور يونس أن أدب الشعب المصرى يمتاز أول ما يمتاز بالنزوع إلى الخرافة والأساطير، ويضع يده على مصدر هذه الظواهر بدقة وصراحة؛ إذ يقول:

«ولعل من الخير أن نقف عند شيوع عنصر الخرافة أو الخروج على المألوف فى صورة الأشخاص وأعمالهم، خروجًا يسلكها من الخوارق التى لا تساير القواميس الطبيعية. هذه الخرافة وتلك الخوارق ـ التى لا تخضع لأبعاد الزمان ومقاييس المكان وطاقة البشر ـ إن دلت على شىء فإنما تدل على أن وجدان الشعب ضاق بما يغل إرادته، فحاول أن يستعيض عنها فى أحلام يقظة بالقدرة المعجزة على طى الزمان

والمكان، وفتح المغاليق المرصودة، وحل الطلسمات المجهولة. كما أن تكرار مشاهد الترف والمبالغة فى تصوير الكنوز الظاهرة والمخبوءة، والتفنن فى وصف القصور الشاهقة والبساتين المزهرة المنسقة والجوارى الحسان والموائد المكتظة بشهى الطعام وصنوف الشراب، كل ذلك يشير إلى أن الشعب المصرى أراد أن يستعيض بهذا التخيل عن حاجته الملحة، وأن ينقذ فى الوقت نفسه احتكار القلة الحاكمة دونه بأطايب العيش ومناعم الحياة».

الحرمان من أسس الحياة المادية ـ إذن ـ هو مبعث نزعة الهروب إلى الأساطير والخرافات.

مثل الديمقراطية

ويقابل هذا الحرمان الأول حرمان من نوع ثان، ألا وهو الحرمان من الحرية من جراء الاحتلال الأجنبى والنظم الاستبدادية المتوالية. وقد أدى هذا الحرمان إلى بروز ظاهرة حب الديمقراطية فى أدبنا الشعبى المصرى. وفى هذا يقول الدكتور يونس:

«ونحن كلما تصفحنا جانبًا من الأدب الشعبى، صح عندنا أن وجدان الشعب كان متعلقًا بالمثل الديمقراطية فى الحكم، ولم يكن شيوع الملوك والأمراء فى هذا الأدب دليلاً على كمال ولائه لهم وتمام رضاه عنهم. فالطبقة الهندية فى كتاب «ألف ليلة وليلة» تخير منها الشعب المصرى ما يلائم فلسفته فى الحياة، فاحتفل فى التعقل فى العمل وفى السلوك، وبالأناة فى القول، وبعدم الشطط فى التصرف، والرغبة عن مطاوعة الهوى، وسرة الغضب، ونزق اللحظة، واهتم بالجانب الديمقراطى ممثلاً فى كل كلمة الناصح للملك، أو مجسمًا فى رقابة الببغاء على سيدتها، وما إلى هذا السبيل. وأما الملاحم الشعبية التى تحكى الوجدان المصرى حكاية مباشرة، فإن الديمقراطية فيها أظهر؛ لأن الفرسان من صميم العربية، وهم يقومون منها مقام الأب والأخ الأكبر فى الأسرة. وشخصياتهم حولها الوجدان المصرى إلى شخصيات قومية تحتل كل واحدة جانبًا من جوانب الحياة العامة كالسلطان حسن فى سيرة بنى هلال مثلاً، أصبح رئيسًا للجماعة يصور فضائلها، ويبرز مثلها وتتخذ فيها سمتها التى تحب، فهو الذى يمسك بين يديه عصا التوازن فى الجماعة، وهو يعطى ولا يأخذ ولا يأنف من المشورة، ولا

يتحرج من طلب النصيحة، وهو الشاعر القومى أيضًا. وتحول أبو زيد من فارس فى قبيلة إلى قائد جيش يقوم على التعبئة والتحصين ودراسة المسالح والمعاقل والتأهب لملاقاة أى مهاجم، واختبار قوة العدو والتسرب فى صفوفه. وإذا تحولنا إلى السيرة الثانية التى تحكى وجدان الشعب المصرى حكاية تفصيلية مباشرة أيضًا ـ وهى سيرة الظاهر بيبرس ـ فإننا نجد العنصر الديمقراطى ظاهرًا لا خفاء فيه يلمحه المرء فى جميع العناصر وجميع الطبقات، فالرياسة لن تكون بالوراثة كمناصب أشياخ القبيلة فى المجتمع البدوى، وكمناصب العمد وشيوخ البلد فى المجتمع الحضرى إلى عهد قريب، ولكنها كانت ثمرة التفانى فى الخدمة العامة، والتبريز فى الدفاع عن مصالح المجموع، والانتصار فى مدافعة العدو. وكانت طريقة الوصول إليها مستخلصة من أبرز عمل يقوم به الأفراد فى الجماعة، فهى عند الفرسان التفوق فى الفروسية، وهذا التفوق يحصله أصحابه بالتطبيق العملى فى مجال علنى ترقبه الجماعة وتشهد عليه. وهى عند غير الفرسان التبريز فى أمجد ما يصبو الأفراد إليه من جهد فى نظر الجماعة. ولم يكن الوقوف فى وجه العدو حظا مقسومًا على فريق من المجتمع دون فريق، ولكنه كان فرض عين على جميع الأفراد القادرين بلا استثناء...»

مغزى النكتة المصرية

ويمضى الدكتور يونس فى تحليله للشخصية المصرية حتى يهتدى إلى مغزى النكتة المصرية من الناحية الاجتماعية، ويرى فيها مخرجًا من أزمة الحياة القائمة التى عاشها الشعب المصرى على مر الأجيال. يقول الدكتور يونس:

(أ) «الوجدان الشعبى فى صدق إحساسه بواقعه، وإدراكه لبعض عيوبه يجعله نزاعًا إلى الإصلاح، راغبًا فى التطوير، متمثلاً لكماله الممكن، منفسا عن ضيقه ببعض ظروفه، ومتخلصًا من بعض همومه أيضًا، حتى يستطيع أن يمضى إلى طيته مجدد العزم، حر الإرادة. وأعانه على هذه السليقة الناقدة فيه قدرته البارعة على أن يفصل بين نفسه المتألمة أو المنزعجة أو الساخطة وبين الظروف والمشاهد التى أدت إلى ألمه وانزعاجه وسخطه، بهذه الوسيلة يحول الوجدان مأساته إلى ملهاة، يستعلى عليها، ولا يمل من التأمل فيها، ثم يأخذ بعد هذا كله فى السخرية منها والتهكم عليها. ونحن

نرى مصداق ذلك لا فى الملاحم فحسب، ولكننا نراه فى شخصية «جحا» التى أصبحت على الأيام رمزًا مصريًّا...»

(ب) «إن تطاول المحن على الشعب ومحاولاته الكثيرة فى التخلص منها كانت تسلمه فى بعض الأحيان إلى محن أخرى ومحاولات أخرى، فوقع فى وجدانه أيام احتكر القلة رزقه، وأيام اغتصب الأجانب الوافدون أرضه، وأيام سخره أولئك وهؤلاء تسخيرهم لرقيق الأرض يعيش على الكفاف، ويرى نفسه الجامعة، وآحاده المفرقة تكاد لا تعى وجودها ولا تشعر بحياتها، وإنما تمتد فى الزمان وتتحرك فى المكان بلا غاية ولا قيمة وبلا فائدة، نعم: وقع فى وجدانه ما يشبه اليأس. فضعف إيمانه بالعقل، واطمأن إلى المصادفة، واحتقر المنطق، واستخف بالمقدمات والنتائج، واستهان بالعلل، وأصبح أدنى إلى إلغاء إرادته، والاطمئنان إلى القدر الذى يتصرف فيه، وإلى الاعتقاد بالخط المكتوب على جبينه، والركون إلى المقسوم...»

(ج) «والنماذج البشرية التى تجسم الخصال القومية والإقليمية هى التى تؤلف النكتة المصرية، إلى جانب الخروج على منطق العقل، وإلى جانب المماثلة والمشاكلة والمقابلة فى الألفاظ والمعانى. فأنت تجد النموذج المصرى العام يجمع بين الفضائل التى يحبها الوجدان المصرى فى ذاته، والعيوب التى ينزع جاهدًا إلى التخلص منها. وهذا التصوير على تعميمه يقترب من الواقعية. فهو ذكى الفؤاد يفهم الشاردة والواردة والسائحة، ولا يحتاج حتى إلى مجرد الإشارة. وهو كريم يعطى ولو كان مفتقرًا إلى ما يعطيه. وهو ودود يحب الناس. وهو صاحب مروءة وشهامة ونجدة. وهذه فضال يمجدها فى نفسه. ولكنه لا ينسى أنه كثيرًا ما يطيع عاطفته وهواه، وأنه متلاف يذهب بالحادث والتليد، وأنه يحتفل باللحظة التى هو فيها، لا يفكر أبدًا فى اللحظة التى تعقبها، وأنه يعيش ليومه ولا يذكر غده...»

(د) وأدت هذه الخصلة فى الاستعلاء على الحياة، ومحاولة الخروج من إطارها، والاكتفاء بالتفرج عليها، والاستخفاف بقيمة العقل، والكلف بالنقد الساخر المتهكم، إلى أن يغلب الحزن على الوجدان الشعبى. فهو الذى يطبع جميع أغانية ومواويله بطابعه، وهو الذى أدى إلى هذه الصرخات والأنات والتأوهات التى تزدحم بها هذه الأغانى وتلك المواويل، ولكنه جزء مهم غير واضح، ومجمل غير مفصل...»

وهناك فصول ممتعة حقًّا عن (لغتنا القومية) و(العادات والتقاليد) و(الجلباب الأزرق) الذى فرضه الاستعمار على الفلاح لعزله عن المدنية والحياة الحضرية المعاصرة ــ «الفلاح لم يعد يستجيب لأغراض الحماسة لطول ما تعرض له من ظلم» ــ و«أسوار المدينة» فى ظل «الثورة الصناعية».

فى كل فصل ملاحظات قيمة، وأحيانًا أفكار عميقة، بل وجديدة، لا أستطيع أن أعرض لها كلها فى حيز هذا المقال بطبيعة الحال. ولكننى أود أن أشير إلى ظاهرة هامة فى هذا الكتاب. ذلك أن المؤلف ــ وهو من أساتذة جامعاتنا الذين نشئوا على حب التراث والميل إلى المحافظة فى الرأى الاجتماعى والسياسى ــ درس الشخصية المصرية على أساس الواقع ـ دون الأفكار السابقة ـ فاهتدى فى أحيان كثيرة إلى التفسير العلمى الصحيح، كما حاولت أن أبرزه فى هذه الصفحة.

ألا يجدر بنا ـ والأمر على هذا النحو ــ أن نضاعف من اهتمامنا بإنتاج أساتذتنا وعلمائنا المصريين المخلصين لرسالة العلم، الدائبين على العمل من أجل ثقافتنا الوطنية؟

ـ ٤٤ ـ

شهدى عطية الشافعى: فى أصول المسيرة الطويلة ...

يحتفل قلب مصر ووجدانها وعقلها وفكرها وإرادتها بالذكرى الثلاثين لاستشهاد شهدى عطية الشافعى، الذى كان للحركة الوطنية التقدمية جمعاء الرائد والأستاذ العلم، الوجه المضىء، جامع الشمل، موحد الصفوف، الساعد الأول والأقوى فى بناء الجبهة الوطنية المتحدة منذ فجر الأربعينيات حتى يوم رحيله الدامى.

الآثار المكتوبة ـ أو على الأقل المنشورة بشكل مبتور من جراء الرقابة السياسية آنذاك ـ قليلة، وإن كانت بالغة الأثر تاريخيًّا فى مسار مصر المعاصرة. الأوراق المتناثرة نادرة. أما الذكريات، ذكريات جيل الأربعينيات والخمسينيات وحتى مطلع الستينيات، فهى عارمة تكاد تحاصر، تكاد تخترق حصار الحنين المأساوى لرجل حفر، بأنيابه فى قلوب كل من قاده وعلّمه، فى طريق التحرر والديمقراطية والتقدم. ورغم هذا، فقد شاهدنا فى العديد من الأحيان، وبشكل متصل متعاقب يزداد بين الحين والحين أهمية، جماعات واسعة من الأجيال الشابة تلتف حول ذكراه وفكره، تتساءل: أين هو؟ كيف استطاع أن يؤثر ويوجه بهذا العمق وهذه الأصالة؟ ثم: ما العمل؟ الرجل رائد لا يزال. وفكره موجه لا يزال. ومسيرته مثل أعلى لا يزال، رغم الظلمات، والندرة، والغياب. وكأنه بحق رائد الجيل المغيب الذى لم يغب. وكأنه حقًّا الوجه المشرق للإشراقة التى لم تتحقق، وإنما تناثرت بذورها هنا وهناك فأحيت زهورًا متفرقة تمثل بحق إيجابية مرحلة ١٩٤٠ ـ ١٩٧٣ على أرفع مستوى وأنصع صورة.

فكيف يمكن أن يكون إذن المدخل إلى إدراك هذا الأثر الهائل، لحياة ومسيرة واستشهاد هز أرجاء مصر والعالم العربى والعالم الاشتراكى والرأى العام العالمى؟

نقطة البداية، وهى الركيزة لكل ما أنجزه شهدى رائدًا ومعلمًا وقائدًا، ألا وهو

حب الوطن، نقطة البداية فى انتقاله من بعثة إنجلترا بجامعة إكسترا عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ على آخر مركب أقلته إلى مصر، بعد إعلان الحرب، بغية ألا يفارق شعبه فيما استشعر أنه سوف يكون موعدًا مع القدر، حركة تحريرية ثورية تطيح بكابوس الاستعمار البريطانى المسلح، والرجعية المتآمرة معه، فى طريق إقامة نظام وطنى ديمقراطى يفتح الطريق أمام الثورة الاجتماعية صوب الاشتراكية.

حب الوطن الذى وجه خطاه معه صفوة من أنبغ طلائع شباب مصر المثقف، والعامل فى مطلع الأربعينيات إلى إدراك أنه لا بد من تعبئة هذه الصفوة، انطلاقًا من حب الوطن، بهدف تكوين كوادر مصر الغد، فى الوقت الذى لم تكن فيه هناك مدارس كادر فى الأحزاب القائمة، والذى لم تسع فيه المؤسسات الحكومية والرسمية المزدهرة آنذاك، حول جامعة فؤاد الأول وبوتقة الجمعيات العلمية المنتعشة، حولها إلى هذا المنحنى. من هنا كانت فكرة تأسيس «دار الأبحاث العلمية» التى انطلقت منذ ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ بقيادته، وأصبحت ـ فى سنوات قلائل ـ مدرسة كادر سياسية وفكرية وعلمية وتنظيمية وإنسانية على أرفع مستوى مصرى وعالمى، ومن حولها كوكبة النوادى والهيئات السياسية والثقافية: «لجنة نشر الثقافة الحديثة»، مجلة «الفجر الجديد»، مجلة «أم درمان»، وما واكبها فى شبيبة الوفد. كانت الركيزة التكوينية التى سعت إلى تنقيب آفاق المستقبل الممكن، فكانت ملتقى للجيل القديم من رجال السياسة الوطنية والتقدمية فى مصر، من عصام الدين حنفى ناصف إلى الدكتور محمد مندور، من إسماعيل الأزهرى إلى عزيز فهمى، من سلامة موسى إلى العديد من وجوه التنظيمات الثورية المواكبة للحركة التقدمية المصرية، بحيث تدفقت هذه الكوادر ـ منطلقة من هذه القاعدة ـ إلى إرساء دعائم الجبهة الوطنية المتحدة على شكل اللجنة الوطنية للعمال والطلبة عام ١٩٤٦.

لم تكن هذه اللجنة تجميعًا للشيوعيين ومن صاحبهم، بل كانت ـ ولأول مرة فى تاريخ مصر ـ لجنة منتخبة انتخابًا ديمقراطيًّا على المستوى المصرى: فالمندوبون جميعهم منتخبون من كافة مستويات اتحادات الجامعات، وطلاب المدارس الثانوية والفنية، وكذا من جميع نقابات مصر على تنوع وجهاتها وقطاعاتها، بحيث جاءت «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» بلجنة منتخبة على المستوى الوطنى بحق وجدارة، بها أقلية

من الشيوعيين الرواد وأغلبية من زملائهم الوطنيين المنتخبين بانتخاب حر على كافة المستويات وفى جميع القطاعات، عالم العمال والعلم على أرض مصر المحتلة، كان لا بد لهذه اللجنة من فكر وبرنامج. كان لا بد لها من مشروع وطنى يؤلف بين مكوناتها المختلفة، ويجمع بين أحلامها، وطموحاتها وتوجهاتها المتباينة، وكذا برامجها السياسية على تنوعها. ومن هنا جاء كتاب «أهدافنا الوطنية» فى ربيع ١٩٤٦ صادرًا عن «دار الأبحاث العلمية» بقلم شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى، الوجهين القياديين للدار آنذاك، باسمهما، واسم لجنة الإدارة المنتخبة التى كانت تتولى توجية «دار الأبحاث العلمية».

وسرعان ما أصبحت صفحات وأفكار ورسائل وتوجهات أهدافنا الوطنية هى المشروع الوطنى الذى تبنته «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» بوضوح الرؤية، وعمق فهم العروة الوثقى التى تجمع بين ضرورة التحرر الوطنى، والتعديل الجذرى لأركان وتوجهات الحياة الاقتصادية، وكذا النظام المجتمعى، وأهمية إقامة ثقافة وطنية مصرية تقدمية تجمع بين أصالة مصر السبع ألفية ومعانى الفكر العلمى والعقلانية، وتدخل العالم المعاصر الذى بدأ يتشكل بعد انتصار القوى الاستقلالية والاشتراكية فى الحرب العالمية عام ١٩٤٥.

وكان طبيعيًا أن يتجه شهدى بعد الحملة التى وجهها إسماعيل صدقى باشا يوم ١٠ يوليو ١٩٤٦ ضد الحركة الشيوعية الوطنية الديمقراطية إلى تعميق الطرح الوطنى لكافة القضايا والتحركات، وقد أصبح دون منازع الوجه العلم لثورة مصر المتصاعدة. ومن هنا كان نضاله من أجل تحقيق مصر لحركة الشيوعية والتقدمية المصرية، وتوكيد كافة أركان الوطنية بها، وربطها على أوسع مدى بقواعد التنظيمات الوطنية الكبرى المواكبة لها، على تبيانها، وفى مقدمتها شباب الوفد، والقطاعات الثائرة فى قواتنا المسلحة، ومن بينهم نواة «الضباط الأحرار»، وكذا الجماهير الشعبية الملتفة حول الإخوان المسلمين من منطلق وطنى حضارى.

تاريخ شهدى فى هذه السنوات كان بحق تاريخ مصر. وكل من سعى إلى تأريخ الحركة السياسية وكذا الحركة الوطنية على وجه التحديد فى مصر المعاصرة، يلقى شهدى صفحة بعد صفحة حيًا رائدًا فى كافة أرجائها لحركاتها وطموحاتها، قائدًا فاتحًا

لجميع رياداتها، وكأنه حقًّا على موعد مع القدر، قدر مصر التى بدأت تدخل عصر الثورات والثورات المضادة للحروب، وقدره هو ورفاقه المأساوى. لن نسهب هنا: فالكتب والمؤلفات والرسائل الجامعة والدراسات والمقالات تتزاحم بالمئات اليوم، ومن خلف الزوايا، وهى تؤكد هذا المعنى بصدق، وتدعمه بالمستندات والرؤى التحليلية المتنوعة التى ربما لم تكن كلها واردة لدى العاملين حول شهدى ذاك فى خضم المعارك الثورية المتأججة، وقد بدأت رياح القمع تزداد شراسة، مما أودى به إلى سنوات طويلة قاسية من الأشغال الشاقة فى ليمان طره، وظلت تلاحقه خلال سنوات الحرية المحاصرة المحدودة، حتى جاء موعد المذبحة فى ١٦ يونيو ١٩٦٠.

من حب الوطن، والانتماء المصيرى لشعب مصر على أوسع مدى جاءت الفكرة المحورية، التركة التاريخية حقيقة لشهدى عطية الشافعى إلى حركتنا الوطنية المصرية، وفى قلبها الحركة التقدمية بكافة فصائلها. كان لا بد من تعبئة جماهير شعب مصر العامل أولاً، وكذا مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية الوطنية إلى أوسع مدى، باستثناء الأقلية المتعاونة تعاونًا عضويًّا مصيريًّا مع الاستعمار آنذاك. كان لا بد من هذه التعبئة لسبب واضح بسيط كان يسهب فى التدليل عليه ويؤكد مركزيته فى كل تحرك وطنى جاد، ألا وهو أن الوطن المقهور، المحتل، المحاصر لا بد له أن يتخطى كافة عوامل التفرقة الداخلية، ويزيلها بوعى وصبر ومثابرة، بحيث يستطيع حقيقة أن يحدث تعبئة وطنية شاملة أو تكاد. فالتعبئة الوطنية الشاملة ـ وحدها ـ هى التى يمكن أن تمكن مصر من الحصول على أكبر قدر من الذكاء الاجتماعى والسياسى، والإمكانات المادية والمعنوية، وكذا ثراء تنوع الرؤى التى تصب فى قنوات الحركة التحريرية والوطنية الديمقراطية. ليس لنا أن نقيم الحواجز بين الطروح المتنوعة، ليس من شأننا أن نتصومع فى دوائر مغلقة متنافرة تندد ببعضها بعضًا، ليست رسالتنا أن نقبل العديد من الأفكار المتداولة فى المجال السياسى التقليدى القائم على أساس رفض الحوار الخصب مع مختلف التشكيلات والفصائل والمدارس الفكرية المنطلقة أيضًا من حب الوطن، والمتجهة إلى تحقيق أهدافنا الوطنية عبر مسالك ودروب مغايرة، متباينة، وأحيانًا فى نواح معينة مضادة لتوجهات الحركة التقدمية.

بل وعلى العكس تمامًا: فإن رسالة الحركة التقدمية، والشيوعيين المصريين لا بد وأن

تكون دومًا آخذة على عاتقها تخطى هذه العقبات، وإزالة الجدران الاصطناعية، وبناء جسور الحوار والتفاهم والعمل المشترك البناء تدريجيًا، ولو فى حدود، إيمانًا منها بأن الاحتلال والحصار والانكسار يقتضى باستمرار توسيع الرقعة الداخلية انطلاقًا من حب مصر ووحدة مصر وأولوية مصر فى اهتمام كافة مدارس الفكر، والعمل من أجلها.

رهان بالغ الأهمية، بالغ الدقة. رهان عبقرى على إيمانية الشعب المصرى بمصريته ووطنيته ووحدته وأولويته بالنسبة لكافة الطروح الأخرى، فى مواجهة الاستعمار العالمى والرجعية، وفوق هذا وذاك فى مواجهة الصهيونية التى ظهرت فى أفقنا حول قرار التقسيم الصادر من الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧، وكان شهدى على رأس القطاع الأوسع من الحركة الشيوعية والتقدمية المصرية الذى رفض رفضًا قاطعًا هذا القرار، واعتبر أن أهدافنا الوطنية تقتضى أولاً وقبل كل شىء حماية دائرة أمتنا العربية، وكذا حدود مصر الشمالية الشرقية من هذا الخطر الجديد، وقد أدرك هو وصحبه آنذاك أن هذه القلعة الصهيونية سوف تكون ترسانة النفاذ إلى قلب مصر والعالم العربى للتفرقة والدمار بالسيف والنفاق والتسلط والإغراء الزائف.

وقد اتخذ هذا التوجه المركزى الذى صاغه شهدى وقاد التحرك لإنجازه، صورة شعار «الجبهة الوطنية المتحدة» وهو صلب كتابه الوحيد المنشور بشكل مبتور للغاية (فقد شطبت الرقابة السياسية ٨٢ صفحة من الكتاب...): «تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ ـ ١٩٤٦».

إن مفهوم اللجنة الوطنية المتحدة الذى طرحه شهدى رائدًا وقائدًا آنذاك كان حقيقة بمثابة الخط العام التاريخى للحركة التقدمية والشيوعية المصرية عبر تاريخها المشرق والمأساوى، ورغم ما أصابها من تفرقة وتراجع بل وتردٍّ، وهى فى كل مرة تتخطى وتواصل وتضبط المسار متمسكة ـ دومًا ـ بهذا الطرح الواسع الذى جعل لها حقيقة تأثيرًا ونفوذًا أوسع بكثير من حجمها الفعلى لدى الجماهير الشعبية والطبقات والفئات والتنظيمات الوطنية من أوسع الأبواب.

وهنا لا بد أن نلحظ أن الفارق شاسع بين الخط العام التاريخى لأية حركة سياسية، أى لأى مدرسة فكر وعمل متأصل على أرض الوطن وفى قلوب أبنائه والجماهير

الواسعة، وبين الإستراتيجية والتكتيك التى تندرج من هذا الخط العام ساعية إلى تحديد الأهداف المرحلية، وكذا وسائل التنفيذ والتحرك على تنوعها.

شهدى عطية الشافعى رجل صياغة الخط العام التاريخى. منه ـ من هذا الخط ـ تحركت الحركة التقدمية والشيوعية المصرية فى قلب حركتنا الوطنية دون كلل، بحيث اعتبرها الكثير تاجًا على رأس هذه الحركة، ورمزًا باهرًا لها، رغم ما أصابها فى الكثير من الأحيان من انزواء واضمحلال وذبول.

ذلك أن الإنجازات الواقعية، بل وكذا الإستراتيجية والتكتيكية قد تصيبها الضربات والخلل، وكذا وبطبيعة الأمر الانحراف أو الانزواء، أما الخط العام التاريخى فهو الخيط الموجه لاستمرار المسيرة الطويلة بالمرحلة التاريخية كلها، مرحلة التحرر من الإمبريالية والصهيونية، التبعية والتردى المجتمعى والثقافى والحضارى.

الخط العام التاريخى لا ينكسر.

دروس من الذكريات، وإن كنا لسنا فى مقام الذكريات أو المذكرات.

كيف استطاع شهدى أن يجمِّع، ويوحد؟ كيف استطاع أن يغزو القلوب، ويقنع الخصوم؟ كيف استطاع أن يظل حيًا عبر التعذيب والاستشهاد؟ وفى كلمة: كيف كانت مداخل شهدى عطية الشافعى إلى الألباب المصرية؟

نقطة البدء ـ مرة أخرى ـ كانت دومًا حب الوطن والانتماء العميق إلى شعب مصر. المفاتيح، المداخل، الأسلوب. من أرض مصر ووجدان شعبها. الذكاء اللماح والنظرة البصيرة المدققة. وزن الأمور بميزان العقل والوجدان معًا. الاتجاه الدائب والمستمر إلى التأليف بين القلوب، والتغلب على عوامل التفرقة، والإنصات بإمعان إلى كل ما ينير طريق التغلب على العراقيل الاصطناعية. كان شهدى حقيقة، وبكل معانى الكلمة، رجل الألفية، رجل التجميع، رجل الحب الصادق، رجل الوفاء حتى آخر لحظة من لحظاته، ولا أظن أن هناك شخصًا واحدًا ممن التف حوله أو التقى به ولو مصادفة إلا ويشهد على صحة هذا الكلام.

صفة ثانية تعلمها شهدى من شعب مصر العامل، من ريف مصر ومصانعها ومدارسها، ألا وهى العمل الدائب، يكاد يكون ليل نهار، الجمع بين القراءة والدراسة

والكتابة، ثم العمل التنظيمى، بشكل أصبح أسلوبًا جديدًا حقيقة فى عالم السياسة: ـ فالسياسى لم يعد كما كنا نتصوره، رجل التخطيط والمناورة، ثم القيادة الجماهيرية أو الحزبية، ولكنه كان ـ وفى المقام الأول ـ رجلاً يتعلم من الشعب، يقضى بينه ـ كما فعل شهدى ـ ساعات كل يوم دون انقطاع فى الأحياء الشعبية يستمع، ينصت، يتناقش، يتندر، يتعلم، ثم يعود بحصيلة وكأنها حقيبة جحا السياسية الوطنية نستمع إليها بانبهار، ثم ننطلق بأمر منه نسعى إلى هذا الشعب العبقرى العظيم، المعلم، العالم بأمور الدنيا والآخرة، وريث التركة الحضارية السبع ألفية، رجل العبور عبر أطول تاريخ عرفته حضارة فى عالمنا المعمور.

يتعلم منه، ثم ينكب ـ وأكاد أقول بشراسة ـ على الكتب، والمراجع الرئيسية، الكتب السياسية، الكتابات الجديدة التى كانت تدخل مصر بندرة، ثم بغزارة فى مرحلة ما بعد الحرب الأخيرة، الكتابات المصرية، العربية، الأوروبية، وكذا الشرقية، وعلى وجه التحديد كتابات الصين والهند وكانتا فى ثورتين متباينتين ـ المسيرة الطويلة من ناحية، وتحرك حزب المؤتمر الهندى، ماو تسى تونج وصحبه فى مقابل غاندى وأتباعه ـ يقرأ بشغف وولع وكأنه مدرك أن الأيام معدودة، وكأنه مدرك ـ فوق هذا أو ذاك ـ أن العمل السياسى بالمعنى «التقليدى» لا جدوى منه لمواجهة التحدى الحضارى الخانق الذى كان يحيط بمصر.

وعنده أن القائد السياسى، والكادر السياسى، وكل عضو يتصدى لخدمة الوطن وشعب مصر، لا بد وأن يكون حقيقة ذاك الفيلسوف ـ فى المدينة ـ الذى نادى به أفلاطون وأبو نصر الفارابى، وألا يولى أدنى اعتبار للتفرقة بين الفكر والعمل، بين النظرية والنشاط، بين العلم والإنجاز.

ومن هنا كان توجه «دار الأبحاث العلمية» على وجه التحديد، وكذا النوادى والمجلات المواكبة لها، إلى اكتساب صفوة طلائع طلاب الجامعات وشباب القادة النقابيين والكتاب والفنانين والصحفيين، إدراكًا من شهدى أنه ـ لولاهم ـ لا تستطيع الحركة التقدمية أن تقود الحركة الوطنية إلى طريق التحرر وبناء المجتمع البديل ودولته الوطنية الديمقراطية بمعنى الكلمة.

فيلسوف فى المدينة، فيلسوف من صفوف الشعب. فيلسوف يجمع بين العالم

الخارجى وأرض الوطن. فيلسوف يتصف بعمق التواضع الذهنى والمعنوى والأخلاقى، والاعتزاز الشديد بالكرامة، الأصالة ومعانى القيادة والتزاماتها.

ومن هنا، من تلاقى هذه الروافد الثلاثة لمسيرة شهدى عطية الشافعى، من هنا كان مغزاه التاريخى. لم يكن الرائد العلم الذى أضاء طريق مصر فى مرحلة الإعداد للثورة التحريرية تخطيط مسار مصر الجديدة ـ فى بداية مرحلة تغيير العالم ـ مصادفة أو اجتهادًا. لم يفرض نفسه. بل فرضته مقتضيات الظروف التاريخية التى كانت تسعى إلى إيجاد مثل هذا الوجه لتفرد حقيقة فى مجالات السياسة والفلسفة للقيادة الجماهيرية، كذا ـ وكيف لا ـ من حيث عمق الإدراك لمعانى الوجدان الإنسانى، الإخاء والوفاء والولاء والمحبة.

كلمات قلائل حول العمل الشامخ الذى قاده شهدى عطية الشافعى، علمًا فى طلائع صفوف ثورتنا المصرية، والحركة التقدمية العالمية.

لم يرفرف. لم ينكسر. يزداد إشراقًا يومًا بعد يوم. سلامًا عليه سلامًا بين الشهداء، ناصعًا فى تاريخ مصر وشعوب الشرق الناهضة، فى مرحلة تغيير العالم وتشكيل العالم الجديد. وسلامًا عليه بين الشهداء فى عالم الخلود إلى جوار ربه، وفى قلوب شعبه وأمته.

ـ ٤٥ ـ

لطيفة: فى سماء مصر!

إن كان العزاء والنعى والمواساة من مقام الطقوس الإنسانية والاجتماعية، فإن رحيل لطيفة الزيات إلى سماء مصر، وفى هذه الظروف السوداء فجر فى العقل والوجدان، فى فؤاد كل مصرى ومصرية وعربى شيئًا قيل لنا المرة تلو المرة أنه غاب إلى غير رجعة، بحيث يجب أن نكتفى بما هو ممكن، ونرضى بالأوضاع المفروضة ونقلص دائرة الرؤية والخيال والأمل المصرى إلى غير رجعة.

الغريب المفاجئ أن كتابات القسط الأعظم ممن لم يعرفوها فى شبابها، بل ولم يسمعوا عنها إلا مؤخرًا عندما عادت أسماء مصر العزيزة تدريجيًا إلى الساحة. الغريب المفاجئ أن الكل شاء أن يركز على لطيفة بوصفها رائدة للحركة الوطنية وعلمًا لطلائعها على رأس «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» التى سطعت فى أرض مصر شهورًا قلائل عام ١٩٤٦، بل والتى عادت إلى الوجود ـ فجأة ـ ظاهرة محورية فى تاريخ حركتنا الوطنية وأمتنا المصرية العربية بفضل رحيل من أنارت وأشرقت تحرك مصر فى المرحلة التى انطلق فيها هذا التحرك وهز أركان الإمبريالية (أى النظام العالمى التقليدى) وشق الطريق إلى عالم جديد ممكن.

المفاجأة حقيقة أن أستاذة الأدب المرموقة رئيس قسم الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة والروائية النابغة والإنسانة التى عاشت رحلة محاصرة المرأة المصرية وكسرها لهذا الانتشار حتى التحرر المتحضر، كما تشهد على ذلك «الباب المفتوح».. «الشيخوخة» «الرجل الذى عرف تهمته». من الغريب أن كل هذه النواحى الشخصية أو على حد أسلوب تلاعبها الباسم بالكلمات.. كل هذه «اللطيفات» انزوت لتفسح المجال المشرق واسعًا لمكانة لطيفة الزيات الحيوية فى قلب حركتنا الوطنية، وثورتنا

المصرية أيام كان يمكن يبدو بعيدًا محالاً، وعزمت هذه الحركة وتلك الثورة على جعل الممكن ممكنا.

كيف يمكن، ما ترى تفسير هذا الأمر؟

من أين لأبعد القوم من مجال السياسة والثورة هذا الحميم إلى شيء لم يرد إلى بالهم فى ظاهر الأمر؟

ماذا تعنى ظاهرة لطيفة الزيات؟

فى ظاهر الأمر لا يمكن تفسير الظاهرة ـ إن جاز التعبير ـ دون التلاعب بالألفاظ.

نعيش فى نعيم القرن الكوكبية والعولمة المطمئنة والخصخصة بعيدًا عن السد العالى وهمومه، وحتى مصدر المتعة على الساحل الشمالى وكل سواحل مصر، وعلى حدودنا السلاح النووى الإستراتيجى يهدد كل خطى، ويحاصر أى تحرك للدولة والشعب معًا، ويهز من تخاذل منطقة الاستسلام.

جو رطب جو اللامعقول..

وعلى الضفة الأخرى، ضفة لطيفة الزيات وزملائها وقفت مصر وشعبها ومنذ خمسين عامًا على وجه التحديد ـ أى فى ربيع ١٩٤٦ ـ تنادى اللجنة الوطنية للعمال والطلبة جماهير الشباب للتحرك فى مظاهرة كبرى لإعلان نهاية عهد الاحتلال، طلاب جامعة فؤاد الأول بالجيزة متجهون إلى قلب المدينة، حيث بدأ مئات الآلاف من العمال يحتشدون حول أعلام مصر.

بحر من الشباب يتماوج على كوبرى عباس ١٩٤٦ والشابة التى وجدت الملاذ فى الكل قطرة من البحر، الفرح الشرس هى، والقوة العارمة الفاعلة والأنا، هى الأنا والمعنى، لأننا نحن بحر من الشباب يتناغم على كوبرى عباس، هديره يخلخل أوتاد استعمار قديم واستعمار جديد يتربص، وأنظمة عميلة، رجال البوليس يتبعون المظاهرة بهراواتهم الثقيلة.

فجأة يتخلخل البحر ويهوى الشباب إلى النيل، عشرات بعد عشرات ينجو منهم من ينجو ويموت من يموت، وفى نفس اللحظة التى ينشطر فيها كوبرى عباس إلى شطرين وينحرف شطر الكوبرى المؤدى إلى قلب المدينة تدفع الهراوات بالمؤخرة إلى الهاوية.

لا تصل مظاهرة طلاب جامعة فؤاد الأول إلى قلب المدينة، وتصل إلى كل مدينة وكفر ونجع فى مصر والبلاد العربية، تبدأ الثورة من حيث توهموا أنها انتهت.

وعلى شط النيل تجلس الفتاة التى وجدت الملاذ فى الكل تستر العرى، عريها عريهم، عرينا، تجلس ليلاً وصبحًا وضحى حتى ينتهى الغواصون من مهمة انتشال الجثث، تلف بعلم مصر الأخضر جثة، بعد جثة، تتسابق يداها وأيدى الآخرين الكثير من الأيدى والجثث ترتفع كالأعلام عالية على أيدى العاشقين، وشجرة العشق حية لا تموت ولا الـ«نحن» التى هى أنا والـ«نحن».

هكذا وبعد خمسين عامًا وعلى شط النيل تجلس الفتاة ليلاً وصبحًا وضحى تجلس الفتاة الشابة الكاتبة الأستاذة ترسم لوحة ملحمة مذبحة كوبرى عباس التى أطاحت بمئات الضحايا من شباب مصر، ومنهم من فقدت جثثهم وظلت دون مأوى.

الخيط الرفيع الذى يربط بين هذا العالم الذى كان بذلك الذى نحياه دون أن نكون إنما هو حب الوطن، الحنين إلى عزته واستقلاله، الشوق إلى أن يحتل شعب مصر مكانته المركزية فى التحرك من الثورة إلى النهضة، وحب الحياة الهيام إلى حلم حمل فيه شباب مصر عبء الأحلام ومن التراث بثمن الحصار، دون تحسب للأهوال.

حب الوطن الذى وحده يصهر المواطنة على أرض مصر، وهو الذى تجلى فى ديار مصر بشكل ساطع فى عام الثورة ١٩٤٦ وأعوام التأميم والعبور ١٩٥٦ ــ ١٩٧٣ ولعل اجتماع الكتاب على اختلاف مشاربهم وتباين توجهاتهم ومصالحهم حول علم لطيفة الزيات هذه الأيام هو فى المقام الأول احترام شعب مصر والأمة كلها بمقام ومكانة عام ١٩٤٦ فى تاريخ مصر المعاصرة، وهو العام الذى قادت فيه الجبهة الوطنية المتحدة بقيادة الشيوعيين وشباب الوفد والعمال النقابيين ثورة مصر التحررية التى أصابتها حملة التغييب والتزييف إلى حد فقدان الذاكرة، وكأن الدنيا أصبحت دنيا بفضل إبعاد الحركة الوطنية بقيادة الثورة من الساحة..

تتراكم أسئلة المتسائلين: من أين كان لهم هذا كله؟

الإجابة على هذا التساؤل الجاد فى مكتبة الدراسات والبحوث والمؤلفات عن تاريخ الحركة الوطنية والتقدمية المصرية بلغاتنا القومية وبجميع اللغات، كان جيل

الأربعينيات لا يملك إلا الإيمان والهيام وعزمًا لا ينكسر لكسر الانكسار، وكذا ـ وهذا أمر هام ـ قسط واسع وعميق من الثقافة متعددة الجوانب والتعليم الجاد، والتربية فى إطار قيم أخلاقية وطنية وروحية ثابتة، وقد استطاع بفضل هذا كله أن يدرك معنى صراع العمالقة أثناء الحرب العالمية من ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ وعرف كيف يفيد من هذه التناقضات للانطلاق إلى شعب مصر، وكأن الأدوات والوسائل والمال والعتاد كله فى أعماق هذا الشعب، من هنا جاءت انتخابات اللجنة الوطنية للعمال والطلبة بعد شهور من الانتخابات الفرعية من قواعد المدارس والمعاهد والجامعات من ناحية، والمصانع والنقابات والاتحادات العمالية من ناحية أخرى، بحيث كانت هذه اللجنة هى الوحيدة فى تاريخ مصر المعاصرة التى تم انتخابها بشكل ديمقراطى أصيل من قلب جماهير شعب مصر.

اجتمعت اللجنة الوطنية وانطلقت إلى العمل المتصل عدة شهور وعلى وجه التحديد من فبراير إلى ١٠ يوليو ١٩٤٦ ورأت أن تنتخب على رأس جهاز الأمانة العامة شابة تمتاز بالثقافة والجمال وبلاغة اللسان، تكونت فى رحاب «دار الأبحاث العلمية» احتلت مكانتها واللجنة جنبًا إلى جنب مع أبرز قيادات الحركة الشعبية آنذاك برئاسة فؤاد محيى الدين، وعندى أن هذه المعانى لا تقدم إجابة على التساؤل المصيرى الذى يطرحه جيل جديد وكأنه يتحدث بلسان الدكتورة الشابة منى سعفان متسائلاً:

اقتربت منك يا فتاة النهر، أنا الآتية من زمن آخر من مدينة الأبراج الرمادية، وعادم السيارات، وزحام الشوارع، والوجوه المكدودة المهمومة الساعية كل صباح وراء لقمة العيش، وانكسار، هو روح المكان والبشر، وسخرية لاذعة، ونكات بذيئة تلعن الزمان والحكام على حد سواء.

«جيل أدركه الشيب ولم يقل بعد كلمته وفى صمته يختزن سؤال المصير».

(الأهالى ١٨ سبتمبر ١٩٩٦)

أى وطن ذلك الذى ينبع من الأعماق، لطيفة وصحبها؟ تتحدث عن طفولتها عن (شجرة المشمش) التى صحبتها دومًا من الطفولة إلى غروب العمر، تتكلم عن تكشفها لأنوثتها «ويصعب على الإنسان تصديق التطور الذى حدث لهذه الفتاة بعد سنتين من

بداية دراستها الجامعية، والحركة الوطنية تتصاعد فى مدى ثورى فى الجامعة، وهى تتقدم تلقى الخطب الرنانة على سلالم إدارة الجامعة على عتبة كلية الحقوق وعلى منبر قاعة الاحتفالات، وعند نصب الشهيد عبد الحكيم الجراحى، وهى تعقد الاجتماعات وتقود المظاهرات وتتصدى للرفض الذى يشكله طلبة الإخوان المسلمين، لم يعد جسدها يربكها، لم تعد تشعر أن لها جسدًا نسيته، والناس تعيد صياغتها، تمدها بقوة لم تكن لها أبدًا وبثقة لا حدود لها، ترفعها على الأكف كالراية، تنصبها مفكرة وزعيمة وتحيلها إلى أسطورة أنها أنثى على الإطلاق.

وعندما التحقت بالجامعة أول ما التحقت جاءت ومعها كل شعور البنت بالنقص، وكل هذا الإصرار على التحدى والرغبة فى إثبات مساواة المرأة بالرجل، وكانت تغضب إذا حاول زميل لها أن يحمل عنها كتبها أو يخلى لها مكانًا فى الترام، وترفض فى إصرار من تستشعر النقص تجاه الجنس الآخر، من تسعى إلى إثبات شىء ما.

ولم تعد فى حاجة إلى إثبات شىء وهى تجلس على سلم المكتبة تستوعبها مناقشة فكرية مع مجموعة من الزملاء والزميلات وزميل من الطليعة الوفدية عضو فى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال يجر لها بالقوة البدنية طالبًا بعد الآخر من كلية الحقوق ويطلقه أمامها طالبًا منها مناقشته وإقناعه بالانضمام إلى صفوف الحركة الوطنية، ولم تعد تستشعر النقص والطلبة والطالبات يرفعوها بالانتخاب الحر من مرحلة إلى مرحلة حتى ينصبوها واثنين من زملائها كممثلين للسكرتارية العامة للجنة الوطنية والعمال.

من عباءة الوصل الجماهيرى ولدت، ومن الدفء والإقرار الجماهيرى تحولت من بنت تحمل جسدها الأنثوى وكأنما هو خطية إلى هذه الفتاة المنطلقة الصلبة القوية الحجة التى تعرف كيف تأنس للجماهير المقرة، وكيف تتصدى لرفض الجماهير وتمسح عليه من عباءة الوصل الجماهيرى، ولدت الفتاة القادرة على الاحتضان والمنتشية إلى ما لا مدى بالاحتضان، القادرة على المواجهة، على تطويع الرفض.. «لن تلبث عزلتى أن تنكسر» ورغم هذا التحرر والانتفاضة الثورية والإقبال على الحب والهيام، وكذا تمسكها بالحداثة التى تمثلتها فى أستاذنا العميد الدكتور طه حسين فإن لطيفة كانت أول من كافح موجات السجن المتتالية لرفع الظلم ومنع الإهانة عن زميلاتها عضوات

التنظيمات الإسلامية دون كلفة ولا افتعال ؛ لما كان لديها من فهم عميق أصيل لمعانى الوحدة الوطنية وحتمية احترام إنسانية الغير ما دام أن حب الوطن والوفاء للشعب ـ وكذا قيم حضارتنا الروحية ـ هى الإرث المشترك.

وكان هذا أيضًا الذى دفع بها إلى رئاسة «لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية ضد التطبيع مع العدو الصهيونى منذ نهاية السبعينيات اكتشاف هذا المعنى وهى فى مرحلة الأستاذية، وإنما امتداد للأسس التى وضعتها الحركة الشيوعية المصرية لمفهوم ومضمون وبرنامج تحقيق الثقافة الوطنية فى الأربعينيات، بينما اكتفت أكثر فصائل الأحزاب الوطنية المعارضة بمفهوم مجانية التعليم على أهميته.

ومعنى هذا أن التفاف الجميع حول لطيفة بعد رحيلها إنما يمثل أيضًا ـ وهذا هو المعنى الثانى لما يحدث الآن ـ الحنين إلى الحياة الاجتماعية المتحضرة التى ترفض بشكل مبدئى وإصرار لا يعرف الهوان والرجعية فى السلوك والمعاملات، وفوق هذا وذاك يرفض إحالة الخلافات الحتمية بين مختلف مدارس الفكر والعمل التكوينية لوطننا وأمتنا إلى حرب أهلية صدامية باسم العلمانية والتدين، وكلاهما روافد من بين عدة روافد تكوينية لحضارتنا الخلاَّقة التى عرفت كيف تمزج بين الجمال والقيم، بين صيحات الفلاح الفصيح ومركزية السلطة المجتمعية، بين الجمال والكمال.

ولعل فى أوراق لطيفة غير المنشورة ما يصف ذلك الرباط العميق بين ثورة «الفلاح الفصيح» ضد ظلم الفرعون كما صورها شادى عبد السلام، وبين إعلان الشعب إرادته فى التحرر، وكان صلاح أبو سيف خير مرآة لذلك.

وعلى وجه التحديد أرجو أن تروى لنا أوراق لطيفة الزيات غير المنشورة هذا اليوم الحاسم فى أكتوبر ١٩٥١ عندما احتشدت جماهير الشعب حول قيادة اللجنة الوطنية للعمال والطلبة المنحلة أمام مبنى وزارة الخارجية العتيد منذ العاشرة صباحًا ترفع شعار «نريد السلاح يا صلاح» حتى خرج إلى الشرفة فى الخامسة بعد الظهر الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية الوطنى الشجاع آنذاك وتلقى شعار الجماهير ونقله فى اليوم التالى إلى اجتماع مجلس الوزراء برئاسة مصطفى النحاس باشا، فكان أن ذهب رئيس الوفد إلى البرلمان يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١ وألقى خطبته الخالدة: من أجل مصر

وقعت على المعاهدة (أى المعاهدة الإنجليزية ـ المصرية ١٩٣٦) ومن أجل مصر ألغى المعاهدة، كانت هذه فاتحة المواجهة المباشرة ضد قوى الاحتلال البريطانى، وقد تجلت بشكل ساطع فى نضال الفدائيين من جميع قطاعات الجبهة الوطنية المتحدة ضد القواعد البريطانية فى مناطق القنال حتى تفجرت الأوضاع وتم إحراق القاهرة يوم الجمعة الحزين يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ وما تلاه من فرض الأحكام العرفية ومحاولة حكم البلاد بواسطة حكومات الأقلية الرجعية، حتى فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

أين كانت لطيفة؟ اللهم إلا فى الصف الأول من المظاهرة التى أعلنت إرادة شعب مصر أمام وزارة الخارجية مبشرة بإشراقة مرحلية جديدة للثورة المصرية؟ ما زلنا فى حاجة إلى تتمة «أوراق شخصية» (دار الهلال ١٩٩٢) تحكى لنا وقفة لطيفة الزيات وصحبها فى هذه الأيام الحاسمة.

إلى أن كان آخر لقاء وكأنه بداية جديدة.

فقد شاءت السيدة الكريمة النادرة راوية كرشاه حرم الصديق الأستاذ الكبير الدكتور حسام عيسى أن تحتفى بيوم عيد الميلاد الواحد بعد السبعين لكاتب هذه السطور، فدعته إلى اختيار عشرين من الأصدقاء للقاء، وقضاء أمسية أنيسة فى دارها، وبطبيعة الأمر كانت لطيفة على رأس قائمة المدعوين، ذهبت إلى منزل صديقى فى الدقى فى السابعة والنصف مساء، أى قبل الموعد المحدد بنصف ساعة للشكر وتبادل الذكريات قبل حضور الأصدقاء وإذا بأصوات وضحكات بهيجة تلحق بنا تصعد من بئر السلم إلى الدور الثالث وكأنها تزغرد، أرادت لطيفة أن تكون أولى الحاضرين فاندفعت مع الصديقة الكريمة الدكتورة ووصلت بعد حضورى بدقائق تنهج.. كان لقاء وأى لقاء وعناق لا كالعناق، قالت وهى تلهث وتكاد تبكى أنا كل ما أشوفك أكون سعيدة، وأمسكت بيدى وكررت هذا المعنى المرة تلو المرة، والساعة بعد الساعة كأنها تمسك بيدى لآخر مرة.

وفجأة وكانت هذه المفاجأة لنا أجمعين تحولت أمسية الاحتفال إلى الاحتفال بلطيفة الزيات ومعها د. رضوى عاشور وقد أخبرنى الصديقان راوية وحسام أنها أيضًا بلغت سنا مماثلاً فى هذه الأيام، استقطبت لطيفة وبطبيعة الأمر دون أى افتعال أنظار

الجميع وقد أشرقت ابتسامتها الحزينة، وانطلق رنين ضحكاتها بالذكريات والنكات تحاول أن تثير حصار العذاب القادم والسنوات الجريحة، لا أظن أن أحدًا من الذين سعدوا بالالتفاف والاحتفاء بها فى تلك الأمسية الحميمة مساء ٢٣ أكتوبر ١٩٩٥ فى مقدورهم أن ينسوا أو يتناسوا، أن يصدوا مسار الهيام المتجدد، أن يديروا ظهرهم لسيدة الجمال والكمال. انتهت السهرة.

كانت هذه أجمل هدية عيد ميلاد عرفتها.

انتهت السهرة. انتهت الرحلة.

بدأ الخلود: فى سماء مصر.

قال صاحبى: عادت إلى أحضان الأب وإلى البيت القديم، كما كانت تقول فى لحظات التأمل تلحق بمن ملئوا حياتنا نورًا ونارًا: محمد الخفيف، أحمد شكرى سالم، شهدى عطية الشافعى، عبد المعبود الجبيلى... ولطيفة تضحك، تشرق، تقود مسيرة طويلة وجهتها مصر، من حق شبابنا أن يعتز بها؛ ليستمر..

ـ ٤٦ ـ

رحلة « لطف الله سليمان »

صفحات المآسى والأحزان تتراكم، يومًا بعد يوم أيًّا كان توجه الصحف والكتب، الساسة والمعلقين، وخاصة فى هذه البقعة الجريحة من عالمنا المتغير. إلى درجة أن اختار البعض أن لا يحتفل بالإنجازات ولا أعياد الميلاد. انكفأت كل جماعة على دائرتها المغلقة. كادت أواصر الزمالة والصداقة تتفتت. فما الداعى إلى التلاقى ما دمنا على هزيمة وتراجع؟ وما الداعى إلى البحث عن معانى الإنجاز والأمل.

وقد أصبح أصحاب الأعمدة فى صحفنا يلاحقون تحديات سيول المخاطر المنهالة يومًا بعد يوم. يبذلون ما تيسر لتقديمها فى صورة مقبولة، ولهم فى معظم الأحيان الفضل فى الحفاظ على شىء من الاتزان فى عقولنا وأفئدتنا.

أكتب هذه السطور بعد شهور ثلاثة مضت فى حديث حوارى دافئ جاء ليتوج نصف قرن من التزامن والتزامل، وئامًا واختلافًا، مع راحل مصر والعرب الكبير لطف الله سليمان يوم ١٩ ديسمبر من ١٩٩٤ المأساوى.

نصف قرن، أو على وجه التدقيق منذ ١٩٤١، وكان قد سبقنا إلى خوض معركة التحرر والتقدم فى الفكر والعمل عدة سنوات قبل الحرب العالمية الأخيرة.

الحوار الأخير بدأ فى ٢٠ سبتمبر حتى ١٥ ديسمبر ١٩٩٤. حوار بالهاتف، علمت منذ المكالمة الأولى أنه مصاب بمرض خطير وصفه بدقة ساخرة، وأضافت زوجته ورفيقة مسيرته السيدة النبيلة «جنيت» إنه يسخر من نفسه، وهذا ما فيه من دلالة لأحبائه.

دارت المكالمات ولفت عبر المحاور التى جمعتنا دومًا مثل الوطن، القومية العربية، الهيمنة، الإمبريالية فى منطقتنا، اهتزاز النظام العالمى، ولكنه هذه المرة رأيته يبتعد

تمامًا عن كل معانى التباين. وذلك أنه كان من نهاية ثلاثينيات وحتى ثمانينيات القرن العشرين من ألد أعداء الاشتراكية البيروقراطية، وقد تصور أن فى دعوة تروتسكى إلى الاشتراكية الأممية والكونية بدلاً من التوجه القومى فى الاتحاد السوفييتى، برئاسة «غريمه ستالين» ما يمكن أن ينقذ الأمر ويحقق الأمل.

أتصور أنه أدرك شيئًا فشيئًا أن القومية محرك رئيسى للتاريخ، وأن الإمبريالية اليوم ـ وكذا إمبراطوريات الأمس، ثم هيمنة الدولة الواحدة على الفوضى العالمية الجديدة، ولو مرحليًّا ـ تمثل مصالح مراكز قوى تتحرك ابتداء من أمة أو جبهة أمم محددة رغم المصطلحات العالمية والأممية والكونية التى تصب من خلالها حديث الهيمنة وتمارس السلطان.

من هنا تطور لطف الله سليمان ـ على ما أعتقد ـ من مرحلته الأدنى إلى المرحلة الواقعية الثانية، خاصة بعد مشاركته مستشارًا للرئيس أحمد بن بيلا الرئيس التأسيسى لجمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية. أدرك آنذاك أهمية السيادة الوطنية، الثقافة الوطنية، الجبهة الوطنية قبل وفوق البعد الأممى الذى كان يراه لازمًا لتقدم الحركة التاريخية. ولعله كذلك تأثر بإنجازات الجبهة الوطنية المتحدة المصرية، رغم ضرب جناحها التقدمى من نهاية الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين حول جمال عبد الناصر انطلاقًا من أفكار الشهيد شهدى عطية الشافعى وزملائه وأعلام اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ١٩٤٦، وكذا وبلا شك أنه تأثر بإنجازات سياسة «دى جول» الاستقلالية ثم مسيرة الصين الطويلة من «ماو تسى تونج» إلى «ونج هسيا وبنج»، وكذا صعود ألمانيا إلى المقام الاقتصادى الأول فى أوروبا بعد توحدها.

وهنا يجب أن نذكر بكل احترام وإجلال أنه اختار لنفسه أن يكون صوتًا لمقاومة شعب فلسطين المشرد ابتداءً من مكتب الجامعة العربية فى باريس. فجاء كتابه عن القضية الفلسطينية أول إنذار بضرورة التركيز على الطابع القومى للقضية، وعدم السماح بتحويلها إلى قضية صدام دينى بين اليهود من ناحية والإسلام والمسيحية الشرقية من ناحية أخرى، وكان فى هذا سباقًا، منذرًا بالأهوال القادمة.

نتبادل الحديث وأستمع إلى أسئلته عن رحلاتنا وتجاربنا عبر القارات، وأدركت أنه يسأل ليتساءل، وأنه أبعد ما كان من المواقف الجامدة والذكريات المتحجرة، وفى

كلمة.. كان لطف الله سليمان فى المنفى الذى اختاره فى باريس هو لطف الله سليمان المناضل، المفكر، الناشر، الوطنى، الاشتراكى العلم الذى أضاء القاهرة من الأربعينيات إلى الستينيات.

لقد تغير العالم فلم يكابد لطف الله سليمان ويتنكر. ظل البعض ينظرون لخطوط وقوالب لم تتغير، بينما اتجه هو وعدد من زملائنا الصادقين إلى التساؤل، أى إلى إشكالية التساؤل الفلسفى، النظرى، الحضارى.

والحق أن السنوات الأخيرة من عمره وخاصة هذه الشهور الثلاثة الخصبة التى لن أنساها، مليئة بالتساؤل، لا للندب والاسترسال فى مرثيات المآسى، وإنما التساؤل من أجل فهم الجديد، أى.. التساؤل من أجل التنقيب عن درب الأمل الممكن.

الأمل؟ وهل الأمل ممكن؟

لم نتبادل هذا الموضوع مباشرة، كنت أؤكد معانى إيجابية انتقال المبادرة التاريخية من الأطلنطى إلى الشرق، وخاصة دائرة آسيا حول الصين التى واكبت حربى الخليج وتفتت الاتحاد السوفييتى ودائرته فى أوروبا، كان يستمع، يقرأ، يسأل عن هذا الواقع الجديد غير المألوف فى صفوف حركتنا الوطنية والتقدمية المصرية والعربية، وظل هو يركز بأسلوبه الساخر النافذ الثاقب إلى ثغرات جبهة الهيمنة المواجهة لتغير العالم، وكذا مجموعة القيادات العربية الضعيفة بعد أن دب بينها الشقاق ووهنت عزيمتها فى عصر النفط.

يسألنى صاحبى.. ماذا أنجز لطف الله سليمان أيام القاهرة؟

تعود بنا الذاكرة إلى جماعة «الخبز والحرية» وكان من أقطابها جنبًا إلى جنب مع أنور كامل ورمسيس يونان مع صفوة من الفنانين الذين دخلوا السياسة من باب تجديد الجمود الشكلى فى النحت والتصوير والشعر. ولكنما الإسهام الرئيسى لـ«لطف الله سليمان» تركز فى مجال النشر.. فقد أسس «الدار المصرية للكتب» ثم «دار النديم» فى مكتبته ٢٤ شارع عبد الخالق ثورت، وقد أصبحت بعد ضرب اليسار ١٩٤٦ إلى ١٩٥٠، ملتقى لصفوة المفكرين والقادة السياسيين من مختلف قطاعات الحركة التقدمية المصرية والعربية، بفضله عرفنا تطور الحركة الوطنية المصرية (١٩٤٦ ــ ١٩٤٦) لشهدى عطية الشافعى، و«الأرض والفلاح» لإبراهيم عامر، وكتابات فوزى

جرجس وأحمد رشدى صالح انطلاقًا من فنون الأدب الشعبى. فى هذه المرحلة بين حرب السويس ونهاية ١٩٥٨، مرحلة الجبهة الوطنية المتحدة الأولى. فى عهد جمال عبد الناصر، تجلت روح الانفتاح عند لطف الله سليمان، ناشرًا ومنظمًا لإيقاع الفكر الوطنى التقدمى دون تنكر أو انغلاق أو حلقية. أى أنه كان الناشر الأول فى فترة كاد جيل شبابنا المصرى والعربى ينساها تمامًا فى موجة الإشادة بما تلا ذلك من إنجازات، وكأن حركة النشر التى أدارها لطف الله سليمان همزة وصل بين جيل الأربعينيات من ناحية ثم الستينيات وأكتوبر عبر ثورة يوليو من ناحية أخرى.

كيف يمكن استخلاص الأمل من أنقاض المشروع؟

ترتفع أصوات تؤكد أننا ـ جميعًا ـ من مختلف مدارس الفكر والعمل التى تتالت على الساحة الفكرية المصرية والعربية منذ الستينيات وحتى اليوم لم ندرك ـ ولو من بعيد ـ أن العالم لم يعد كما هو، فراح الجميع يتحرك فى دائرة تعنى بالتجويد والتنميق والتصحيح، أى فى تحصيل حاصل زال عهده. لا شك أن شيئًا من ذلك حدث ولا يزال، وأنه يمثل سببًا رئيسيًا فى انكسار الأمل والانصراف إلى المصالح الذاتية.

وشىء غريب أن الساحة من حولنا عالميًّا ـ عربيًّا ـ مصريًّا ـ أصابها من جراء هذا التغيير العديد من التقلبات التى استثارت ـ بدورها ـ العديد من التحديات والطروح الإبداعية وبوادر فكر جديد.

أين إذن هذا الجديد؟ وكيف يمكن إقامة التلاحم معه، للإفادة والمشاركة، بل للإثراء؟

الإجابة طالما طرحناها كما طرحها عدد من المعنيين الجادين بمحاور تغيير العالم، وقد كانت هذه الإجابة، وتلك التوجهات خلاصة المطاف فى محاوراتنا مع الراحل الكبير لطف الله سليمان..

الحوار الأول.. كما حددناه منذ مطلع السبعينيات يتمثل فى انتقال دائرة «المبادرة التاريخية» إلى الشرق الحضارى وآسيا الشرقية فى المقام الأول، وذلك فى تفاعل جدلى متصل ـ وكيف لا؟ مع تجديد أوروبا، وجهود الدائرة الإسلامية الحضارية الآسيوية الإفريقية، ونمو أمريكا اللاتينية، وقد يقول البعض دائرة المحيط الهادئ، وإن كنا نرى

أنها دائرة شرق آسيا المتجهة إلى المحيط الهادى، أى أن التاريخ لم ينتهِ. وإنما ذلك الذى أوشك أن ينتهى هو تاريخ مرحلة النظام العالمى حول مركزه الغربى منذ القرن الخامس عشر. بينما بدأ اليوم تاريخ جديد، مرحلة جديدة من تاريخ الإنسانية حول ريادة نهضة حضارات الشرق وشعوبه.

ـ من خلال هذا التحول الجغرافى لمركز الثقل نلاحظ أن السلطة السياسية فى هذه المرحلة الأولى من تشكلها من جديد انتقلت إلى قطاع الاقتصاد والعلم والتكنولوچيا، بينما تضاءل وزن التحركات الحربية الواسعة.

بعد حربى الخليج. وقد ظن المحللون التقليديون أن المنهج الاقتصادى فى تفسير التاريخ قد انتصر أخيرًا فى دائرة «السوق» بعد أن هزم فى دائرة التخطيط.

ـ ومن خلال المحورين الرئيسيين لعملية تغيير العالم لاحظ المراقبون، واستشعر الناس فى أوسع القطاعات من عالمنا المتغير عود إلى التساؤل الفلسفى عن معنى العالم والحياة والزمان والوجود، واكبه عود إلى الإيمانية وتجديد الديانات العالمية الكبرى، أصل الأديان التوحيدية الثلاثة، وكذا البوذية.

كيف يمكن ـ ترى ـ أن تصب هذه الروافد الثلاثة فى بحر الأمل.

الموضوع واسع لا يتسع له المجال فى هذه الوقفة التى أردنا بها أن نحيى الراحل الكبير وصديق العمر والنضال لكى يذكره شباب مصر والعرب والشرق حتى يتم جمع أعماله وإعادة نشرها.

حين جاء صوت السيدة قرينته عبر الهاتف ظهر يوم الخميس ١٥ ديسمبر ١٩٩٤ تسوق نبأ نقله إلى المستشفى.. قالت إنه يسخر من أزمته. قلت إنه شديد البأس وسوف يعبر. ضحكت وقالت: «هذه عبارته تمامًا» إذن سوف تلتقيان قريبًا إن شاء الله بعد شفائه.

من هنا ـ إذن ـ يبدأ مشوار التنقيب عن رحلة لطف الله سليمان فى خضم مرحلة تغيير العالم وصياغة العالم الجديد.

ـ ٤٧ ـ

إبراهيم عامر: الأرض والفلاح فى تاريخ مصر

الحديث عن واقعنا القومى المتميز يحتل مكانة بارزة فى كل مكان، ولكن عدد الدراسات العلمية لهذا الواقع القومى ما زال ضئيلا إلى حد يثير الدهشة. ومن هنا كان اهتمام الرأى العام المتفق فى مصر والبلاد العربية بكتاب «الأرض والفلاح ـ المسألة الزراعية فى مصر» لزميلنا الكاتب والصحفى الأستاذ إبراهيم عامر، وهو الكتاب الذى نعرض لأهم نقاطه لاعتقادنا أنه بحث علمى جدير بالدارسة والمناقشة.

«الفلاحون فى مصر يبلغون نحو ١٥ مليون نسمة (عام ١٩٤٧)، أى ما يعادل نحو ثلثى مجموع الشعب المصرى وهم يكتسبون عيشهم ـ فى الغالب الأعم ـ من زراعة نحو ستة ملايين فدان من الأراضى الزراعية، ويقيمون فى نحو أربعة آلاف قرية و٢٠ ألف عزبة، يقدر الدخل القومى المستمد من الزراعة ـ أى من قوة عمل الفلاحين ـ بنحو ١٢٠٠ مليون جنيه، أى نحو ثلثى الثروة القومية. وتمثل الصادرات الزراعية نسبة نحو ٦٩٪ من مجموع الصادرات.

وتشتغل معظم الصناعات المصرية بتحويل أو تصنيع مواد أولية زراعية، وتستخدم تلك المصانع نسبة نحو ٦٤٪ من مجموع العمال الصناعيين فى مصر».

من هنا كان جوهر المسألة الوطنية فى مصر هو مسألة الفلاحين: ومن هنا كانت دراسة المسألة الزراعية ـ أى دراسة علاقته بالأراضى التى يفلحها ـ واجبا وطنيا على كل مصرى وكل مصرية. يتناول الأستاذ إبراهيم عامر تاريخ المسألة الزراعية منذ عهد الفراعنة حتى الإصلاح الزراعى عام ١٩٥٢، ويركز بحثه على النقاط التالية:

(أ) تأثير المسألة الزراعية على نظام الحكم والبنيان الاجتماعى فى مصر منذ أقدم العصور.

(ب) طبيعة النظام الإقطاعى الشرقى، وتأكيد الطابع الرأسمالى للاقتصاد الزراعى المصرى قبل ١٩٥٢.

(ج) الإصلاح الزراعى: أسبابه، طبيعته، نتائجه.

فى عهد الفراعنة

يتساءل المؤلف: كيف كان فرعون مصر هو الإله، وهو الحاكم المستبد بأمره، وهو مصدر كل تشريع؟ ويجد الجواب على هذا السؤال فى الجغرافيا الاقتصادية لبلادنا: «كانت الحكومة هى التى تقوم بشق قنوات الرى وبناء السدود لحماية الأرض من الفيضان، وضبط مياه النيل وتخزينها وتوزيعها. فقد كان هذا النظام ـ ولا يزال ـ شرطا حيويا لضمان معيشة المصريين».

«وإذا كانت عمليات الرى والصرف فى مصر تحتاج إلى جزء كبير من قوة العمل التى لا تستخدم فعلاً فى الزراعة، أو التى لا يمكن استخدامها بطريقة مفيدة فى الزراعة، وإذا كان من غير المستطاع القيام بتلك المهمة «المائية» بشكل مفيد على أساس محلى بحت، فقد كانت الحكومة المركزية تحرص دائما على وحدة البلاد الإدارية والسياسية لتنفيد مشروعات الرى العامة، كما كانت تمارس سلطة فعلية إيجابية، وتسيطر على قوة عمل كبيرة (...)، ولقد كان الملك، بوصفه الإله، وبحكم سيطرته الفعلية على موارد الرى والقوى العاملة هو المالك الوحيد لأرض مصر. والمعتقد إلى حد بعيد أن بعض المزارع الملكية كانت تدار بواسطة موظفين يعينهم الملك ويحصلون على رواتب ثابتة، وأن بقية المزارع كانت تعطى للفلاحين لزراعتها والانتفاع بها مقابل التزامات معينة، ومن ثم، فقد كانت هناك علاقة وثيقة بين حيازة الأرض (فى أيدى الموظفين وخدام الروح والكهنة) وبين تأدية الخدمات للدولة...»

كان هذا إذن هو السبب فى ظهور حكومة مركزية واحدة فى وادى النيل منذ قديم الزمن، وفى تماسك شعبنا وشعوره بالوحدة منذ أقدم العصور. ولكن عناصر التفرقة بدأت تعمل منذ أواخر عهد الأسرة الرابعة:

أخذ الملك ـ بسبب ضعف مالية الدولة نتيجة لتكاليف بناء الأهرامات ـ يدفع جزءا

من مرتبات الموظفين عينًا (طعامًا وكساء وشرابا. الخ) ويدفع جزءا من هذه المرتبات بعطايا من الأرض. والاعتقاد السائد أن تلك الأراضى كانت تورث. وهناك من يعتقد أن هذه الأراضى كانت تباع كذلك. وفى نهاية الأسرة السادسة، أصبح حاكم الإقليم ـ عادة ـ ورئيس الكهنة فى المعبد الرئيسى، بالإقليم، وأصبح الحاكم الذى ورث أعلى مناصب المدينة (الإدارة والقضايا) وأعلى المناصب الكهنوتية فى إقليمه، مع مساحة لا بأس بها من الأرض، فى مكانة تكفل له استغلال أى ضعف يبدو فى الحكومة المركزية لحساب نفسه. وكان من نتيجة ذلك أن قامت سلطة إقليمية، ممثلة فى الكهنة وكبار الموظفين، ومعتمدة اقتصاديا على أراضى الأوقاف، إلى جانب السلطة المركزية، الأمر الذى ساعد على انهيار الدولة القديمة....»

وزادت حركة توزيع الأرض المملوكة لفرعون بعد حروب «الهكسوس»: عندما قامت حركة التحرر ضد «الهكسوس»، ونجحت فى طردهم من البلاد قام معها جيش قوى من المحاربين الذى منحوا الأرض والعبيد والذهب. وقد أنشأت الأسرة الثامنة عشرة جيشًا من المحاربين المحترفين للدفاع عن البلاد، وقد أصبح قادة الجيش يحصلون على الأراضى الزراعية».

كانت هذه قصة أرض مصر خلال أربعين قرنا من تاريخنا القومى.

النظام الإقطاعى

واستمر الحال على هذا النحو فى الفترة ما بين نهاية مصر الفرعونية حتى عصر محمد على: «وقد تجنب العرب ـ عندما دخلوا مصر ـ التدخل فى الأحوال العامة والزراعة، وسمحوا للمزارعين بأن يظلوا فى أراضيهم، بل وشجعوهم على زيادة نشاطهم. ولكن معظم سادة الأرض ـ وقد كانوا من أصل بيزنطى ـ طردوا من البلاد، أو قتلوا وصودرت أراضيهم. وما لبثت الأرض أن أصبحت ملكا لبيت المال، أى ملكا للدولة».

وتحدد معالم مصر الإقطاعية على النحو الآتى: «كانت الدولة ـ بوصفها المالك الوحيد للأرض ـ تقوم باستغلال المساحة الكبرى من الأراضى استغلالا مباشرا، وتقوم بتوزيع بعض المساحات على بعض الأفراد للانتفاع بها مقابل التزامات معينة، ولم يكن المنتفعون بالأرض سوى حائزين لها، وكانت الدولة دائما تملك حق حرمان

أى منتفع من الأرض...وكانت الأغلبية الساحقة من الفلاحين بدون أرض، ولذلك كانوا يعملون فى مزارع الدولة، أو مزارع كبار المنتفعين مقابل الحصول على الضرورات المعيشية، كما كانوا يعملون سخرة فى أعمال الدولة....»

ثم ينتقل الأستاذ إبراهيم عامر بعد ذلك إلى فكرته القائلة بوجود فارق كبير بين النظام الإقطاعى فى الغرب، وفى الشرق، فالنظام الإقطاعى فى الغرب يثير اختلافات عدة: «يستخدم بعض المؤرخين هذا التعبير ليصف به نظاما لحيازة الأرض والانتفاع بها مقابل الخدمة العسكرية، والبعض يستخدمه لوصف نظام لاستغلال الأرض قام على السخرة، والبعض يستخدمه لوصف نظام لمكلية الأرض يقوم على شكل من أشكال العلاقة الشخصية بين مالك الأرض وزارعها، والبعض يستخدمه لوصف نظام سياسى يسيطر فيه كبار ملاك الأرض على أجهزة الدولة، والبعض يقول إن فكرة الإقطاعية كانت منذ نشأتها مجرد فكرة الغرض منها هو وصف نوع عام من أجهزة الحكم، وليس نوعاً محدداً من الحكومة، والبعض يصر على أن الإقطاعية تعبير ثقبى (تكتيكى) يمكن استخدامه فقط لوصف أجهزة الحكم الأوروبية الغربية فى العصور الوسطى... (ولكن) هناك مظاهر عامة للنظام الإقطاعى:

١ ـ سيادة التوزيع والتبادل الطبيعى للمنتجات.

٢ ـ تبعية الفلاح تبعية شخصية للمالك.

٣ ـ حيازة المنتج لوسائل الإنتاج بشكل عام، والأرض بصفة خاصة.

٤ ـ انخفاض المستوى التكتيكى فى الزراعة وركود التطور فيها...»

أمَّا النظام الإقطاعى فى الشرق فقد يمتاز بقسمات مميزة خاصة:

«كانت الأراضى الزراعية فى مصر ـ حتى أواخر القرن الثامن عشر ـ مملوكه ملكية تامة للدولة، والسبب الحقيقى لانعدام ظاهرة الملكية الفردية للأرض فى مصر حينذاك هو السبب نفسه لوجود تلك الظاهرة فى المنطقة الممتدة تقريبا من الصحراء الكبرى غربًا إلى الهضبة الآسيوية الصينية الوسطى شرقا. وهذا السبب هو أن الزراعة فى مصر كانت تعتمد على أعمال الرى الصناعى الواسعة النطاق، وقد أدى ذلك إلى الاعتماد على إنتاج معين من المجتمع والحكومة فى مصر القديمة، وفى آسيا الغربية،

والهند والصين، وذلك لأن الوصول إلى مستوى مرتفع وممتاز من الإنتاجية الزراعية وللأراضى التى تعتمد على الرى الصناعى قد اقتضى قيام الدولة بتنفيذ مشاريع الرى، مثل حفر الآبار وشق الترع والقنوات، كما اقتضاها أن تقوم بأعمال ضبط مياه الأنهار وحماية الزراعات من الفيضانات. ومن ثم، كان تحقيق ذلك يقتضى وجود سيطرة مركزية للدولة على الأراضى الزراعية، لا تتأتى إلا بأن تمتلك الدولة تلك الأراضى، كما اقتضى تحقيق وجود سيطرة مركزية على السكان لتعبئتهم للقيام بالأعمال المطلوبة، ووجود سيطرة مركزية على مياه الرى لتوزيعها، الأمر الذى أدى إلى أن أصبحت الزراعة من مهام الحاكم».

سلطات الدولة

ويدلل المؤلف على صحة نظريته بأقوال كارل ماركس فى يونيو ١٨٥٣ فى رسالته إلى صديقه إنجلز: «إن عدم وجود ملكية فردية للأرض هو ـ حقا ـ مفتاح الشرق كله. وهنا يوجد تاريخ الشرق السياسى والدينى».

ولكن كيف حدث أن الشرقيين لم يصلوا إلى الملكية الفردية للأرض حتى ولا فى شكلها الإقطاعى؟

«إننى أعتقد أن السبب الرئيسى لذلك يرجع إلى المناخ وارتباطه بطبيعة التربة... إننا نجد فى هذه المنطقة أن الرى الصناعى هو الشرط الأول للزراعة. وهو أمر لا تقوم به إلا الجماعات القروية أو الأقاليم، أو الحكومات المركزية.

«وليس لأى حكومة شرقية إلا ثلاث مصالح: الأولى للمالية، والثانية للحرب، والثالثة للأشغال العامة، ضرورة استمرار الإنتاج». كانت نتائج ذلك خطيرة حقاً من الناحيتين السياسية والاجتماعية: «إن نظام الرى قد اقتضى دائما وجود سلطة مركزية تتولى الإدارة الزراعية، وتتولى فى الوقت ذاته المهمات العسكرية. وقد نتج عن ذلك نوع السلطة المركزية، التى تعتمد على الموظفين لا على الحكام المستقلين. وقد ظلت مصر دائما ـ وحتى فى عهد حكام الصعيد فى الدولة الفرعونية وفى عهد المماليك فى الدولة السلطانية ـ وحدة سياسية، ولم تعرف الانقسام الذى عرفته دول أوروبا فى مرحلتها الإقطاعية مثل ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا وغيرها..»

هكذا كان الحكم يفهم دائما على أنه تحكم فى جميع عصور تاريخنا القومى، فى دولتنا الموحدة الخاضعة لإدارة مركزية واحدة.

كيف نشأت الرأسمالية

كيف إذن ـ ومتى ـ نشأت الرأسمالية فى مصر؟

وعند المؤلف أنها نشأت فى الفترة ما بين قانون ١٦ سبتمبر ١٧٩٨، ولائحة الأطيان الأولى عام ١٨٤٦:

«وبهذه المناسبة نرى من الضرورى أن ننوه هنا بأن الذين يقولون إن الرأسمالية قد نشأت فى مصر بسبب فرضها من الخارج فقط (الحملة الفرنسية ثم محمد على) لم يدرسوا ـ فى الواقع ـ العوامل الداخلية دراسة كافية، فلقد كانت أسباب نشأة الرأسمالية كامنة فى مصر قبل التدخل الخارجى، وكانت تلك الأسباب تتخذ شكل تطور الاقتصاد المصرى من اقتصاد طبيعى إلى اقتصاد للسوق، وتتخذ شكل نمو المدن الصناعية والتجارية المصرية وحاجتها إلى الحاصلات الزراعية، كما أنه من الخطأ قياس تلك الأسباب بالمقاييس الاجتماعية دون المقاييس الاقتصادية، واستبعاد العوامل الداخلية بحجة أن «البرجوازية» المحلية لم تكن ترغب فى القيام بثورتها ضد «الإقطاعية»، فإن تلك الحجة تضع العربة أمام الحصان، لأن الأصل فى التطور هو مدى نمو العوامل الاقتصادية الجديدة، وليس مدى رغبة هذه الطبقة أو تلك فى القيام بالثورة».

وجاءت لائحة الأطيان الأولى فى عهد عباس عام ١٨٤٦ تمنح مستغلى الأرض حق التصرف فيها بالرهن أو التنازل للغير. وفى عام ١٨٥٨ صدرت اللائحة السعيدية، التى منحت مستغل الأرض حق تأجيرها ورهنها، وبيع حقه فى الاستغلال للغير، وتوريث الأرض، وتعويض المنتفع فى حال نزع الأرض منه. وهكذا انتصرت الرأسمالية فى ريف مصر، ولكنها انتصرت على حساب الفلاح.

«أدت سياسة القروض وسياسة الإسراف فى عهد إسماعيل إلى سوء حالة الفلاحين، وإثقالهم بالضرائب والالتزامات. ولقد كان الفلاح فى عهد إسماعيل لا يملك عمامة، ولا يملك سوى جلباب واحد. وحتى عندما كان يملك العمامة أو أكثر من

جلباب، فإنه كان يخفى تلك الحقيقة حتى لا يطارده الصرافون. وكانت النساء يبعن ملابسهن وحليهن الفضية والذهبية. وكان الفلاحون يساقون بالكرباج للعمل فى مزارع الخديوى وفى مزارع الباشوات المحظوظين... ومعنى هذا أن الملكية الفردية للأرض لم تعد الفلاحين بشىء، بل ولقد كان شكل تقسيم الأرض ـ فى حد ذاته ـ هو الشكل الأول من أشكال الاستغلال الاحتكارية للفلاحين المحرومين من الأرض التى يزرعونها...».

وجاء الاحتلال البريطانى يؤكد الطابع الرأسمالى لاقتصادنا الزراعى، وذلك بتعميمه زراعة القطن.

نحو الإصلاح الزراعى

لا يتسع المجال هنا لتتبع تحليل الأستاذ إبراهيم عامر للقوى الاجتماعية فى الريف المصرى ـ الملاك العقاريون، المزارعون الأغنياء، المزارعون المتوسطون، المزارعون الفقراء، المعدمون والعمال الزراعيون ـ ولكن لا بد من الإشارة إلى رأيه فى دور الطبقة المتوسطة فى حياتنا السياسية.

«يكفل المزارعون المتوسطون فى مصر لأولادهم (وأحيانا لبناتهم) استكمال تعليمهم فى الجامعة أو المعاهد العليا، حتى يستطيعوا بعد ذلك الالتحاق بوظائف المعلمين والمهندسين أو المحامين، أو ليصبحوا ضباطا فى القوات المسلحة. ومع ذلك فإن المزارع المتوسط يشعر أكثر من غيره بوطأة استغلال المالك العقارى والرأسمالى المصرفى، ويحس بالحاجة إلى أن يتمتع بمزيد من الحقوق السياسية؛ وهو لهذا كثيرًا ما ينضم إلى الحركة القومية ويعتبر عمادها، كما يؤيد بعض الأشكال الديمقراطية المحدودة.

وبدأ الصراع من أجل الأرض

«لقد عرفت مصر معنى مقاومة الاستغلال والاستبداد منذ عهد محمد على، واتخذت تلك المقاومة شكل ترك الفلاحين للقرى، وإهمال حصد المحاصيل، بل وهجر البلاد، ومنذ ذلك الحين، اتخذ الفلاحون أساليب مختلفة للمقاومة، كان من أهمها الامتناع عن دفع الإيجارات والتحايل على إجراءات الحجز... كما ظهر أسلوب عنيف من أساليب المقاومة أحيانًا فى شكل حرق المزروعات قبل حصدها أو بعده. ولكن

نضال الفلاحين لم يكن قاصرًا على النضال الاقتصادى والاجتماعى، وإنما هم قد ساهموا مساهمة فعالة فى ثورة مصر القومية ضد الاستعمار، وفى حركات المطالبة بالحياة الديمقراطية الدستورية فى البلاد. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما قام به الفلاحون فى الدلتا والصعيد من نضال وطنى شديد خلال ثورة ١٩١٩، وخلال المعارك القومية والديمقراطية التى دارت فى البلاد فى سنوات حكم زيور (١٩٢٥)، وحكم صدقى (١٩٣٠ ـ ١٩٣٣)، ومرحلة النضال ضد الاحتلال فى منطقة القنال (١٩٥١). ومنذ عهد إسماعيل تولت الطبقة الوسطى والقوى الرأسمالية الناشئة اقتراح الإصلاحات لمواجهة سخط الفلاحين..».

ففى أوائل القرن العشرين حدد محمد فريد باسم الحزب الوطنى برنامجه الزراعى:

١ ـ تخفيض الضرائب على الأراضى الزراعية.

٢ ـ إنشاء نقابات المزارعين (أى أصحاب المزارع، دون العمال الزراعيين) الدفاع عن المستأجر ضد المرابين.

٣ ـ إنشاء الجمعيات التعاونية الزراعية.

وبعد ثورة ١٩١٩ ظهرت مطالب جديدة أهمها:

١ ـ إلغاء ديون الفلاحين الذين يملكون أقل من ٣٠ فدانا.

٢ ـ إعفاء الفلاحين الذين يملكون أقل من عشرة فدادين من الضرائب.

٣ ـ إنشاء مصارف تعاونية لصغار الفلاحين.

أى أن توزيع ملكية الأرض ـ وهى مسألة المسائل ـ لم تمس، إلى أن جاءت الموجة الثانية من حركتنا خلال الحرب العالمية الثانية، فظهرت فكرة تحديد الملكية الزراعية: تبناها فى الداخل محمد خطاب عام ١٩٤٤، و«لجنة العمال للتحرر الوطنى» عام ١٩٤٦ ثم ٧٦ مرشحًا لانتخابات ١٩٤٩ والنائب إبراهيم شكرى عام ١٩٥٠، ومن بعده على الشيشينى. وتوالت التقارير الرسمية الأمريكية تطالب بإصلاح زراعى محدود فى الدول المتخلفة ـ فى آسيا وإفريقيا ـ لدرء الخطر الشيوعى وخاصة بعد انتصار ثورة الصين الشعبية.

ورأى الجناح المصرى للرأسمالية المصرية أنه من المصلحة نقل رؤوس الأموال من القطاع الزراعى إلى القطاع الصناعى، فصدر قانون الإصلاح الزراعى يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢، وقوبل بمعارضة شديدة من قبل كبار الملاك، وحقق بعض النتائج: فقد ارتفعت نسبة الفلاحين الذين يملكون أقل من خمسة أفدنة من ٣٥,٥٪ قبل ١٩٥٢ إلى ٤٩,٦٪ بعد الإصلاح. انخفضت نسبة الذين يملكون أكثر من ٥٠ فداناً من ٣٤,٢٪ إلى ٢٠,٤٪ وظلت الطبقة الوسطى (من ٥ إلى ٥٠ فدانا) هى هى، أى ٣٠,٣٪ ، ولكن رأس المال النقدى المتحرر من الأراضى الزراعية قد بلغ سنة ١٩٥٥ نحو ٤٥ مليون جنيه، لم يتجه إلى الصناعة إلا بقدر ضئيل: ستة ملايين جنيه فقط.

سوف تتجه مصر شيئًا فشيئًا إلى تملك الفلاحين مزيدًا من الأرض التى يطلبونها، ثم إلى الزراعة التعاونية، فى مجتمعنا الصناعى الجديد كانت هذه الأفكار التى خلصت بها من مطالبة هذا الكتاب الخطير، وعلى لسان عشرات الأسئلة والاعتراضات فلتكن هذه السطور إذن مجرد استعراض ومجرد بداية.

ـ ٤٨ ـ

١٩٤٦ ـ ١٩٤٨
كفاحنا من أجل حزب مصرى تقدمى من نوع جديد

البحث فى التوجه العام للحركة الشيوعية المصرية يتخذ عادة شكل المسلسل التاريخى بكل ما يشتمل عليه من ثراء فى الإنجازات والتناقضات، وكذا الأزمات والفتوحات، وكلها تمثل ثمار مسيرة طويلة جعلت من الحركة الشيوعية المصرية وسامًا من ذهب على صدر حركتنا الوطنية التحريرية المصرية، رغم التنكر والتغييب.

وعندنا أن المنهج الذى يكشف عن محاور التحرك والمغزى التاريخى للحركة الشيوعية المصرية يجب أن يعنى بمراحل التحول التى تتبدى دومًا على شكل التناقض الجدلى الولاد. كان هذا على وجه التحديد مغزى مرحلة ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨ التى ما زالت تعمل فى أعماق الحراك السياسى فى مطلع عام ٢٠٠٦، أى ستون سنة بعد صعود «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» ـ رمز الجبهة الوطنية المتحدة على أرض الوطن ـ إلى النور.

الخيارات كانت آنذاك من حيث الشكل بين مفهومى الحزب الشيوعى: أهو حزب الطبقة العاملة؟ أم فى مقابل ذلك حزب القوات الوطنية والديمقراطية؟

وقد اتخذ هذا الخلاف المتفجر على السطح شكل صراع حاد بين التوجه الوطنى القومى من ناحية وتوجه شعوبى تحديثى، على أن كليهما كانا يدوران فى دائرة الأممية الشيوعية السائدة آنذاك.

الاتجاه الأول والثانى تواجدا جنبًا إلى جنب فى دائرة المنظمتين الرئيسيتين ـ «الحركة المصرية للتحرر الوطنى»، «شرارة» ـ اللتين انصهرتا بعد وحدة صيف ١٩٤٧ فى «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى»، وما تفجر فى قلبها من أزمة حادة

تمثلت فى إنشاء «التكتل الثورى». هذا بينما ظل تنظيم ثالث للعمال والفلاحين (د.ش) يغلب عليه الطابع الديمقراطى يؤكد مشاركة العمال والفلاحين فى العملية السياسية التقدمية المصرية.

والحق أن الخلاف الذى تفجر فى خريف سنة ١٩٤٧ لم يكن وليد يومه، بل إنه كان ينبع من رؤيتين مختلفتين فى الجوهر لطابع الحركة الشيوعية المصرية ورسالتها وأهدافها فى ثورة مصر المعاصرة.

أولاً: «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» منذ تأسيسها فى مطلع الأربعينيات بقيادة الرفيق يونس، ثم غالبية التنظيم الناتج عن وحدة هذه الحركة مع منظمة «شرارة» الذى اتخذ اسم «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حِدتُّو) حول قيادة مركزية تزعمها «يونس»، كانت ترى أنها حركة شعبية ثورية فى قلب الحركة الوطنية المصرية تهدف إلى تأكيد الطابع التحريرى والتقدمى للحركة الوطنية المصرية.

ومن هنا كان تقديم خط سياسى هو «خط القوات الوطنية والديمقراطية» يؤكد التناقض مع ـ والتمايز عن ـ مصالح الرأسمالية الوطنية المصرية (أى الرأسمالية المصرية التى كانت تلعب دورًا وطنيًا مرحليا، فى مقابل الرأسمالية اليمينية شريكة الاستعمار والسراى). وقد تمثل هذا الخط فى مجموعة من الأهداف الوطنية والديمقراطية، التى كانت تلقى صدى واسعًا بين جماهير الشعب المصرى، وهى التى كانت بمثابة قاعدة صياغة «المبادئ الستة» للضباط الأحرار بعد انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢، حتى ارتفاعها إلى مقام النظرية القومية الرسمية أو تكاد فى «ميثاق العمل الوطنى» الذى انبثق عن المؤتمر الوطنى للقوات الشعبية (مايو ١٩٦٢).

كان هذا الخط يعبر عن برنامج عمل الحركة الشيوعية المصرية فى قلب الجبهة الوطنية المتحدة، أو بوجه أدق، فإنه كان يمثل رؤية برنامج عمل الجبهة الوطنية المتحدة على تنوع مكوناتها.. أى أن هذا الخط كان خط الجبهة وليس خط حركة شيوعية مصرية لها خصوصيتها من حيث الرؤية والرسالة وأدوات الإنجاز التنظيمية، أى أنها كانت بمثابة الرادف الراديكالى على يسار الحركة الوطنية. وهو الذى أصبح الجو السائد فى قطاع من الحركة الوطنية التقدمية إلى اليوم: تنتقد القيادة الوطنية، ولكن دون الطموح فى إقامة جبهة وطنية متحدة بقيادة شيوعية مستقلة تتمايز أهدافها عن أهداف التحرر

والديمقراطية الشكلية والتنمية، وهو جو واقعى يمكن تفهُّمُه، وإن كان يمثل الخلط بين الشخصية السياسية وبرنامج العمل، مما ترتَّب عليه ضعف مضطرد للتوجه التقدمى على أرض الوطن بشكل ملفت للمؤمنين والخصوم على السواء.

ثانيًا: وفى مقابل هذا التوجه الذى كان سائدًا إلى حد بعيد: وما زال يحتل ساحة هامة من الساحة المتاحة لليسار المصرى، كانت هناك رؤية سياسية ـ ثورية ـ حضارية بكل معانى الكلمة تشكلت فى قلب تنظيم «شرارة» منذ مطلع الأربعينيات ثم رفع لواءها شهدى عطية الشافعى ورفاقه فى «التكتل الثورى» (فبراير ١٩٤٨) ثم امتدت بدرجات متفاوتة بعد تقسيم فلسطين وحريق القاهرة فى أشكال تنظيمية جديدة من بينها منظمة الحزب الشيوعى المصرى «ثم تنظيم الوحدة» باسم «الحزب الشيوعى المصرى» منذ تأسيسه فى يناير ١٩٥٨ حتى حله فى أبريل ١٩٦٥.

هذه الرؤية تتمركز حول ثلاثة محاور:

١ ـ رسالة الحركة الشيوعية المصرية إنما هى قيادة ثورة شعب مصر من أجل التحرر من الاحتلال والقضاء على اليمين الرأسمالى السمسارى عميل الاستعمار قاعدة للانطلاق نحو نهضة حضارية لمصر فى قلب مجموعة حركات وثورات التحرير فى القارات الثلاث، وخاصة فى الدائرة العربية.

٢ ـ ومن أجل تحقيق هذه الرؤية فإنه يصبح لزامًا على الشيوعيين المصريين إنشاء طليعة قيادية مغايرة كما جاء فى نداء شهدى التاريخى فى افتتاحية «الجماهير» «نريد حزبًا من نوع جديد». وهذا الحزب من النوع الجديد، حزب الطبقة العاملة، أى بالمعنى الشامل حزب الشعب العامل، يجب أن يتمحور حول هيئة من الكادر الذى يتلقون التكوين النظرى العلمى يدًا فى يد مع الممارسات الميدانية فى كافة مجالات عمل الدولة المصرية المعاصرة. وهو ما تم بالفعل فى اللجان المتخصصة لـ «دار الأبحاث العلمية» فى القاهرة والإسكندرية بين ١٩٤٢ ـ ١٩٤٦ (لجان الاقتصاد والسياسة الخارجية والتعليم والزراعة والمواصلات والسياسة الداخلية والعلوم، إلخ)، إذ كان على كل عضو فى التنظيم، أن يتلقى نوعين من التكوين النظرى والتكوين السياسى الماركسى فى مدارس كادر منظمة «شرارة»، ثم التكوين السياسى العام والميدانى فى لجان «دار الأبحاث

العلمية» وذلك على مدى عامين من العمل المكثف ليلاً نهاراً، وكان التقدير أن مرحلة صياغة الكادر الأولية خلال هاتين السنتين سوف تمتد إلى نحو عقدين من الزمن فى ميدان العمل السياسى والجماهيرى والفكرى. كان الهدف فى الجوهر هو تكوين كادر الدولة الوطنية الشعبية البديلة القادرة على فتح الطريق أمام نهضة مصر على أيدى أبنائها وكوادرها ومفكريها.

٣ ـ **أما المحور الثالث** والأخير فهو الجو المحيط بكل خطوة بداية ونهاية، ألا وهو سيادة الانتماء الوطنى والولاء الأوحد للوطن، والارتكاز على كوادر المصريين، دون أدنى مشاركة لإسهام الأجانب، وهو ما عرف باسم «تمصير» الحركة الشيوعية المصرية بعد «التعميل».

وقد تفجر الانقسام بين الاتجاهين بدءًا من ديسمبر ١٩٤٧ عندما فرضت دول الغرب الكبرى تقسيم فلسطين، وإقامة دولة صهيونية على أرضها العربية لتكوين قلعة هجومية ضد الحركات التحريرية والدول الوطنية فى عالمنا العربى، وفى مقدمتها مصر شعبا ودولة، عند هذا الحد اتجه دعاة خط «القوات الوطنية والديمقراطية» إلى تفهم الواقع الجديد بحجة ضرورة الاعتراف بمقولة تسلسل مناهج الإنتاج، أى الاعتراف بأن الكيان السياسى العنصرى الغربى الدخيل يمثل ـ لكونه أوروبيا غربى الأصل ـ مرحلة متقدمة على النظم الاجتماعية العربية، التى قالوا إنها إقطاعية، بينما لم تكن كذلك على الإطلاق، بل كانت على وجه التدقيق نظم رأسمالية متخلفة يغلب عليها الطابع الزراعى تحت هيمنة كبار المُلاَّك الذين قادوا هذا الاقتصاد الرأسمالى فى إطار التبعية للاستعمار العالمى آنذاك.

أمَّا خط الحركة الشيوعية الوطنية المصرية فقد رفع لواء الحرب التحريرية ضد الصهيونية شريكة الإمبريالية، مما فتح أبواب الجبهة الوطنية المتحدة على ساحتها الأوسع، التى امتدت لتشمل غالبية الشعب العظمى، بما فى ذلك أبناء قواتنا المسلحة، والتوجه الإسلامى الوطنى المصرى، حول رمز «محمد طلعت حرب» و«خالد محمد خالد».

ثالثًا: مرة أخرى يتبدى عام ١٩٤٦ بوصفه الفيصل وخط الضوء والمحك. كان انتخاب مندوبى المدارس والكليات الجامعية من ناحية، وكذا ممثلى كبرى الاتحادات النقابية العمالية من ناحية أخرى جاءت قاعدة لانتخاب «اللجنة الوطنية للعمال

والطلبة» فى ربيع ١٩٤٦، لتكون أول جبهة شعبية منتخبة فى تاريخ مصر السبع ألفى. وقد بلغ من تأثيرها أن بياناتها الصادرة يوم الخميس من كل أسبوع تعبر عن رأى شعب مصرى فى قرارات مجلس الوزراء يوم الأربعاء، بحيث تم ازدواجية القيادة السياسية فى البلاد، حتى الحملة التى أعلنها إسماعيل صدقى باشا فى مطلع يوليو ١٩٤٦ ضد ما أسماه المؤامرة الشيوعية الكبرى، ليضع حدًّا مؤقتاً لنشاط اللجنة. ومن الملفت أن معظم كوادر اللجنة الذين تم انتخابهم من القواعد الشعبية لأول مرة فى تاريخ مصر جاءوا من أعضاء «دار الأبحاث العلمية» أى التعبير القانونى العلنى لمنظمة «شرارة» بما فى ذلك الأمينة العامة الآنسة لطيفة الزيات الطالبة بكلية آداب جامعة القاهرة. بينما جاء الأعضاء العمال المنتخبون من القادة النقابيين غير الحزبيين، وكذا من أعضاء منظمة «طليعة العمال»، المستقلة الموازية لغالبية الشيوعيين المجتمعين فى «حدتو» آنذاك.

كانت إذن «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» هى الشكل السياسى والتنظيمى للجبهة الوطنية المتحدة، وليست هى عين التنظيم الشيوعى. هكذا تم التمييز بين التنظيم الشيوعى المتجه إلى تكوين منظمة الكادر النابعين من صفوف الشعب العامل بأوسع المعانى لتمكينة من تقديم البديل لحكم اليمين، الرأسمالية التابعة وكبار الملاك الإقطاعيين حلفاء الاستعمار آنذاك على أرض مصر. تم التمييز إذن بشكل ساطع، ولم يعد لمفهوم «خط القوات الوطنية والديمقراطية من مقام مؤثر بين صفوف الحركة الشيوعية المصرية التى اتجهت ـ كما ذكرنا ـ إلى التوحد فى الحزب الشيوعى المصرى».

❁ ❁ ❁

بقيت كلمة لا بد منها تعنى بالمستقبل الذى يصنعه الوطنيون من تاريخ الوطن.

لم يعد خلاف الماضى فى مقام ملهم، دعنا من صانع القرار. فقد تغير العالم. انهار نظام القطبية الغربية الثنائية بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتى الأسبق، وذلك بعد تفكيك الجبهة الاشتراكية الغربية بين ١٩٨٨و ١٩٩١. ثم انطلقت حركات وثورات وحروب التحرير حول المسيرة الطويلة فى الصين، وقامت دول وطنية اشتراكية شامخة فى الصين وفيتنام وكوريا الشمالية وكوبا، وقد واكبتها محاولات التقدم نحو الاشتراكية فى العديد من الدول الأخرى، وإن أعوزها النجاح، وقد واكبت هذه الانتصارات اتساع رقعة الدول المستقلة، بدرجات متفاوتة من الاستقلالية عن الإمبريالية فى آسيا

وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وكان لمصر بين السويس والسد العالى وأكتوبر دورًا نيرًا فى هذا المقام. وها هو ذا عالم جديد يتشكل اليوم من حولنا، يتجه نحو نظام عالمى متعدد الأقطاب والمراكز والثقافات بعد انحدار الهيمنة الأمريكية، وتمايز أوروبا عنها سعيًا إلى صيغة جديدة تطلع اليوم إلى الصف الأول من تاريخ العالم الجديد الصين ثم روسيا والهند، وكذا مجموعة آسيا الشرقية، من اليابان، إلى مجموعة آسيان، ثم إيران والبرازيل، وكذا ألمانيا ومجموعة «ميركوسور» فى أمريكا الجنوبية ومشروع وحدة أوروبية فى الطريق، إلى جانب الولايات المتحدة بعد زوال مكانتها المرحلية المتفردة.

تغيير العالم يجعل لزامًا على الشيوعيين المصريين أن يقودوا تحرر مصر وعودتها إلى العروة الوثقى مع رفاق المسيرة الطويلة، ورثة مؤتمر باندونج التاريخى، أى فى كلمة العمل إلى قيادة وثبة شعوب الشرق، واحتلال الشرق الحضارى مكانة الصدارة فى عالم الغد القريب الذى نحن منه وإليه.

ومن هنا نتبين كيف كانت جذور التوجه المصرى السياسى والحضارى للحركة الشيوعية المصرية لطريق الغد القريب، إيذانا بإشراق حزب شيوعى مصرى من نوع جديد بعد إزاحة قوانين التجريم التى فرضها تحالف الإمبريالية والرجعية منذ نهاية العشوائيات من القرن العشرين.

ـ ٤٩ ـ

محمد سيد أحمد: كيف تكون الأصالة؟

وقفة ليست من باب الرثاء، وإنما تحية الإجلال لأخى، صديق العمر محمد سيد أحمد.

لوحة أولى بدأت عام ١٩٤٢ تعلمنا من أستاذنا الفرنسى جرانييه RENE GRAMER الفلسفة الماركسية وقد كان من قبل أستاذًا لأنور حوجة، رئيس جمهورية ألبانيا الاشتراكية الأسبق، ثم دعوناه إلى «دار الأبحاث العلمية»، القلب النابض للحركة السياسية والفكرية لطلائع شباب مصر الوطنى الثورى من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٦ وإذ به يطرق باب الدار فى شتاء ١٩٤٥، حيث استقبلتُه ضاحكًا. بدأ المشوار السياسى بعد الكتب. كان محمد من ألمع أعضاء لجنة السياسة الدولية فى الدار، وهى المؤسسة التى حددت تكوين كادر الثورة من أجل التحرر والديمقراطية الشعبية صوب النهضة الحضارية هدفًا لها، كما حدده كتاب «أهدافنا الوطنية» لشهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى ملهمًا فكريًا لـ«اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» فى النصف الأول من عام ١٩٤٦، حول شهر فبراير التاريخى، الذى يذكره شباب العالم رغم التغييب فى قلب دياره.

ثم اللوحة الثانية بدأت موجة القمع الكبرى الأولى على أيدى إسماعيل صدقى باشا (الذى كان زوج عمة محمد ابن الباشوات) يوم ١٠ يوليو ١٩٤٦، حيث تم إغلاق جميع النوادى والصحف ودور النشر الوطنية والتقدمية، وألقى بنحو ١٠٦٠ مناضلاً إلى السجون، جلهم من الشباب ومعهم: سلامة موسى ومحمد مندور. ثم توالت ضربات مخطط إجهاض ثورة مصر التحريرية: تقسيم فلسطين، ثم الحرب على أرضها الجريحة، الأحكام العرفية من ١٩٤٧ ونهاية ١٩٤٩، معتقل الطور، وهو المخطط الذى

بلغ ذروته يوم حريق القاهرة، يوم الجمعة الحزينة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢. استولى الضباط الأحرار على السلطة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بدعم من القوى الوطنية والتقدمية التى أصرت على إطلاق الحريات والديمقراطية فى مصر. وارتفع فى مواجهة هذه الجبهة الوطنية الطالعة صوت المنادين بـ«أزمة المثقفين» يستعدون الحكم المصرى الجديد ضد اليسار، مما دفع بالمئات من الكوادر السياسية والثقافية الطليعية إلى معتقل «أبو زعبل» أولاً (١٩٥٤ ـ ١٩٥٦) ثم وبعد الجبهة الوطنية المؤقتة حول جريدة «المساء»، الزج بالآلاف فى معتقل الواحات بين (١٩٥٩و ١٩٦٤) حيث لقى العشرات حتفهم وانتشر التعذيب ـ افترقت طرقنا مؤقتا، إذ كنت من نصيب الحملة الأولى، بينما التهمت محمدًا نيران المرحلة الثانية، ودفعتنى إلى المنفى الإجبارى.

اللوحة الثالثة، بعد تفتيت الحركة التقدمية، ثم إنشاء مجلة «الطليعة» ومن بعدها حزب التجمع فى جو عبور أكتوبر ١٩٧٣. جعل محمد سيد أحمد من حياته، ليلاً نهارًا، دراسة السياسة الدولية وتفاعلها مع استقلال مصر وأمنها، وذلك بدقة علمية وعمق فكرى ونظرة رحبة تحاول التعامل مع عالم جديد دخل إلى مرحلة الهيمنة الشرسة الأمريكية الصهيونية بعد تفكك نظام القطبية الثنائية الغربية عام ١٩٩١. مرحلة «الأهرام» وكذا «بعد أن تسكت المدافع» وهى لم تسكت.

نحو خمس وخمسين سنة من الكفاح دون هوادة ولا تردد فى سبيل مصر، رغم القمع والعذاب ـ كان بوسع ابن الباشوات أن يحتل مقام رجل دولة مرموق ـ ولكن الإصرار على التغيير أصاب جيل الثورة والنهضة فى الصميم ـ لم يسكت محمد سيد أحمد ـ لم يلق سلاح القلم والفكر. ظل وفيًا لحلم شبابنا بأن شعب مصر صاحب تركة «أم الدنيا»، بينما انصرف الانتهازيون إلى التغنى بنشيد «أنا المشروع والمشروع أنا».

عبر أكثر من نصف قرن ورغم الظلمات، رفع محمد سيد أحمد لواء الأصالة الأخلاقية والوطنية والحضارية إلى قمة أمتنا. يلقى ربه إذن قرير النفس. لن تنسه مصر.

ـ ٥٠ ـ

فيليب جلاب: فى حب مصر

شاب وسيم، مشدود القوم، دمث الأخلاق، يمزج بين التواضع والنكتة الخاطفة، يتحسس طريقه إلى العاصمة، هكذا كان لقاؤنا الأول فى نهاية سبتمبر ١٩٥٠ فى قاعة المحاضرة الأولى لقسم الفلسفة بكلية آداب جامعة إبراهيم باشا الكبير (الاسم الأول لجامعة عين شمس عند تأسيسها على أيدى طه حسين وحسب تخطيطه) المحاضرة الأولى للسنة الأولى، التأسيسية فى مبنى مؤقت بحى شبرا حول أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى. شاب من «طما» من أعماق صعيد مصر يدخل القاهرة طالبًا للعلم من باب التساؤل الفلسفى. أول لقاء ما زال حيا، ناصعًا فى قلبى بعد ٤٢ عامًا، تضافرت فيه مساراتنا، وتنوعت، ثم افترقت بحكم المكان. حقيقة مثيرة، ثرية، مأساوية من تاريخ مصر عبر الحركة الوطنية، والحركة التقدمية فى قلبها، ثم عصر الثورة والحرب.، وتعديل المسار. لم تنقطع الصلة، لم يتوقف الحوار. لم ينس أحد منا صديقه أو يتناسَ.

رأيته زميلاً فى جريدة المساء فى مرحلة الجبهة الوطنية المتحدة (١٩٥٦ ـ ١٩٥٩) برئاسة خالد محيى الدين. ثم علمت كيف أنه تغلب على جراح الاعتقال. وعاد إلى الصحافة محررًا كاتبًا، مشاركًا فى تحرك مصر السياسى والفكرى داخليًا وخارجيًا من أوسع الأبواب، حتى تولى رئاسة تحرير جريدة «أهالى» مصر وجعل منها منبرًا حيًا ومنيرًا متقدًا للخطر العام لمسيرة مصر الطويلة، إلى أن جاء يوم الفراق: فى صباح الثلاثاء ٤ فبراير ١٩٩٢، اختتم مكالمتنا التليفونية بعبارته الباسمة «تحياتى» وبعد ساعات، صباح الأربعاء ٥ فبراير ١٩٩٢، غادر هذه الدنيا، فاهتز وجدان مصر وضميرها وعقلها ووجدانها فى الأعماق. وكانت مظاهرة الوداع أبلغ مظاهرة لحب الوطن ووحدته.

من أين نبدأ، لو أردنا أن ننفذ إلى معانى ومغزى مسيرة فقيد مصر الحبيب فيليب جلاب؟

ـ **المدخل الأول: فى حب الوطن، وتأكيد وحدته**، مدخل المواطنة، منذ مطلع الشباب، ظلت مصر هى «الهم» الهدف الأسمى، والملاذ. من هنا كانت نظراته إلى أولوية وحدة مصر بالنسبة لأى اعتبار لاحق، وفى كافة الظروف والأمور، وأيًّا كان حجم القضايا والتحديات. وحدة مصر أولاً وفوق أى اعتبار. وحدة مصر الوطن، المسلمون والأقباط، أى: النسيج العميق لشعب مصر، أقدم أمم العالم، وحدة مصر الوطن بالمعنى السياسى، أى وحدة جميع القوى الاجتماعية والسياسية والفكرية التى تصنع تحرر الوطن، ولتعميق الحريات على أرضه، وتقدمه فى سلم الرقى الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والثقافة، فى سلم النهضة الحضارية. إنه مفهوم الجبهة الوطنية المتحدة الذى رفرف حول أولوية الحركة التقدمية المصرية منذ الأربعينيات فى مواجهة الحملات المتلاحقة لتفرقة الصفوف، ودس الفتن، واستغلال الخلافات والتناقضات، وحدة مصر الوطن بالمعنى القومى، قلبًا للأمة العربية بحكم التاريخ والمكانة والثقل، وحدة مصر الوطن بالمعنى الحضارى ـ الوحدة الجامعة ـ أى العمل الدائب على إحاطة الوجدان والعقل والتحرك المصرى نسيج من الاطمئنان إلى حتمية النهضة، رغم الظلم والتردى وبوادر الانحدار، رغم الانكسار.

ـ **المدخل الثانى: فى حب الشعب، شعب مصر العامل**، يدًا فى يد مع شعوب العالم المناهضة ضد الاستعمار والظلم، من أجل التحرر والحياة الإنسانية الكريمة والتقدم. من هذا المدخل كان اختيار فيليب للاشتراكية باعتبارها توجهًا عامًا للفكر والعمل منذ بدء الدراسة الجامعية، من خلال محاوراتنا ومناقشاتنا الفياضة فى رحاب الجامعة، وكأنه يبحث لميله الوطنى الشعبى الفطرى إلى الاشتراكية، المقدمات والمسوغات الثابتة من مسيرة جيلنا فى الأربعينيات. والحق أن هذه السنوات الأربع التى قضيناها معه فى دراسة الفلسفة كانت بمثابة مدرسة الحوار السياسى والفكرى أعتقد التى صهرت توجه حياة فيليب مرة أخرى حول محور الوحدة: وحدة الأجيال المتعاقبة للحركة التقدمية المصرية. فى قلب الحركة الوطنية، المصرية، لا على هامشها اليسارى كما أرادت قلة آنذاك. وقد تأكد فيليب من صحة هذا التوجه العام من خلال الممارسة

السياسية لإرساء معانى الجبهة الوطنية المتحدة فى تعامل الحركة التقدمية الاشتراكية مع قيادة ثورة يوليو، وخاصة أثناء العدوان الثلاثى والمقاومة الشعبية عام ١٩٥٦، ثم مرحلة «المساء» الرائد، وأخيرًا مرحلة العودة إلى تأكيد معانى التحالف بعد ١٩٦٤، عندما انتهت «الحرب فى الظلام» واستعادت الحركة التقدمية الاشتراكية مكانتها المعنوية على أرض الوطن.

خطوات فى مسيرة مدرسة الفكر والعمل الوطنى التقدمى التى أصبح فيليب جلاب واحدًا من رموزها بحيث جاء اختياره لرئاسة تحرير «الأهالى» بوصفها «جريدة كل الوطنيين» متسقًا مع مسار حياته السياسية، وخاتمة لمرحلة خصبة نيرة من رسالة حزب التجمع الوطنى الوحدوى فى عصر تغيير العالم وصياغة عالم جديد.

ـ **المدخل الثالث: فى منهج الأداء، منهج الحوار التساؤلى المنفتح دون الجمود الفكرى السطحى.** لعل هذا المدخل فى حاجه إلى بعض الإيضاح، سيما وأن هناك من يتصور أن منهج فيليب فى الكتابة السياسية ـ وكذا فى الحياة ـ كان من باب «التنكيت» وإعمال «دبوس» النقد اللازم فى تحليل الحركة الاجتماعية والسياسية والثقافية. وعندنا منهج «الحوار التساؤلى المنفتح» ينبع من المدخلين السابقين ـ حب الوطن ووحدته، وحب الشعب ـ ويرتكز عليهما بشكل منطقى ثابت. كيف يمكن الحفاظ على وحدة الوطن رغم تراكم عمليات العزلة والتقسيم والتفتيت من الخارج والداخل معًا؟ أوليس منهج الجمود الفكرى واليقين الثابت الذى لا يعرف التساؤل ـ وبالتالى يرفض المساءلة ـ خير سبيل لتعميق الهوة وبالتالى تحقيق أمانى أعداء وحدة مصر؟ أدرك فيليب بذكائه المرهف وحسه الوطنى الشعبى العميق أنه لا بد من فك الاشتباك. وهنا عاد إلى تراث الريف المصرى وكذا إلى دروس رواد الفلسفة فى يونان القديمة، وعلى وجه التخصيص سقراط وأفلاطون (بعد إقامته المصرية لسنوات خمس) كما عرضت لهما المحاورات الفلسفية. السؤال، التساؤل يقود إلى العديد من القنوات، ويساعد على فتح الثغرات، أى إلى تفهم الغير، ومن ثم إلى توسيع رقعة التفاهم. السؤال ـ التساؤل عن: أسباب تنوع الاجتهادات، اختلاف التحليل، تباين الرؤى، غموض نواحى غيابها أو تغيبها، تمسك هذا الطرف أو ذاك بما يبدو ثانويًا أو هامشيًا، إلى غير ذلك من أسباب ومعانى الاختلاف والخلاف. لو واجهنا بالإعلانات

المذهبية الجامدة لتجمدت الأمور، واتسعت هوة الخلاف، فى كلمة: أصبحت وحدة مصر ومكانة شعبها الفعالة مهددة بالتمزق والانزواء. من هنا بدأت فكرة «الدبوس».

يثير الانتباه ويركزه، يعرى الظاهرة الشاذة، يجمع شمل القراء ـ بنات وأبناء الوطن الواحد ـ مصر ـ فى جو وجدانى ـ فكرى سياسى يتفق وصالح الوطن والشعب.

من هنا، من تواكب هذه الروافد الثلاثة كانت مكانة فيليب جلاب فى قلوب كل من أحب أن تكون مصر للمصريين وعاش من أجلها. من هنا، من هذه المكانة الثابتة كان دور فيليب جلاب فى رفع شأن التوجه الوطنى التقدمى فى قلب حركتنا الوطنية المصرية والعربية. وساما من ذهب على صدرها الجريح. من هنا كان حب الناس والذى تحث مواكبة لتقدير دولة مصر الوطنية، من هنا كانت ظاهرة فيليب جلاب.

شاب وسيم، مشدود القوام دمث الأخلاق، يمزج بين التواضع والنكتة الخاطفة، شاب باسم جاء إلى القاهرة من طما، درس وكافح وأنتج فأحبته قلوب شعب مصر، ورفعته إلى مصاف كبار أبنائها، فأنصفته عبر الدموع والأسى، فى اجتماع وطنى نادر جمع كافة القوى السياسية ومدارس الفكر والعمل والأديان والأعمار ـ خاتمة مسيرة منيرة بين مسارات التراچيديا المتفائلة التى تحكى مصرنا فى هذا العصر القاسى.

«يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك» نعم فيليب جلاب، أيها الأخ الصديق النبيل الأصيل، أهلاً وسهلاً بك، وأهلاً وسهلاً بك إلى جوار ربك وفى رحابه، جنبًا إلى جنب مع كل من أحب مصر وعاش فى سبيلها.

ـ ٥١ ـ

جمال حمدان: فى أصول الشخصية المصرية

محطة اليوم مع زميل صديق نبيل عزيز يعيش دائما فى الذكرى والوجدان. تشاء الظروف أن يذكر الجيل الجديد من شباب مصر اسم جمال حمدان, رغم تغير الظروف وتبدل الأحوال. تشاء الظروف بأن الراحل الكبير استطاع أن يقدم المعالم الرئيسية لفكرة الچيو ـ سياسى والچيو ـ إستراتيچى حول شخصية مصر فى المرحلة التى راحت فيها أمتنا دولة وشعبا تستعد فى محو نكسة يونيو ١٩٦٧, أى, وبالتحديد: مرحلة حرب الاستنزاف والاستعداد لعبور أكتوبر ١٩٧٣ قبل أن يحاصر سياسيًّا.

ومن هنا, لا يمكن أن يكون موضوع هذا اللقاء الجديد ـ فى المرة تلو المرة ـ لتقديم أفكاره, وقد تزايد عدد الكتابات والندوات حول هذا الموضوع, حتى ولو كان من الواجب أن يحرص عدد غير قليل من الذين تصدوا للتقييم والتقديم.

تقديم جمال حمدان وكذا تقديم أنفسهم أن يدققوا النظر فى نواح أصبحت غير مرغوب فيها فى أيامنا من الأفكار الرائدة أو الإشكالية التى عبرت عن جيل ٢٣ يوليو ١٩٥٢. أذكر بهذه المناسبة ـ بين قوسين واستسماح القارئ ـ كيف أنه عاش المرحلة الأخيرة من عمره القصير قبل الاستشهاد فيما يشبه عزلة الناسك، قالوا إنها عزلة فرضها هو على نفسه. والحق أنها كانت عزلة اختارها فى مواجهة هرولة قطاع واسع من زملائه المفكرين والمثقفين إلى السير فى ركاب التطبيع باسم السلام حول علامة كامب ديڤيد منذ ١٩٧٥ ـ ١٩٧٨ التقيت به فور عودتى إلى أرض الوطن يوم ١٤ يناير ١٩٧٤, وكان لقاء الروح مع الجيل الجديد. توالت اللقاءات. وقد شاء هو أن يحدد يوما بالذات أستطيع أن أقصده فى صومعته وأطرق الباب بطريقة متفق عليها فينفتح الباب والقلب والوجدان والعقل، ونقضى ساعات تلو ساعات فى تبادل المعانى والنقاش

المتعمق, دون مجاملة ولا محاولة للتجميل والتزيين, علاقة لن أنساها, وربما وجب تقديمها بالتفصيل إلى شباب مصر فى الوقت المناسب. وجدته جريحا متألما, محاصرا بموجات الحسد والنقمة والتنكر التى اضطرته أن يترك منصبه أستاذا للجغرافيا بكلية آداب جامعة القاهرة ليتفرغ للتأليف.

لم يسترسل أبدا فى نقد من أساءوا إليه. كان همه أن ينكب على عمله وأن ينجز جله، وكأنه يشعر أن الأيام المتاحة محدودة.

من هنا رأيت أن أركز على الرسائل الفكرية التى قدمها جمال حمدان, وربما لم تلق الاهتمام الكافى, إذ أنها سلكت محاور غير مألوفة أو مرغوبة.

العدل أساس العمران

الاستمرارية المصرية ليست عملا إراديا.. أو إداريا مصطنعا, أو طارئا, وإنما هى من جل علاقة مجتمع المصريين بالمحيط الجغرافى عبر عشرات الأجيال من التاريخ:

١ ـ «حقا إن الزراعة المصرية عرضة لذبذبات المناخ, وفلاحها من ثم تحت رحمة الطبيعة, لكنك لست بحاجة ـ ولن تستطيع إن أردت, وهذا هو المهم ـ أن تخطط المطر. من هنا فقد تكون الطبيعة سيدة الفلاح, ولكن الفلاح بعد ذلك سيد نفسه. وهذا فى نفس الوقت يمنح الفلاح فرصة للفردية بدرجة أو بأخرى.

أما فى بيئة الرى فالأمر مختلف كل الاختلاف. فالوادى فى فجر تاريخه ليس مصرفا طبيعيا ولكنه مستنقع إسفنجى ملارى مشبع. ولا زراعة ولا تعمير إلا بعد التصريف و«التقييل». لا بد ـ يعنى ـ من مجهود بشرى جماعى ضخم حتى تعد الأرض مجرد إعداد لاستقبال الذرة. وبعد هذا فلا بذر حتى توصل المياه إلى الحقول, أى لا بد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية إلى مساقى الحقول. حتى تزرع إذن لا بد لك أولا من أن تعيد خلق الطبيعة. ثم ما جدوى تلك الشبكة إذا لم تسيطر على أعناقها ورؤوسها بالنواظم والقناطر والسدود؟ أعنى أى جدوى فيها بغير «ضبط النهر»؟

٢ ـ «وأكثر من هذا, ما جدوى الجميع بغير «ضبط الناس»؟ إن زراعة الرى إذا

تركت بلا ضابط يمكن أن تضع مصالح الناس المائية فى مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة دموية. ذلك أن كل من يقيم على أعلى الماء يستطيع أن يسىء استعماله إما بالإسراف أو بحبسه تماما عمن يقع أسفله. أى أن كل حوض علوى يستطيع أن يتحكم فى حياة ـ أو موت ـ كل حوض سفلى. المصلحة إذن واضحة: بغير ضبط النهر يتحول النيل النبيل إلى شلال حطيم جارف, وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلى عملية دموية, ويسيطر على الحقول قانون الغاب والأدغال. ولو تركت البيئة المصرية غابا اجتماعية لما تطورت عن الغاب الطبيعى الذى بدأت منه».

٣ ـ «فى ظل هذا الإطار الطبيعى يصبح التنظيم الاجتماعى شرطا أساسيا للحياة, ويتحتم على الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع لسلطة أعلى، الموزع العدل والماء بين الجميع, سلطة عامة أقوى بكثير مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد على نهر فيضى فى حياتها ومصيرها. وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح, وإنما بين الاثنين يضيف الرى سيدًا آخر هو الحاكم.

هنا يصبح الحكم والحاكم, وسيطا بين الإنسان والبيئة أو وصيا على العلاقة بينهما، وهمزة الوصل بين الفلاح والنهر. أى أن الفلاح لا يتعامل مع الماء مباشرة, وإنما من خلال الحاكم. وبتعبير آخر فإن الحكومة ــ فكرة وجهازا ــ هى بالضرورة أداة التكامل الأيكولوچى بين البيئة والإنسان. إنها تبدأ نتيجة وضرورة جغرافية, لتنتهى عاملا جغرافيا بكل معنى الكلمة.

ومن تلك العناصر جميعا يتألف فى النهاية المجتمع الهيدرولوجى النموذجى. الذى تنسج خيوطه من ثلاثة: الماء, والفلاح, والحكومة، والأخيرة طرف فى المعادلة لا يقل أصالة وضرورة وحتمية عن الطرفين الآخرين. بل إننا يمكننا أن نذهب إلى حد القول بأن أصل وظيفة الحاكم والحكم فى المجتمع الهيدرولوجى على وجه التحديد هى وظيفة وزارة الأشغال والرى أكثر منها وزارة الزراعة بعامة.

٤ ـ «هذا عن الحكومة, أما عن المجتمع فهو أساسا مجتمع تعاونى منظم لا يعرف من الفردية صورتها الضارية أو الدموية المتوحشة, ويدرك قيمة وحتمية العمل الجماعى المنسق, وأن مصلحته ووجوده رهن بالتضامن والتكافل الاجتماعى, بالنظرة المتفتحة بلا أنانيات محلية أو تعبيرات ضيقة أو نزاعات عدوانية. ويعبر إميل لودفيج عن هذا بصيغة

أخرى هى صيغة الكثافة, كثافة السكان, فيقول وهنا نجد فى القرية المصرية, فى صميم تركيبها وسيكولوجيتها وزراعتها, قدرا كبيرا متوطنا ومتأصلا من التعاونية والمشاركة التلقائية. فالقرية المصرية بالضرورة الجغرافية نووية مجمعة, فهى خلية بشرية متلاصقة متلاحمة: ثم إن أغلب حياة الفلاح هى فى مناخ مصر المشرق فى الهواء الطلق خارج المسكن, وهذا ابتداء يجعله كائنا اجتماعيا غير منعزل أو انطوائى».

ماذا حدث ـ إذن, حتى يصيب الانحدار مصرنا المحروسة؟

كيف بدأ التهميش, وتفشى الأزمة فى الداخل؟ كيف دخلت أم الدنيا إلى ظلام التغييب؟

١ ـ من الذى ورث موضع مصر؟ البرتغال هى التى ورثته, بمثل ما ورثت مصر من قبل موقع العراق, إلا أن الأخيرة وراثة شرعية طبيعية, بينما أن البرتغال سرقت موقعنا فى الحقيقة (بمثل ما سيسرق الأتراك قريبا زعامتنا العربية) على أن دور البرتغال لم يطل, فقد انتزعته منها هولندا وبريطانيا بعد حين, وتجاذبتاه فيما بينهما فى مرحلة مشتركة كمرحلة مصر والعراق فى العصر العربى,إلى أن انفردت به بريطانيا مثلما انفردت به مصر من قبل, ومن ذلك الحين استقر موقع بؤرة وعقدة العالم فيها.

وبمعنى آخر فإن هذا المركز ظل يهاجر ويتحرك محوريا إلى الغرب فإلى الشمال حتى آل موقع مصر الوسيطة الجغرافى إلى بريطانيا الحديثة وبعد أن كانت بريطانيا على هامش المعمورة ونهاية العالم ـ أستراليا العصور الوسطى كما وصفت ـ استبدلت مكانها مع مصر, فأصبحت فى قلب العالم الجديد بنصفيه الشرقى والغربى, كمصر فى قلب العالم القديم بين قاراته الثلاث, وأصبح المحيط الأطلسى هو البحر المتوسط الجديد, بينما تحول البحر المتوسط التاريخى إلى بركة صيد آمنة كبلطيق جنوبى.»

٢ ـ «لعلنا لا نسرف فى التصور والاستنتاج إذ أن هذا الانقلاب التدهورى قد دمغ تطورنا الاجتماعى وتركيب مجتمعنا التاريخى بآثاره, وسلبه إمكانيات واحتمالات نموه الداخلى بمثل ما سلبه موقعه الخارجى, فمن المعروف أن التطور الاجتماعى الذى حدث فى بريطانيا وغرب أوروبا عامة, وأزاح الإقطاع إلى المؤخرة ودفع إلى الصدارة بالبرجوازية التجارية أولا ثم بالرأسمالية الصناعية.

ثانيا: بدأ منذ وبسبب انقلاب العلائق السكانية وعلاقات ما وراء البحار الاستعمارية الجديدة...»

٣ ـ «ومهما يكن من أمر, ومهما طال الانتظار, فقد كانت مصر على موعد مع قدرها لتستعيد مكانها الحقيقى فى الإطار العالمى مع شق قناة السويس فى ستينيات القرن االعشرين وهذا هو الدور الخامس والأخير فى دورات موقعنا الجغرافى، ولكنه وحده ثورة كاملة, ويتطلب دراسة خاصة, غير أن القناة يسبقها عود قصير على بدء العصور الوسطى, يتمثل فى طريق البريد الذى رتبه توماس واجهورن فى أوائل القرن العشرين بين السويس والقاهرة والإسكندرية, جامعا بين الطريق الصحراوى وطريق فرع النيل، ثم جاءت السكك الحديدية فكررت نفس الإستراتيجية فهذا كله وبالدقة هو طريق تجارة العصور الوسطى الإسلامية أساسا, رغم أن الأخير استبدل الطريق الصحراوى أحيانا بترعة مائية فى شرق الدلتا تصل البحر الأحمر بالنيل كقناة أمير المؤمنين مثلا, ولكن الكل طريق برى فى نهاية الأمر, ولذا سمى بالأوفر لاندروت.

وهنا بالتحديد يظهر اختلاف قناة السويس وأصالة إستراتيجيتها, فهى تصل البحرين الأحمر والمتوسط بطريق مائى بحرى بحت ومباشر دون أى حلقة برية وسيطة, وبالتالى فهى لا تنتظم أى انقطاع فعلى أو تعدد فى الشحن والتفريغ. ولذلك فقد جاءت القناة أكبر عامل اختزال فى جغرافية النقل الكوكبية, أعادت توجيه القارات ورجت القيم الجيوماتيكية, فبعملية جراحية جغرافية ـ صغيرة نسبيا ـ اختزلت قارة برمتها هى إفريقيا, وأسرت طريق الرأس أو أعادت وضع الشرق العربى ومصر فى قلب الدنيا وفى بؤرة الخريطة»

٤ ـ من السهل أن نقول إن أوروبا الغربية تدين للقناة بالجزء الأكبر من طفرتها الصناعية والحضارية الحديثة حتى وصلت إلى درجة التشبع.

فهى التى قربت ثروات المستعمرات والمداريات ووضعتها عند أطراف أصابعها بأرخص التكاليف، وهى التى قدمت لها الخامات والأسواق.

حقا لقد وضعت القناة, التى تكاد تلخص موقع البلد, وضعت يد مصر على نبض العالم كله, وأصبحت لها بمثابة مقياس ضغط حساس أو جهاز عصبى دقيق, وأعطتها

نافذة أو طاقة على الدنيا. وحقا ربما كان لهذا نصيب فى سبق مصر النسبى إلى الحضارة الحديثة إذا قيست ببلاد مماثلة، ولكن علاقة الرخاء المتبادلة بين وادى النيل وطريق السويس التى كان يفترض استعادتها. أتت مع إيقاف التنفيذ إن صح التعبير؛ لأن مصر لم تكن تملك القناة، وظلت مجرد متفرجة لا مستثمرة (بلغ دخل القناة فى ١٩٥٥ نحو ٣٥ مليون جنيه. كان نصيب مصر منها مليون جنيه فقط. أى ٣ ٪). بينما عاد الاستعمار وخاصة بريطانيا التى ورثت من قبل موقع مصر الجغرافى الوسيط ليسرق موقعها الحديث!

٥ ـ ولكن وظيفتها بدأت تتطور جوهريا منذ الحرب العالمية الثانية. فقد صفى دورها الاستعمارى القديم أو كاد وأصبحت شريان الزيت أساسا وحلقة الوصل بين الشرق والغرب، خاصة وبعد أن كانت عنق الهند أصبحت بحق عنق أوروبا التى تعيش على البترول. وتعيش فى البترول على الشرق الأوسط، وإذا كان الخليج العربى هو خليج الزيت بامتياز. فإن قناة السويس هى قناة الزيت بالضرورة؛ لأن حركة البترول فيها تمثل ٧٢ ٪ من مجموع الحمولة. بينما تحتكر هى بدورها نقل ٧٠٪ من بترول الشرق الأوسط الذى يتحرك غربا، فهناك إذن زواج اقتصادى وثيق بين بترول العرب وقناة العرب. والقناة اليوم هى أهم ممر عالمى إستراتيجى لأهم سلعة إستراتيجية فى العالم.

لكن مرة أخرى يكشف الموقع نفسه كعامل غير مضمون تماما. فالقناة بدأت تتعرض لضغوط وتحديات ـ ولا نقول أخطارا ـ من عدة مصادر وأنواع يمكن أن نصنفها إلى ثلاثة: الأنابيب. الناقلات الضخمة. إسرائيل.

٦ ـ وعند جمال حمدان أن الخطرين الأولين يمكن تحييدهما بالوسائل التقنية والإصرار على أن تكون القناة تحت السيطرة الكاملة للدولة المصرية وتطويرها بواسطة أرقى التكنولوچيات المعاصرة.

يبقى أخيرًا التحدى الثالث والدخيل. إسرائيل. هذا كما أثبتت التجربة ينقسم إلى قسمين: محاولة منافسة القناة. محاولة شل القناة، فالمنافسة تهدف إلى سرقة موقع القناة. وخنق دورها بدرجة أو بأخرى، ووسيلة ذلك اثنتان: مشروع أنبوب بترول إيلات ـ أشدود. وفى وسط حصار البترول العربى لا يعتمد المشروع إلا على بترول إيران أساسا. ويبقى أن نرى إلى أى حد سيتحقق هذا الاعتماد، أما الوسيلة الثانية فهى مشروع قناة

بحرية منافسة لقناة السويس, تأسر بها جزءا من حركتها, من إيلات إلى قرب أشدود.

أما محاولة شل قناة السويس, فتأتى عن طريق العدوان العسكرى, كما تكرر مرتين حتى الآن، فالعدوان على سيناء يسد القناة آليا ويضعها فى النفتالين, لفترة أو لأخرى, ويؤدى إلى إيقاف موقع مصر بدرجة أو بأخرى, والمغزى الجغرافى لهذا الموقف ـ رغم أنه مؤقت وعابر تماما وأساسًا ـ لا يمكن أن يخطئه أحد: إنه يعود بنا ـ وبالعالم معنا ـ إلى نمط عصر ما قبل القناة, نمط العصور الوسطى مباشرة بكل مركباته وتوازناته: البحر المتوسط وكذلك الأحمر يتحولان إلى زقاق مغلق أو إلى بحار شبه داخلية, موانيها تشكو تضاؤل نشاطها: طريق الرأس عاد كبديل ومنافس بينما أن بدء مصر أخيرا فى مد أنبوب بترولى عالمى بطاقة ٧٠ مليون طن وبطريق السويس ـ القاهرة ـ الإسكندرية يكمل تفاصيل نمط العصور الوسطى أو الأوفر لاند روت بنفس مراحله ومحطاته!

واضح ـ بداهة ـ أن وجود إسرائيل تهديد دائم لكيان مصر وسيادتها، ولكن بما فى ذلك موقعها الجغرافى أولا وعلى وجه التحديد، وإذا كان الخطر الإسرائيلى قد عجز للآن عن تهديد كيان مصر ذاتها, فقد سلبها موقعها الأثير أو عقمه وإن مؤقتا، ووقوع سيناء لا يعنى قط وقوع مصر, ولكنه يعنى بالضرورة توقف القناة, هذا فضلا عن أخطار أنبوب إسرائيل الزاحفة وتلويحات قناة صهيون المزعومة, والأوضح ـ بداهة ـ أنه لا أمان ولا ضمان لمصر مع بقاء إسرائيل, ولن نؤمن قناتنا وموقعنا حقا إلا بذهاب إسرائيل، وعندها أو بعدها يمكن أن نتطلع إلى الصورة الطبيعية لتخطيط موقعنا وتوظيف قناتنا».

على هذا النحو يفهم جمال حمدان ورواد المدرسه الچيو ـ سياسية والچيو ـ إستراتيچية المصرية إستراتيچية السلام.

المستقبل والبعد الآسيوي

إلى هنا, وما زلنا فى الدائرة التطبيقية للفكر العربى, دائرة التفاعل والصراع مع الغرب ـ عبر المتوسط ـ إيجابا وسلبا حسب العصور.

وفجأة، وبدءا من الدائرة العربية، ينطلق جمال حمدان إلى إدراك مكانة مصر، مقامها ورسالتها، فى قلب الشرق الحضارى، فى آسيا منذ القدم وحتى اليوم. يقول:

١ ـ «تعدد الأبعاد والجوانب فى كيان مصر وتوجيهها نتيجة طبيعية ومنتظرة للموقع الثورى فى قلب مثلث القارات. فمصر حلقة بين العالم المتوسطى وبين حوض النيل برمته. ومن الناحية البشرية والاجتماعية البحتة كانت حضارة مصر العربية التى تروى بحضارة أوروبا الوسيطة شمالا تنتكس أثناء مجاعات العصور الوسطى الرهيبة إلى ما يذكر بحضارة العالم الزنجى جنوبا بعجزه وتواكله، ومعنى هذا أن مصر لها بُعدان أساسيان هما البعد الإفريقى والبعد الآسيوى، وكل منهما ساهم فى تكوين شخصيتها وتحديد لونها بنسبة معينة. فالبعد الإفريقى أمدنا بالحياة ـ بالماء والسكان ـ ولكن البعد الآسيوى أمدنا بالحضارة، وبالثقافة والدين منذ العرب وحتى فى العصر الحديث، وفى الجانب السياسى تمثل البعدان فى حركات الوحدة السياسية التى دخلتها مصر مع السودان أولا، ثم مع سوريا بعد ذلك. هكذا تتحدد لنا أبعاد أربعة فى توجيه مصر: الآسيوى والإفريقى على مستوى القارات. والنيلى والمتوسطى على المستوى الإقليمى».

٢ ـ «من بين البعدين القاريين، يذهب الثِقَل والخطر دائما وأساسا للبعد الآسيوى الذى يأتى مبكرا باستمرار، بينما يغلب أن يتأخر الإفريقى زمنيا، فرغم أن مصر فى إفريقيا موقعا، فقد كانت أبدا فى آسيا وقعا، ففى علاقاتها الخارجية كانت مصر القديمة آسيوية أكثر منها ـ أو بقدر ما هى إفريقية ـ وحتى دون أن ننسى المؤثرات الآسيوية فى القرن الإفريقى وشرق إفريقيا. يمكن أن نقرر بسهولة أن مصر هى أكثر إفريقيا آسيوية. والانحدار التاريخى والجاذبية الجغرافية فى مصر هى أساسا نحو الشمال عموما. والشمال الشرقى خصوصا. لماذا؟

إن نظرة إلى الخريطة تكشف لنا حقيقة بسيطة ولكنها دالة، فالنيل فى مصر لا يجرى فى منتصف الصحراء ولكنه يجنح بتحيز واضح نحو الشرق، قل تقريبا بنسبة الثلث ـ الثلثين. ولو كان النيل يجرى أكثر غربية لتغيرت بلا شك اتجاهاته، ثم إن النيل لا ينحدر ويصب شمالا فحسب. ولكن وزنه وثقله الفعلى يزداد كلما تقدم شمالا مع اتساع الوادى عموما.

٣ ـ «وإلى جانب سيناء يأتى البحر الأحمر كدهليز طويل يفضى بمصر إلى غرب

الجزيرة العربية حتى اليمن مثلما كان طريقا لها إلى القرن الإفريقى. وبذلك يشارك فى البعدين الآسيوى والإفريقى. أى أننا يمكن أن نتساءل ـ كما تساءلنا عن سيناء.

ومن محصلة هذه الضوابط الأولية ـ جنوح النيل إلى موقع شرقى. وطريقى سينا والقصير ـ دخلت مصر فى علاقة حميمة مع غرب آسيا.

ويمكن أن نقرأ صدى لهذه العلاقات الآسيوية التاريخية فى أسماء الأشخاص المعاصرة فى مصر. فثمة مجموعة ليست غير شائعة تشتق أصولها من أسماء الأماكن فى جبهة الالتحام بين الشام والأناضول والقوقاز أو غرب آسيا عموما. وتستخدم على الطريقة التركية للأم فى النسبة. هناك مثلا العنتبلى (من عينتاب) المرعشلى (مرعش). المردنلى (ماردين). أورفلى (أورفا. الرها قديما). الخربوطلى (خربوط). البابلى (الباب. قرب حلب). وانلى (بحيرة وان). الشيشينى (شعب الشيشن المجاور للشراكسة). أباظة (شعب الأبازة فى منطقة القوقاز). الشوباشى (شعب الشوفاش على الفولجا).. الخ) ».

٤ ـ الجغرافيا، التاريخ السياسى. الدين، ساعة التوحيد: «ومن الناحية الدينية البحتة لم تنفصل مصر كذلك عن دائرة الحلقة السعيدة قط. سواء قبل الإسلام أو بعده؟ الحقائق اللافتة للنظر أن مصر كانت دائما طرفا فى قصة التوحيد بفصولها الثلاثة. فمواطن الأديان التوحيدية فى فلسطين وسيناء والحجاز ترسم فيما بينها مثلثا أو سهما رأسه بشكل مماس لمصر فى سيناء فقد انصبت هذه الرسالات جميعا فى مصر على التوالى. وإن كانت كل فرشة منها تطغى وتغطى على سابقتها حتى سادت أخراها فى النهاية. وإلى هذا. فإن مصر لعبت فى مراحل الدعوة إلى ثلاثتها دورا أو آخر. فكانت لموسى قاعدة ومنطلقا. ولعيسى ملجأ وملاذا. بينما كانت مع النبى محمد هدية ونسبا.

٥ ـ إلى أن يأتى تحديد ساحة التحرك الإستراتيجى الحيوى لمصر فى عصر الثورات والحروب فى النصف الثانى من القرن العشرين. أما فى الوقت الحاضر فلا جدال أن الثقل الأكبر من السياسة القومية لمصر الثورة يتجه إلى الجبهة الأسيرة. عودا فى الحقيقة على بدء قديم التاريخ. وقد أكدت قضية فلسطين هذا التوجيه وحتميته تمامًا مثلما فعلت الحروب الصليبية فى العصور الوسطى. ومنذ حرب فلسطين ثم منذ الثورة. خاضت جيوش مصر معاركها الأساسية على الجبهة الآسيوية بما فى ذلك اليمن. فمن الواضح إذن أن البعد الآسيوى هو البعد المحورى فى توجه مصر الخارجى. وأنه أساسا

علاقة أخذ وعطاء من طرفين, تمتاز بالاستمرار والاطراد دون ذبذبة أو تقطع. ولا شك أنها نظرة غير علمية إطلاقا. إن لم تكن مغرضة حقا. تلك التى حاولت حينا ما أن تبتر بعدنا الآسيوى زاعمة أنه لم يجئنا من آسيا خير قط, إشارة إلى أخطار قديمة كالمغول والترك.. الخ, فى إشارة مبتورة ناقصة بقدر ما هى مضلة».

هكذا يكمل جمال حمدان مشوار صبحى وحيدة: فإذا كان التهديد يأتى من الموجة الغربية يكون الغد الآمل فى رحاب الشرق الحضارى.

قال صاحبى: «أفكار أيام زمان؟ أم أفكار أيام الإصرار على الدوام؟.. الغريب ـ أحيانا ـ أن عددا من أصحاب الأقلام يترددون, وقد حاصرتهم, حاصرتنا, أمواج قبول الأمر الواقع...

كنتم تتحدثون عن شروط استمرارية شخصية مصر.. وأصبح الحديث عند بعض النبهاء عن ضرورة تطويع الإرادة, وترويض النفوس..

تكتيك التبعية؟ أم الإستراتيجية الحضارية؟... جمال حمدان بين الناس, يسكن البيوت والقلوب, والحمد لله!...

ـ ٥٢ ـ

جلال أمين: وصف مصر بعيون المصريين

الأعمال التكوينية لمسيرة الفكر والوجدان المصرى ـ منذ نصف قرن وفى أية ظروف وعلى أية أرضية ـ لا بد أن تكون افتتاحية هذه الجولة الأولى ـ جولة صيف عام ٢٠٠٠ـ لمحات من المسح الذى يقدمه عدد من صفوة مفكرى وكتاب مصر فى السنوات الأخيرة تنقيبا عن تغيير مصر, سعيا وراء حقيقة هذا المجتمع الذى صاغته الموجة تلو الموجة من الثورة والردة, من الحصار والعبور, من الإرادة الوطنية وهيمنة العولمة. وهنا نملك ـ من حسن الحظ ـ مجموعة من الكتابات الدالة تقدم فى مجموعها نوعا جديدا من وصف مصر بعيون المصريين. ومن بينها مؤلفات جلال أمين ومصطفى سويف وعبد المجيد فراج, وكذا إصدارات مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية لمؤسسة الأهرام، وسلسلة مجلة الهلال وكتابه الشهرى, بالإضافة إلى مكتبة كاملة من مقالات ومحاولات زملائنا فى الجامعة والصحافة.

وقد اخترت عام ١٩٩٨ أن أقدم لكتابين أعتقد أنهما من خير المداخل إلى وصف مصر: «ماذا حدث للمصريين»؟ لجلال أمين, ثم «المواطنة» للراحل الكبير للمستشار الدكتور وليم سليمان قلادة. وها هو ذا جلال أمين يقدم لنا رحلة عبر مجموعة مؤلفاته فى التنقيب عن مصر منذ عام ١٩٨٢, من «محنة الاقتصاد والثقافة فى مصر» حتى كتاب «التساؤل» عام ١٩٩٨ وبينهما «الدولة الرخوة فى مصر» (١٩٩٣), ثم «الاقتصاد والسياسة والمجتمع فى عصر الانفتاح» (١٩٨٤), حتى «نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر» (١٩٨٩) و«مصر فى مفترق الطرق» (١٩٩٠).

لماذا هذا الاختيار؟ ربما لأنه فى رأينا يمثل نموذجا ملحوظا لنهضة العلوم الاجتماعية والإنسانية, وعلى وجه التخصيص نهضة الفكر الاجتماعى والسياسى فى

مصرنا منذ الخمسينيات رغم مظاهر التردى والانكسار التى شابت قطاعات واسعة من الثقافة والإعلام.

المؤلف أستاذ مرموق للاقتصاد السياسى ـ وليس للمضاربات المالية أو السمسرة التى يقدمها لنا الاقتصاد الجديد ـ يمتاز بإلمام واسع بالثقافة الوطنية بمختلف قطاعاتها جنبا إلى جنب مع الاقتصاد السياسى, والتوجه الإسلامى الحضارى جنبا إلى جنب مع المشاركة فى الحركة الوطنية المصرية بشكل فاعل, يقول بعض المحدثين: إن تجديد الفكر المصرى إنما يأتى من زاوية الأدب, بل والنقد الأدبى على وجه التخصيص.

كان لنا بعض الملاحظات وسيكون لنا عودة إلى أعماق هذا الادعاء.

وإنما نقطة البدء من صلب الفكر الاجتماعى فى قلب حركتنا الوطنية الفاعلة. الأرضية التى يبدأ منها وصف مصر فى نهاية القرن العشرين لا جديد فيها ـ أى لا جديد فيها اليوم ـ وإنما كانت جديدة بل ومذهلة من حيث اختلافها مع ما عاصرنا وجاهدنا من أجله منذ ١٩٧٤, أى منذ شرخ الانفتاح الاقتصادى الذى قرره الرئيس الراحل أنور السادات بعد أكتوبر, والذى يرى فيه المؤلف أنه التحدى الرابع لمصر والمصريين: أولاً: الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ وانفتاح مصر على النهضة الأوروبية الحديثة, ثم الاحتلال الإنجليزى عام ١٨٨٢ عندما ضربت الصناعة المصرية ضربة قاصمة، وتعرضت مصر بسببه لتيارات كاسحة للتغريب الاجتماعى والثقافى, حتى جاء قرار ١٩٧٤ عندما فتحت أبواب الاقتصاد والمجتمع المصرى ـ بابا بعد آخر ـ أمام تيارات السلع والخدمات ورءوس الأموال والمعلومات والأشخاص والأفكار وأنماط السلوك باسم الحداثة والتنمية, أولا تم وبدون خداع باسم مقتضيات عصر العولمة حول إمرة القطب الإمبريالى الأوحد ـ مؤقتا ـ من هذه اللحظة, كان الانفتاح الذى رأى فيه المؤلف أنه ينقل على أرضنا المحروسة النموذج اللبنانى فى الحياة, أى صورة لبنان قبل الحرب الأهلية: فعماد الاقتصاد اللبنانى السياحة وخدمات البنوك والوساطة بسائر أنواعها من تصدير واستيراد وسمسرة وتجارة ترانزيت. أما الزراعة والصناعة فلا تمثلان إلا نصيبا ضئيلا فى الاقتصاد, سواء فى الدخل القومى أو العمالة، وكان ارتفاع معدل النمو فى لبنان ـ قبل الحرب الأهلية ـ كما هو الآن فى مصر, راجعا فى الأساس إلى نمو مختلف أنواع الخدمات, بهذا يمكن تفسير أهمية الشطارة فى لبنان, وأهميتها المتزايدة الآن

فى مصر، ففى مجتمع غير منتج, وإنما يعتمد على أعمال الوساطة لا يمكن أن أغتنى أنا وأنت فى نفس الوقت, إذ لم ينتج شيء جديد يمكننا اقتسامه, بل يكون ثرائى على حسابك أو ثراؤك على حسابى, لأننا نتبادل السلع ولا نصنعها. والأمر يتوقف فى النهاية على أينا أشطر من الآخر, لا عجب أيضا أن يزول بالتدريج أى يقين بما سيكون عليه سعر السلعة أو الخدمة, فأنت لا تعرف ماذا سيكون عليه سعر اللحم غدا, وما إذا كان سائق التاكسى سيطلب منك جنيها أو ربع جنيه, فكل شيء موضوع للمفاوضة والمساومة, والأمر يتوقف فى النهاية على الشطارة.

الفردانية، الشطارة، السقوط..

فى هذا الجو, جو الفردانية والفوضى وانعدام القيم والمعايير جريا وراء المنفعة وتلميع الذات والثراء, انتشرت فى نسيج المجتمع المصرى الجديد ظواهر غريبة تدريجيا علامة لانحراف الانفتاح السمسارى.

مسألة العمارات الساقطة بدءا من عمارة مصر الجديدة الفاخرة فى أكتوبر ١٩٩٢ حتى إسكان السيدة زينب, وما تلاه من اكتشاف أن عشرات العمارات القديمة لم يتم إصلاحها كما يجب بعد زلزال القاهرة, كما أنه تعذر على سكانها أن ينتقلوا إلى مبان شعبية. أطلق المسئولون حرية التأجير فأصبحت عائلات الشعب العامل عاجزة اليوم بشكل مضاعف, أى معماريا واقتصاديا, فبعد مأساة مصر الجديدة بمجرد أن سقطت العمارة, هرع رجال الإنقاذ والشرطة والمحافظة إلى مكان الحادث, وقيدوا به محضرا, وإذا أرادوا معرفة أسباب السقوط اضطروا إلى أن يلجئوا لا إلى المقاول أو عامل محارة, بل إلى أساتذة كلية الهندسة, الذين قد يكون بينهم فقراء معدمون إلا من القدرة على تفسير ما حدث. فإذا انتهوا من وضع تقريرهم انصرفوا إلى أعمالهم, دون أن تكون لديهم أية ذرة من القدرة على إحداث التغيير المنشود, بل ودون أن يكونوا بالضرورة قادرين على امتلاك سكن لا من الطوب ولا من الورق.

والمثل الثانى المرموق فى هذا المجال إنما هو قرية مارينا المعروفة على الشاطئ الشمالى، أمر هنا مر الكرام على الوصف الرقيق لنواحى هذه الظاهرة: مارينا المسماة بالقرية إمعانا فى السخافة امتدادا لما يسمى تعمير الساحل الشمالى الغربى لمصر، وهى

عملية أقرب إلى التدمير من التعمير مرورا بـ البحر الساكن الممل بفعل المصدات التى أقاموها لحماية المستحمين من الأمواج حتى صفوف الفيلات المتكررة التى لا يرى أصحابها البحر على أية حال اللهم إلا إذا كانوا فى الصف الأول.. وقد سمعنا أن بعض الأغنياء عندما لم يجد لنفسه فيلا فى الصف الأول يستخدم نفوذه لبناء فيلات أمام الصف الأول ليكون هو فى المقدمة.. حتى حادث اللانش الذى راح ضحيته طالب كلية الهندسة صيف ١٩٩٨, وهو نفس الحادث الذى كاد أن يصيب الدكتور ثروت عكاشة لولا العناية الإلهية. حتى توغل وصف مصر عبر ضياعها فى سراب مارينا، الشعور بالملل الذى يخيم على أولادهم وبناتهم، شعور قاتل إذ أن كل المسئوليات قد تحملها غيرهم بالنيابة عنهم, ومستقبلهم الاقتصادى مضمون, ومؤمن لدرجة مزعجة للغاية, أى لدرجة لا يحتاجون معها لا إلى الدراسة أو القراءة ولا حتى إلى التفكير فى مشروع مالى يجلب لهم ربحا.

ومارينا نفسها قرية مملة جدا, لا شىء يمكن عمله فيها إلا الأكل والشرب وقيادة السيارة واللانشات, وحتى ما يبدو وكأنه أعمال رياضية ليس كذلك بالمرة, فالاستحمام فى البحر يتم بطريقة كثيفة رأس المال جدا (بتعبير الاقتصاديين) أى يتم باستخدام الآلة وقوة البخار بدلا من عضلات الجسم تخفيفا على الأولاد والبنات من عناء السباحة. فما الذى يمكن أن يفعله الشباب لإبعاد الملل والسأم عن نفوسهم إلا أشياء من نوع قتل طلبة الهندسة أو الحقوق؟...

الفضيلة الملائمة اجتماعيا

جوهر التحليل ينصب على استمرار ظواهر كبرى رغم التغيير, بينما تتبدل أخرى من خلال التغيير. التبدل أولا.

وهنا يركز المؤلف على التغيير العميق الذى أصاب مكانة المرأة فى المجتمع الجديد، إن انتشار التعليم بين الإناث بشكل ملحوظ, ثم مساهمة المرأة فى النشاط الاقتصادى خارج المنزل وكذا الهجرة الخارجية وارتباط ذلك بالتضخم وارتفاع الدخل لدى الأسر التى لم تهاجر. كل هذه الظروف تمثل عوامل اقتصادية واجتماعية بالغة القوة تدفع فى اتجاه حصول المرأة على حريات أكبر ومساواة أكبر, وتدفعها إلى عزلة أقل واختلاط

أكبر. هذه العوامل تقترن بظاهرة مضادة تماما تتمثل فى العودة إلى النظر إلى المرأة على أنها فى الأساس مصدر للفتنة وإثارة الرجل. ومن ثم فرض قيود لم تكن قائمة تتعلق بالمرأة وبالاختلاط بين الجنسين، وقد بلغ الأمر إلى الحد الذى يسمح لنا بالقول بحدوث إعادة تعريف للمرأة الفاضلة بحيث أصبح الزى الذى ترتديه جزءا أساسيا من هذا التعريف بعد أن كان يعتبر ــ منذ لا يزيد على ربع قرن على الأكثر ــ أمرا ثانويا. وهنا يصل جلال أمين إلى جوهر عملية التحول المجتمعى.

إن هذا الاتجاه إلى فرض قيود جديدة على المرأة قد صادف أكبر قدر من النجاح والانتشار لدى شرائح اجتماعية معينة، يمكن وصفها بالشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة، أو الطبقة المتوسطة الصغيرة، وهى نفس الشرائح التى تعرضت أكثر من غيرها خلال ربع القرن العشرين للعوامل الدافعة إلى مزيد من حرية المرأة، كازدياد اشتراكها فى فرص التعليم والعمل خارج المنزل والهجرة الخارجية، وربما كان أيضا تأثرها بالتضخم سلبا أو إيجابا أكبر من تأثر غيرها. بينما نلاحظ بالمقابل أن الدعوة إلى فرض المزيد من القيود على المرأة صادفت انتشارا أقل فى صفوف الطبقات العليا والطبقات الواقعة فى قاع السلم الاجتماعى فى نفس الوقت، وكلتاهما من الشرائح الاجتماعية الأقل تأثرا بالعوامل الاقتصادية الجديدة التى تكلمنا عنها. وقد أتاحت الثروة الجديدة إلى الشرائح الصاعدة ارتياد أماكن مغلقة دونهم من قبل... الشواطئ والمسارح والنوادى التى كانوا يسمعون عنها دون أن يروها. المرأة تتردد على كل هذه الأماكن فرحة بحريتها الجديدة، ولكنها فرحة مشوبة بالخطر. فهى تأتى من بيئة لم تتعود فيها الدخول فى علاقات مباشرة مع الغرباء من الرجال، والرجال أنفسهم ينتابهم خوف أكبر على زوجاتهم وبناتهم من هذه الحرية الجديدة... الخ من هنا جاء التوجه إلى الفضيلة الملائمة اجتماعيا ــ على حد تعبير الاقتصادى الأمريكى الكبير جالبرث. وعندنا أن هذا التحليل الهام يمكن أن يتسع إلى ما هو أكثر شمولا. وذلك أن صعود الفئات من الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة أى البرجوازية الصغيرة إلى الضوء بعد ١٩٥٢ خاصة عبر التعليم الإجبارى والخدمات الاجتماعية على ساحة المجتمع الواسعة.

جوهر الثورة الاجتماعية خاصة بعد ١٩٦٤ ترتب عليه دخول فئات واسعة كانت محرومة من الأرياف إلى المدن وأضوائها وخدماتها وترفها.

وهو الأمر الذى مثل الأرضية الاجتماعية النفسية الحقيقية لإجراءات ربيع ١٩٥٤ ، أى للقضاء على جميع أحزاب وهيئات الطبقة المتوسطة : باسم إحلال أهل الثقة الجدد مكان أهل الكفاءة ممثلى مجتمع مصرى لم يعد مقبولا, من الوفد إلى الإخوان, من ملاك الأرض واتحاد الصناعات إلى الشيوعيين, مرورا بالجامعة ومجلس الدولة والصحافة والنقابات وبعد هذه المرحلة الأولى, جاءت المرحلة الثانية التى وقف جلال أمين بجهده عليها بحق, ألا وهى مرحلة الانفتاح واختراق المجتمع المصرى. فكانت محصلة الفترتين أن سادت الأمور الغريبة سطح المجتمع, على غير ما كان مرتقبا ، بدءا من التغييرات الاقتصادية فى حد ذاتها ـ ما لم نُضِف إلى ذلك أثر التغييرات المجتمعية والنفسية والسياسية الواسعة منذ ١٩٥٢ ـ ١٩٥٤.

ثم التأثير الهائل لما أحدثه عصر البترول من تصحير للمجتمع المصرى الزراعى والمدنى.

ملحوظة فى طريق العود إلى تحليل ما يدور فى أعماق مصر الجديدة, أردنا بها اليوم أن نؤكد ونطور رأى المؤلف الرائد.

إلى أن جاء الدور الثابت فى الأعماق, فى جوهر الحكم, وذلك بإعلان شعار أنا أفكر, إذن أنا غير موجود ، عكس المنهج العقلى الحديث, بل والعقل فى كل عصر. يتساءل جلال أمين عن السر فى اختفاء من يعتلى منصب رئيس الوزراء, فجأة بمجرد انتقاله من السلطة إلى عالم آخر, وذلك بمناسبة تغيير عام ١٩٩٦.

يتساءل : عن السر فى معاملة أى صاحب سلطة جديد.

بنفس الطريقة عن الاهتمام البالغ به فى أثناء وجوده فيها وإهماله تماما بمجرد خروجه وتقديم واجب العزاء له.

فينتقل إلى تفسير لطيف فى ظاهره ، عميق الدلالة فى باطنه يصب فى جوهر المفهوم الهرمى للسلطة وحاجاتنا إلى رفع مستوى المشاركة الشعبية بشكل جذرى فى إدارة شئون البلاد.. يقول : نعم كثيرون يذهبون إلى الرجل بعد خروجه من السلطة لتقديم واجب العزاء. والمصريون يراعون هذا الواجب أحسن مراعاة. فنحن شعب يعرف الواجب وخير من يأخذ بخاطر المظلوم, أو من جارت الدنيا عليه وعاملته الأيام

بقسوة. ولكن هذا لا يمنعنا قط من إعادة الكرة والعودة من جديد إلى معاملة أى صاحب سلطة جديد بنفس الطريقة: الاهتمام المبالغ فيه فى أثناء وجوده فيها. وإهماله تماما بمجرد خروجه وتقديم واجب العزاء له.

إن لدىَّ تفسيرا. إن المصرى ينظر إلى اعتلاء السلطة والخروج منها نظرة قد تختلف كلية عن نظرة الشعوب الأخرى. فالأمر فى نظر المصرى لا يختلف كثيرا عن أى ظاهرة طبيعية, كهبوب العاصفة أو حدوث فيضان أو زلزال، الرجل يحصل على السلطة لأسباب غير مفهومة, ويفقد السلطة لأسباب غير مفهومة, ولا أحد يهتم حتى بأخبارنا عن سبب اختيار (رئيس وزراء) بالذات, أو عن سبب خروجه عندما خرج. وفى الحالين يتم الدخول والخروج لأسباب تبدو وكأن لا سلطان لنا عليها. فإذا كان الأمر كذلك, فالأمر يجب أن يعامل بنفس الحكمة التى تعامل بها الظواهر الطبيعية التى لا سيطرة للإنسان عليها. لا بد من التعايش معها طالما هى مستمرة, والأفضل نسيانها بعد انتهائها.. لا أقصد بكتابة هذا الكلام أن نستخلص عبرة أو موعظة نوجهها لرئيس الوزراء من نوع موعظة: لو دامت لغيرك ما آلت لك، وإن كانت موعظة بليغة حقا...

المسألة كلها فى نظر المصرى من سنة الكون الطبيعية التى لا يمكن التحكم فيها أو تغيير مسارها. لهذا نجد المصريين كثيرا ما ينظرون إلى رجال المعارضة نظرة فيها من الاستغراب والإشفاق, أكثر مما فيها من التأييد أو الاعتراض, وكأن لسان حالهم يقول: انظر إلى هذا الرجل الغريب, الذى يظن أن بالإمكان تغيير الأمور!...

الديمقراطية أولا...

ثم رويدا رويدا ينتقل جلال أمين إلى وصف حال المثقفين فى قلب وصف مصر فى نهاية القرن العشرين ليتساءل عن الشعور بالضياع، ويرى أنه حقيقة يصب فى دائرة العجز عن العمل، بحيث يصبح بيت القصيد هو إتقان فن إمساك العصا من الوسط. وهو يرى أن القاعدة الأولى لهذا الفن إنما هى التركيز على الشكل دون المضمون بقوله بابتسامته المتحضرة: فلنفرض مثلا أن موقف الحكومة يتعلق بإلغاء الدعم الممنوح لبعض السلع الأساسية.

فى هذه الحالة يمكن لمثقف الطريق الوسط التركيز عما إذا كان من الواجب عرض

الأمر على مجلس الشعب قبل اتخاذ الأجراء, مع تجاهل جوهر الموضوع. أو فلنفرض أن القضية التى تحتاج إلى إبداء الرأى هى ما إذا كنا نقبل أولا نقبل المفاوضة مع العدو الذى يحتل الأرض.

فى هذه الحالة يحسن الاكتفاء بالتعبير عن الأسف لتفكك الصف العربى حول هذه المسألة, والتركيز على مزايا الاتحاد والتضامن العربى (ويستحسن فى هذه الحالة التأكيد على دور المعارضين فى توسيع شقة الخلاف والتوسع فى الحديث عن مزايا السلام التى يعرفها كل رجل وامرأة وطفل, والإفاضة فى شرح أهوال الحرب ومزايا الحب ومساوئ الكراهية...

وبعد هذه القاعدة تأتى القاعدة الثانية : لكل شىء ما له وما عليه أى أنه يستحيل إصدار حكم واضح, وهو الطريق الذى قاد فريقا ألمعيا من المثقفين إلى عقلية ما بعد الحداثة والتفكيكية أى رفض كافة المعايير والسلم القيمية للحكم الموضوعى على الأشياء, ما دام كل شىء ممكنا ولا بد من السباحة والوصول إلى البر، وبديهيا أن القاعدة الثالثة إنما هى عدم التسرع فى الحكم تليها القاعدة الرابعة اللطيفة المدح بما يشبه الذم بحيث نقابل من يقول عن نفسه أن فيه عيبا خطيرا هو الصراحة المفرطة, أو ثقته التى لا حد لها بالناس, أو الإخلاص فى العمل لدرجة إهمال الصحة, إلخ، ثم عتبة القاعدة الخامسة الاتعاظ بدروس الماضى : وإذا كان المطلوب الدفاع عن قبول المفاوضة مع العدو, أمكن العثور على مفاوضة تبدو مشابهة أجراها الرسول عليه الصلاة والسلام. ومن مزايا استعمال الأمثلة التاريخية أن معظم الناس لا يعرفون تفاصيلها ومن ثم يسهل إخفاء أوجه الاختلاف الجوهرية بين الحاضر والماضى. وفى جوهر الأزمة أو المأساة حسب التقديرات ـ وهى متنوعة ـ يرى جلال أمين أن ظاهرة اغتراب المثقف المصرى هى الأخطر.. يذكر العديد من الأمثلة، ويبين أن الأمر يتم تغييبه بإظهار معنى ثانوى وكأنه هو الأساس. ويستشهد هنا بكيفية تلاعب التلفزة بالبرامج الهامة, مثل تلك التى عرضت لشخصية وأعمال أستاذنا الكبير نجيب محفوظ والراحل الرائد الدكتور يوسف إدريس : وكأن قد حدث شىء مماثل فى نقل أخبار مرض الدكتور يوسف إدريس حيث قيل عن زيارة الرئيس له وامتنان الأديب للرئيس أكثر مما قيل فى وصف المرض واحتمالات الشفاء. حتى لقد كتبت إحدى جرائدنا القومية أن

الدكتور يوسف إدريس عندما أفاق إفاقة قصيرة من غيبوبة طويلة, لم يصدر عنه إلا التعبير عن الشكر للرئيس لسؤاله عنه. قلت لنفسى : إذا لم يكن هذا هو الاغتراب كما يعنيه علماء الاجتماع, فما هو الاغتراب يا ترى؟ أم لعله الاستلاب؟ أن توعد بشىء عزيز على نفسك, فإذا تقدمت لأخذه صفعك شخص على وجهك, أو أن تشترك رغما عنك فى شىء ليس لديك أى رغبة فى الاشتراك فيه, أو أن يلوح لك بشىء من بعيد تظن أنه شىء تحبه, فإذا اقتربت منه سمعت من يقهقه قهقهة شيطانية ويختفى هذا الشىء الذى كان يلوح به إلى غير رجعة. أو يقال لك إن شخصا عزيزا عليك كنت تعتقد دائما أنه مشغول بهمومك, مشغول فى الواقع بغيرك.. هل هذا معقول؟

إلى أن ينتهى بعد رثاء الغربة والتردى إلى الدعوة الحارة للعودة إلى طريق الديمقراطية فى عبارات مؤثرة سوف يرى فيها البعض شيئا من المبالغة, بينما يؤكد البعض الآخر أن الأمر أعمق من ذلك بكثير. يقول : سيقال لى ها أنت تكتب ما يعن لك, وينشر لك, فمم تشكو؟

وهل أتيح لك ولأمثالك مثل هذه الحرية من قبل؟ وردى على ذلك أنى لم أسمع بعد بدولة ديمقراطية تقوم فيها السلطة بتعيين رؤساء مجلس إدارة الصحف والمجلات ورؤساء التحرير, وتتكلم عن مضار التأميم والقطاع العام فى كل مجال من المجالات إلا فيما يتعلق بملكية الصحف والمجلات ووسائل التعبير عن الرأى, ولا يمكن لأحد أن ينشئ جريدة أو مجلة جديدة ـ حتى لو توافر لديه المال ـ إلا إذا حصل على تصريح من السلطة, والسلطة لا تعطى التصريح إلا إذا أنشأت حزبا جديدا فتكون له جريدته, والحزب لا ينشأ إلا بتصريح من السلطة, والسلطة لا تسمح بحزب جديد إلا إذا كان لا يضر ولا ينفع.

كانت النتيجة الطبيعية لكل هذا أنه وإن كنت ما زلت حتى الآن تسمع بعض كلمات الحق, فإن كلمات الحق المسموح بها قليلة ، وكلمات الحق الممنوع نشرها كثيرة, وكلمات الباطل المسموح بنشرها وقولها وإذاعتها أكثر من أن تُحصَى, والتكريم الذى يحظى به قائلو الحق قليل أو معدوم. والتكريم الذى يحصل عليه قائلو الباطل أكثر مما يحصى ، ويزداد مع الأيام. وهذا هو الوصف الحقيقى لأوضاع المثقفين المصريين فى هذه الأيام.

قال صاحبى : ومع ذلك, ورغم هذا كله, يطيب لمصر أن تعتز بمثقفيها, بعدما قيل إنه طول غياب, ولعله تغييب.. آن الأوان لكى يعود الجميع ــ فورا ــ إلى صف الوحدة الوطنية, فى ظل الدستور وتراثنا الحضارى القومى العريق, والعقل والوجدان!

المكابرة هنا : دعنا عن انتقال المعارك, من الشيطان, لا تخدم إلا العدو ـ وفى هذه اللحظة بالذات : أليس كذلك؟

ـ ٥٣ ـ

وليم سليمان: المواطنة فى القلب

الفكر الكبير يحيط. الفكر الصغير يشتت. الحديث الكبير مشرق متألق. الحديث الصغير ثرثار.

كلمات قلائل لأحد كبار فلاسفة حضارة الصين «شوانج تسو» (القرن الثالث ق.م) وكأنها تضيء بنور ساطع رسالة مفكر وطنى رائد. القلب الكبير يصدر عنه الهيام الكبير. العقل الكبير منبع للرؤية النافذة. الفكر الكبير يصيغ المعانى الكبيرة. كنت أود أن تكون ذكرى حرب أكتوبر المجيدة بداية للتعمق فى مغزاها الحضارى، خلال الأيام التى تعود إلى ذاكرة الوجدان والقلب، ذكرى أبطالنا الأمجاد، وفى طليعتهم العقيد الشهيد إبراهيم الرفاعى، قائد لواء الصاعقة الذى فارقنا على أرض سيناء يوم الجمعة ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ وإذ بذكرى الأربعين لرحيل المفكر الوطنى الرائد المستشار الدكتور وليم سليمان قلادة يوم الجمعة القادم ٢٢ أكتوبر ١٩٩٩ يدعونا إلى الغوص فى أركان رسالة الوطن ومعانى المواطنة الحية.

تشاء الظروف،والظروف تشاء، أن يكون حديثنا الأخير عبر الهاتف وأمواج البحر يوم الأحد ٢٩ أغسطس ١٩٩٩. كان صوته مبهجا: عندى مفاجأة لك بمجرد وصولك بعد وقت قريب.. الكتاب صدر فى سبتمبر ١٩٩٩. فبما أن الوقت قد طال على إنجاز مشروع المواطنة بأكمله، فقد رأيت أن أنشر مجموعة من الدراسات والمقالات فى كتاب يقدم المعانى الرئيسية، إن نسختك محفوظة حتى نلتقى.. انتابنى فرح عظيم.. كان الحديث بيننا منذ ربع قرن حول مشروع المواطنة، يتعمق هو فى القراءات والتأليف بعناية، بينما كنت أستحثه إلى إنهاء الموضوع فى أقرب وقت نظرا لأهميته. عدت إلى أرض الوطن، التقيت به قلبا وعقلا وفكرا بين صفحات الكتاب، مبدأ المواطنة وقد فارقنا رفيقنا الرائد فى المسيرة.

رحت أطالع الصفحات الواحدة تلو الأخرى, والفصول, وكلها تنبض بالحب والأمل, بالعلم والتعمق. ومن هنا رأيت أن أترك الكلمة لمن فتح صفحة نيرة وطريقا مضيئا للمواطنة فكرا وعملا على أرض وفى قلب مصر.

هذه بعض النصوص تتحدث وتضىء.

من مسيرة فقه المحكومين

١ـ حقوق الإنسان نوعان: الحقوق المدنية, والحقوق السياسية.. النوع الأول من الحقوق هو حقوق الإنسان بصفة عامة، أما النوع الثانى فهى حقوق المواطن.. وعى الإنسان بأنه مواطن أصيل فى بلاده وليس مجرد مقيم يخضع لنظام معين دون أن يشارك فى صنع القرارات داخل هذا النظام. هذا الوعى بالمواطنة يعتبر نقطة البدء الأساسية فى تشكيل نظرته إلى نفسه وإلى بلاده وإلى شركائه فى صنع المواطنة. فعلى أساس هذه المشاركة يكون الانتماء إلى الوطن, ومن خلال المشاركة تأتى المساواة, فلكل مواطن نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات, فلصفة المواطنة ثلاثة أركان: الانتماء للأرض, والمشاركة, والمساواة ــ أى الندية ــ ومن ثم يأتى جهد الشخص فى إطار الجماعة السياسية لممارسة صفة المواطنة والتمسك بها والدفاع عنها، وحين تنجح الجماعة فى حركتها الوطنية والدستورية, أى حين تنجح الجماعة فى استخلاص حقوق الوطن والمواطن تتبدى اللحظة الدستورية تتحرك الأرض إلى وطن، والإنسان الذى يحيا عليها ويشارك فى صياغة حياتها إلى مواطن. حينئذ يسجل مضمون هذه اللحظة فى وثيقة هى الدستور.

٢ـ من أين ـ ترى ـ تأتى اللحظة الدستورية؟ هل من مبدأ مجرد, أو من فعل فاعل؟ الإجابة بكل تأكيد هى أن المرجعية فى التنظيم الدستورى وفى الحياة السياسية الدستورية هى الحركة وآثارها ومنطقها.

التاريخ إذن هو أساس ذلك الانفصال القاطع بين الحكام والمحكومين عبر مئات بل وآلاف السنين: إن خطًا أفقيا حاسما ــ حاجزا ــ يقسم المجتمع المصرى إلى شريحتين: أعلى الخط الفاصل يجثم الحكام, يتمسكون بأسانيد يمارسون على أساسها إخضاع المحكومين ويبررون بها فى مواجهة سلطتهم بما يضمن بقاء هذه السلطة فى أيديهم

واستمرار تداولها فيما بينهم طبقا للنظم التى أقاموها لتأييد مراكزهم. هذه الأسانيد والنظم التى يقيمون شرعية الحكم طبقا لها هى مضمون فقه الحكام. وأسفل الحاجز يقر المحكومون أهل الأرض بجميع مكوناتهم، ولهم أيضًا مفاهيمهم وتوجههم وعلاقاتهم ببعضهم بعضا وبالحكام. وهم ليسوا قابعين أسفل الحاجز فى سكون. بل ثمة حركة تتراكم مقوماتها الجغرافية والإنتاجية والحضارية والفكرية ينهض بها المحكومون وتنطلق من شعورهم بالظلم الذى يمارسه عليهم الحكام؛ فيرفض المحكومون الخضوع لفقه الحكام ويصممون على اختراق حاجز السلطة واحتلال مراكز الذين يحكمونهم بالقهر. ويقوم بين المحكومين عقد اجتماعى صريح أو ضمنى يقر حقوقهم والتزاماتهم فى المستقبل. على أساس المشاركة والمساواة أى الندية. وتمضى الحركة قدما وتنجز فى هذا التوجه خطوات متتالية، وإن فى بطء هذه المقومات والمفاهيم والتوجهات والعلاقات وآليات الحركة هذا كله هو مضمون فقه المحكومين.

٣ ـ إن هذه الحركة التاريخية. تاريخ حضاراتنا المصرية. هى التى تجمع بين مقوماتها السبعة أى: الجغرافية البشرية، أى الأرض مصر، البشر المصريون، المشروع المصرى. الدولة. الحضارة التعددية الدينية.

إن الترابط بين هذه العناصر يقدم لنا نسيجا دقيقا يتعدى مستواه التحليل:

(أ) إن التراث الدينى المصرى القبطى والإسلامى يحتفل بأن أرض مصر هى الجنة فى الدنيا. وهكذا يمكن القول بأن علاقة المصريين بأرضهم تمثل واحدًا من أهم عناصر الاستمرارية المصرية.

(ب) فى مصر نجد وحدة الأرض والنهر. فى تواصل لا تعرقله فواصل من جبال أو هضاب تؤدى إلى عزلة جزء من الشعب عن الأجزاء الأخرى. فتكون للجزء المعزول حياته الخاصة المختلفة وأحيانا لغته.. فمصر كما يقول جمال حمدان وسط جغرافى أحادى، وجسم بشرى واحد. وهى لذلك أبعد ما تكون عن التنافر الداخلى أو التخلخل التركيبى. إن التجانس صفة جوهرية فى البيئة المصرية ـ فى المكان وفى المناخ وفى الزراعة وفى البشرة ـ ويأتى التجانس من طبيعة النهر الإرسابية التى تخضع لمبدأ التدرج الوئيد. فمن الصعب أن نجد بلدا يخضع فى ملامحه لقانون التدرج كوجه مصر، فإذا كان التجانس هو قانونه الأول. فإن التدرج هو قانونه المكمل.

ومن هذا التجانس ما أدركه عمرو بن العاص فى رسائله إلى الخليفة عمر ابن الخطاب وسماهم أهل الأرض. فإذا كان التجانس هو المميز الأول للجغرافية المصرية الطبيعية فإن هذه الصفة تتجلى أيضا فى جغرافيتها البشرية.

(ج) ثم يفسر المفكر الوطنى الرائد إنجاز الأقلية المبدعة فى نشأة الحضارة, فى مواجهة ما وجد المصريون حين هبطوا الوادى فجر التاريخ فوجدوا بيئة بدائية لا تصلح للسكن أو العمل، فيها: المستنقعات والبرك والأدغال والأجسام والنباتات والحيوانات البرية. كان على المصريين أن يغيروا هذا كله بالجهد الشاق والعمل الجماعى المضنى المتصل فى تطهير النبات والحيوان، وشق المصارف والترع، ومجابهة أخطار الفيضان أو الجفاف وضبط النهر. كان عليهم أن يعبروا المسطح الطبيعى إلى إقليم حضارى بالجهد والعرق والإبداع.

وهنا يعود بنا أن المفكر الوطنى الرائد الدكتور وليم سليمان قلادة إلى ما سطره المفكر العلم عباس محمود العقاد عن الطبيعة المصرية فى حقيقتها إذ يقول: إنها أمة طويلة التاريخ قديمة العهد من المدنية فى أرض زراعية.. فالأمة المصرية ليست أمة بداوة تتوثب إلى الحرب لأنها باب الرزق.. ولكنها أمة حضارة مستقرة ومعيشة منتظمة تلجأ إلى الحروب حين تلجأ إليها لأنها ضرورة لا محيص عنها ونكبة لا تستهين بها إلا اتقاء لنكبة أمر منها وأصعب عاقبة من عاقبتها. وهى لا تطيع حكامها كما يطيع البدوى زعيمه أو كما يطيع العسكر قائده.

من هذه المعانى جاءت الوحدة السياسية للوطن المصرى, فكانت مصر أول أمة بالمعنى القومى الصحيح, وأول دولة بالمعنى السياسى الكامل, ولم تقسم قط عبر آلاف السنين رغم ما خضعت له من استعمار أجنبى فى بعض مراحل تاريخها.. ففى مصر تتطابق حدود الدولة (الوحدة السياسية) مع حدود المجتمع (الوحدة الحضارية والثقافية) تطابقا يكاد يكون مائة فى المائة على حد تعبير جمال حمدان. من هنا أمكن أن تنشأ حضارة متكاملة, كانت الأولى، واخترقت عشرات الأجيال حتى عصرنا.

د ـ كان نظام الزراعة الحوضية يترك الفلاح أغلب العام أو نصفه على الأقل فى حالة فراغ تقريبا؛ ولهذا أمكن توجيه طاقة بشرية كبيرة نحو الانصراف إلى فنون

الحضارة الراقية، بل وإلى الكماليات الحضارية. وهذا هو السبب الذى مكن الفراعنة من تشغيل مئات الألوف من العمال فى بناء الأهرامات والمعابد والمقابر بكل تحفها وملحقاتها دون أن يتأثر اقتصاد الإنتاج قط.

(هـ) ومن ثم فقد عرف المصريون الخلود مبكرا. ويرجع بعض الدارسين فكرة الخلود إلى إحساس المصريين ببهجة الحياة ببيئتهم الرخية الرغدة وبالتالى تعلقهم بها إلى حد إسقاطها على حياة أخرى بعد الموت. بل إنهم لا يرضون عنها فى الآخرة بديلا. فجنة المصريين هى مصر الخالدة. إنهم يتشبثون بالحياة المصرية بعد الموت. ومن هنا نبعت فكرة الخلود عندهم. إن الموت فى رأيهم هو معبر إلى الضفة الأخرى، حيث تتواصل حياتهم كما ألفوها بالتمام، إن جنة المصريين هى مصر الخالدة..

(و) ومن هنا خلاصة المطاف. أو جوهر عملية الحركة التاريخية: لقد فرضت مقومات الكيان المصرى الحياة المشتركة، ثم ولدت الحركة المشتركة، ومن خلال هاتين ـ الحياة والحركة ـ قامت المساحة المشتركة من المفاهيم والقيم. وهكذا أخذ التقسيم السياسى يستوعب التقسيم الدينى ويتجاوزه. وتم هذا فى مسيرة ألفية هى مسيرة الحركة المصرية الوطنية والدستورية التى أثمرت فى النهاية فقه المواطنة. فى ذكرى بعض فضائل مصر..

ومع هذا يشعر المصريون بأن هناك عقبات وعوامل ودوافع لم تساعد على تأصيل المواطنة فى بعض العصور.

يعود بنا المفكر الوطنى الكبير إلى أمهات أعمال المؤرخين المصريين المسلمين لوطننا بدءا من عبد الرحمن بن عبد الحكم فى كتابه ـ العمدة ـ كتاب «فتوح مصر وأخبارها» (١٨٧ ـ ٢٥٧ هـ) (٨٠٣ ـ ٨٧١ م). إنه المؤرخ العلم الذى بدأ عمله بفصل فى ذكرى بعض فضائل مصر. وفيه يقول: من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فينظر إلى مصر حين تخضر زروعها وتنمو ثمارها. وعن الشعب يقول: قبط مصر أكرم الأعاجم كلها (لأنهم يتكلمون غير العربية). وأسمحهم يدا. وأفضلهم عنصرا.

قائمة المراجع والعلماء تكاد تكون دليلا على ثراء الرؤية من ابن عبد الحكم إلى جمال حمدان. من تقى الدين المقريزى إلى طارق البشرى. ومن رفاعة الطهطاوى إلى

على إبراهيم حسن وعبد الرحمن الرافعى, من عبد الرحمن الجبرتى إلى أحمد عزت عبد الكريم ومحمد سليم العوا ونعمات أحمد فؤاد وكان من الواجب ذكر صبحى وحيدة وحسين فوزى وعندنا أن الجوهر المشترك إنما هو التركيز على حركة مصر, شعبا وأمة وحضارة دون كلل فى اتجاه تأكيد خصوصيتها.

المؤرخ الكبير أحمد عزت عبد الكريم يروى لنا قصة التعاون بين عمرو بن العاص وبنيامين, رأس الكنيسة القبطية فى أثناء الفتح العربى, للتعرف على أحدث الأساليب لإدارة البلاد دون اضطراب. يستفسر عمرو, فيجيب بنيامين: تأتى عمارتها وخرابها من وجوه خمسة: أن يستخرج خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم,ويرفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصور كرومهم, وتحفر فى كل سنة خلجها, وتسد ترعها, ولا يقبل على أهلها من يريد البغى, فإذا فعل هذا عمرت, وإن عمل فيها بخلافه خربت. ويؤكد مؤرخنا الكبير أن عمرو بن العاص نفذ وصية بنيامين بدقه وأمانة.

وهذا السيد محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى (توفى ١٠٨٧ هـ) يورد فى كتابه الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة ثمانية وأربعين سببا فى ذكرى ما اختصت به مصر والقاهرة من محاسن وفضائل، ويورد ثمانية وأربعين سببا فى تفضيل مصر أرضا وأهلا على غيرها من بلاد الدنيا، ويقول فى السبب الأربعين عن قبط مصر: إنهم من ذرية الأنبياء عليهم السلام.

ولعل فى إبراز مكانة الدولة الطولونية (٢٥٤ هـ) ما يضىء طريق صراع مصر من أجل الحفاظ على خصوصيتها كما عرضت له المؤرخة سيدة إسماعيل كاشف فى تعليقها على جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى, فتقول: دخلت مصر فى الفلك الإسلامى العربى بعد أن فتحها عمرو بن العاص قائد الخليفة عمر بن الخطاب وذلك سنة٢١ هـ (٦٤٢ م) وظلت مصر ولاية تابعة للخلافة، إلى أن جاء أحمد بن طولون إلى مصر.. وقامت فى مصر على يده أول دولة عربية إسلامية.. وكانت الدولة الطولونية تمثل الانتقال من عصر التبعية إلى عصر الاستقلال, ومن عصر الوالى الذى يمثل سياسة الخلفاء ويأتمر بأمرهم إلى عصر الحاكم القوى الواسع السلطان الذى يسنده الشعب ويسنده الجيش والأسطول، والذى يعمل بما فيه الخير والمصلحة للبلد وأبنائه.. وكان أحمد بن طولون مؤمنا بأن مصر للمصريين، فكان كريما مع أبنائها ولم تشغله مشاريعه

فى الاستقلال وفى تكوين إمبراطورية مصرية عربية عن خدمة البلد وعن القيام بمشاريع كثيرة ينتفع بها أبناء مصر. وبدأ فى عهده وادى النيل حياته لنفسه فى مجموعة الأمم الإسلامية.

وعن الفلتة الجغرافية والبشرية على حد تعبير جمال حمدان: أنها صنعت التفاعل ائتلافا واختلافا بين بعدين أساسين فى كيانها وهما الموضوع والموقع. فالموضوع هو البيئة الطبيعية والبشرية الداخلية. والموقع هو مجموع العلاقات التى تربط هذا الإقليم بما حوله. إن الحقيقة العظمى فى كيان مصر ونقطة البدء لأى فهم لشخصيتها الإستراتيچية هى اجتماع موقع جغرافى أمثل فى موضع طبيعى مثالى، وذلك فى تناسب أو توازن نادر المثال، فالموقع والموضوع هنا متكاملان جدا فى الدور، ومتناسبان إلى حد بعيد فى المقياس. فكل منهما ضخم الحجم أو الخطر ولكن فى تناسق دقيق وشبه محسوب. وكذا يلتفت المفكر الوطنى الكبير الراحل إلى رأى حسين مؤنس ودراسات أحمد رشدى صالح عن الأدب الشعبى. فعن الأول يقول: إنه رأى أن الحاصل أن ما حدث فى مصر فى هذا المجال فتح هو الطريق أمام شعب مصر كله ليتفاهم بلغة يتحدث بها بشر فى رقعة من الأرض تمتد كما نقول اليوم من المحيط للخليج. وبهذه اللغة يدخل الشعب المصرى بكل قوته البشرية والمادية وبكل تراثه الحضارى فى حوار. وينهض بقيادة معركة التحرر القومى والاجتماعى مع مجموعة تبلغ اليوم ما يزيد على مائتى مليون نسمة يقدم لهم نموذجا رائدا فى الوحدة والتفاهم. هنا نجد أن الوضع ـ الفلتة الجغرافية والبشرية ـ يزداد ثقله وجاذبيته فى الموقع.

وعن أحمد رشدى صالح ـ مؤرخ الأدب الشعبى وفنونه ـ يورد قوله: إن الأدب القبطى العامى واللغة الدارجة القبطية مازجا الأدب العربى واللهجات العامية العربية واستوى فى ذلك مزاج عربى قبطى. أو قل استوى مزاج قبطى إسلامى. وهذا يصدق على الشكل والمحتوى سواء بسواء. وإذا كنا نؤرخ لأدبنا الشعبى الشفاهى باستخدام العامية فى مصر فالواقع أن جذوره أقدم من ذلك بكثير، وإنها ترجع إلى الأدب الشعبى المصرى الفرعونى القبطى فى أطواره السابقة.. وكذلك حدث تزاوج بين الروح الإسلامية وبين الفن القبطى.

رسالة واحدة عبر الأجيال

إلى أن جاء يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣, بدء العبور الذى قال عنه المشير أحمد إسماعيل, القائد العام للقوات المسلحة, إنه فاتحة حرب أكتوبر التى أبرزت الوحدة الوطنية فى مصر بصورة كاملة متكاملة لا شرخ فيها ولا عيب. وهو المعنى الذى جاء فى نداء قادة الجيوش الميدانية إلى ضباطهم وجنودهم لحظة بدء المعركة: ثقتى فيكم بغير حدود, أثق فى كفاءتكم, أثق فى إيمانكم بالله وفى قضيتكم قضية المصير: أن نكون أو لا نكون. لم يعد هناك مما نحن فيه إلا أن نشق الطريق نحو ما نريد ـ عنوة, وبالقوة تحت أفق مشتعل بالنيران. وفى هذا يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ [التوبة: ١١١]. واستمع يا أخى إلى ما جاء بإنجيل متى: (٣٩:١٠) فى هذا المقام أيضًا: (من وجد حياته يضيعها, ومن أضاع حياته من أجلى يجدها) ويتواصل النداء ويورد آيات أخرى من القرآن والإنجيل، ثم يقول: إلى الأمام أيها الرجال, إلى الأمام أيها الأبطال ـ سدد الله خطاكم على طريق النصر, لتتحقق على أيديكم الحرية والعزة لكم ولمصر. نعود إلى السؤال ـ التساؤل المحير: إن كان الأمر كما جاء على لسان المؤرخين والعلماء, القادة والمناضلين البواسل, كما ورد فى الصفحة تلو الصفحة فى الكتاب التكوينى رفيع المقام الذى أهداه المستشار الدكتور وليم سليمان قلاده إلى أمتنا, شعبا ودولة, نقول: من أين إذن السؤال, بل وجو التساؤل, حول مبدأ المواطنة؟ إن إجماع كل من توغل فى أركان تاريخ أمتنا وراح ينقب عن معانى خصوصيتها وأسباب استمراريتها لا فجوة فيه, على تنوع الانتماءات والتوجهات والمدارس الفكرية. ومع هذا, ورغم هذا, ينشر الغموض أحيانا فى بعض قطاعات المجتمع القومى, وكأن سحابة ما تقلل من شأن هذا الإجماع, وتصل أحيانا إلى حد تغييبه. يذهب البعض من المحللين الممتازين إلى أن هذا الأمر يعود إلى أسباب منهجية, فإذا صح المنهج, أو تم تصحيحه وتضبيطه, لتجلت الحقيقة وزال الاهتزاز.

وعندنا أن الأمر يتعدى الاختلاف فى المناهج.

إنه نتاج لعملية الصياغة التاريخية لأمتنا المصرية, عبر أجيال شهدت مراحل من الاستقلال والتبعية, من السيادة والانكسار, من مراحل وتقلبات عملية إمساك الشعب بمعانى تقرير مصيره، واستطاع أن يدعم كيان دولته الوطنية المستقلة، من ابن طولون إلى محمد على, من ثورة ١٩١٩ إلى العبور.

إنه طريق نماذج حركة التحرر والاستقلال الوطنى مع النضال المستمر من أجل المشاركة الشعبية والديمقراطية، ومن هنا كان لزامًا علينا أن نخطو خطوة ثانية مع المفكر الوطنى الرائد المستشار الدكتور وليم سليمان قلادة الذى أورثنا ملف مبدأ المواطنة إرثا لأمتنا شعبا ودولة بحيث يتم الإجابة على السؤال ــ التساؤل, ويثبت الإيمان برسوخ المواطنة فى قلب الوجود المصرى واستمراريته.

قال صاحبى: شىء عجيب: إن كان ميراثنا بحق ـ كما تقول مبهرًا ــ فلماذا, ومن أين, الغموض بل والإحباط؟

كيف حدثت الثغرة؟.. أين كان الحكماء يا عزيزي؟ ثم: هل أن كبار المفكرين فى بلادنا, وفى أيامنا, من أمثال الراحل الكبير, يملكون حقيقة مفتاح الخلاص؟ أو أننا بخير, وكله تمام, ومكانك سِر والحمد لله؟.. حيرتونا معكم: تكلموا! نورونا!.. الله ينور عليكم..

ما دامت أن المواطنة فى القلب, أى «ما دام أن مصر ليست وطنا نعيش فيه, وأن مصر وطن يعيش فى قلوبنا» [على حد تعبير البابا شنودة, صديق عمر المفكر الوطنى الكبير الراحل المستشار الدكتور وليم سليمان قلادة], يجدر بنا أن نتساءل: من أين ـ إذن ـ فترات الإحباط وغيوم ضياع الرؤية وسحابة فقد التوازن التى تنتابنا من وقت إلى آخر؟

كيف يمكن أن يستشعر قطاع من الأمة ـ مرة أخرى فى بعض لحظات فى تاريخها السابع ألفى ــ بضعف الرابطة الوطنية, بعدم الاكتراث بمحور السلطة الوطنية, بل وبالارتباط مع ما هو مغاير؛ لأنه يتقدمنا ويعلو صيته واقعيا, وليس نقطا دعائية؟

وعندنا أن هذا السؤال ـ التساؤل يطرح نفسه فى قلب خصوصية مصر الحضارية، بدءا من عبقرية المكان التى حددها جمال حمدان ومن حوله جيل المؤرخين والمفكرين الوطنيين الأصلاء فى النصف الثانى من القرن العشرين ـ أرض خصبة إلى أبعد حدود الخصوبة، وشعب متماسك، وقيم رفيعة المقام ثابتة، ولكنه أيضا ـ كما عرضنا له مرارا وتكرارا ـ هو شعب أمة متفجرة سكانيا، محاصرة صحراويا، يحيا فى أصعب وأخطر دائرة چيو ـ سياسية فى العالم منذ قدم التاريخ حتى بداية القرن الحادى والعشرين.

وبالتالى يجب البحث عن أسباب الأجواء السلبية بين الحين والآخر فى خارج دائرة الوجود الوطنى بالمعنى المباشر، أى أن موجات الغزو وتسلط القوى الخارجية هو الذى أدخل الانقسام فى المقام الأول.

١ ـ الاحتلال العثمانى، كما يعرض له الراحل الكبير بدءا من دراسات الباحثين: «استعلاء السلاطين كان نزعة أصيلة فى نفوسهم اشترك معهم فيها الأتراك العثمانيون كشعب نظر إلى الحرب على أنها مهمته الأولى، ونظر إلى أصوله الجنسية الأولى على أنها أنقى وأرقى الأصول الجنسية للشعوب الأخرى، ونظر إلى الشعوب الأوروبية المسيحية نظرة ازدراء، ونظر إلى الشعوب الإسلامية نظرة استعلاء. وهكذا عاش العثمانيون فى عزلة اجتماعية وثقافية، وكان اختلاف اللغة أحد المظاهر الرئيسية للاستعلاء والازدراء والعزلة الاجتماعية بحيث إن العثمانى كان ينظر إلى البشرية المحيطة به على أنها لا تصلح إلا للاسترقاق والعبودية والتبعية، وعلى غرار ماحدث فى الولايات العثمانية فى أوروبا، انتهجت الدولة العثمانية نفس السياسة فى الولايات الإسلامية من حيث عدم الاندماج وعدم الانصهار بين الأتراك العثمانيين وأهالى الولايات الإسلامية، وقنعت الدولة بالجزية السنوية ترسل إليها من كل ولاية!».

٢ ـ وقد جاء حكم الأتراك العثمانيين بعد عهد المماليك الذى ظل ـ فى معظم الأحيان وحتى القرن الثامن عشر ـ بعيدا عن جسم الأمة. «فى حقيقة الأمر فإن هذا الانفصال الحاسم بين الحاكم والمحكومين كان يمارس فى مصر من قبل أثناء عهد المماليك، والانفصال هنا ليس أساسه طبقيا وحسب ولكنه أكثر من ذلك؛ لأن المماليك رقيق من سوق النخاسة خليط من المغول والأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد فضلا عن أقلية من مختلف الدول الأوروبية، ولقد عاش المماليك أثناء

حكمهم مصر كطائفة منفصلة تماما عما حولها ولم يختلطوا بأى عنصر من عناصر السكان المصريين سواء فى ذلك الأقباط أو المسلمون, ولم يتزوجوا من أهل البلاد، بل اختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم, وقصروا أعمال الجندية على أشخاص واشترطوا ألا ينخرط فى سلك المماليك الحربى إلا من يستوردونه من جديد ـ فأبناء المماليك مهما عظم شأنهم كانوا يقصرونهم على الأعمال الكتابية والإدارية ولا يسمحون لهم بالدخول فى الجيش».

٣ ـ ويعود المفكر الراحل الكبير إلى «اتساع الجو الحربى الذى ساد العالم الإسلامى منذ القرن الحادى عشر حتى القرن الخامس عشر مع نشوب حروب الفرنجة، أى الحروب الصليبية» فيقول: «نحن نجد فى تكوين الدولة المملوكية بعض تقاليد الحكم المغولى الذى لا يعترف بحقوق سياسية لغير حملة السلاح, وكانت المنازعات بين المماليك وبعضهم البعض لا يفصل فيها القضاء طبقا للشريعة الإسلامية ـ ولكن قضاء العسكر المجاب ـ هم الذين كانوا يقومون بهذا العمل طبقا للقوانين التى ضمنها كتاب ياسة الذى وضعه جنكيزخان، ولقد كان التعبير الاقتصادى عن هذا الانفصال متمثلا فى نظام الإقطاع: فالأرض وهى وسيلة الإنتاج الرئيسية كانت من نصيب رجال الجيش، والإدارة الإقطاعية يشرف عليها ديوان الجيش, وهكذا عاش عامة المصريين على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية».

كيف أمن ـ إذن ـ الخروج من هذا التوغل والإفلات من حصار الكماشات المحيطة بجسم الوطن؟

جيش الوطن، كيد الأعادى

عود بنا إلى الجوهر, إلى صلابة تكوين المواطنة المصرية التى ـ وحدها ـ تتيح مواجهة التوغل والحصار. فلنكمل المشوار من خلال مقتطفات دالة بقلم المستشار الدكتور وليم سليمان قلادة.

١ ـ إنه يعود المرة تلو الأخرى لمكانة أحمد بن طولون الفريدة فى تاريخ مصر, فى قلب عالم الخلافة الإسلامية وهى فى أوج مجدها وقوتها. ويرتكز فى الأساس على كتاب الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف عن أحمد بن طولون (١٠٦٥): «ظلت مصر

ولاية تابعة للخلافة إلى أن جاء أحمد بن طولون إلى مصر.. وقامت فى مصر على يده أول دولة عربية إسلامية.. وكانت الدولة الطولونية تمثل الانتقال من عصر التبعية إلى عصر الاستقلال، من عصر الوالى الذى يمثل سياسة الخلفاء ويأتمر بأمرهم إلى عصر الحاكم القوى الواسع السلطان الذى يسنده الشعب ويسنده الجيش والأسطول والذى يعمل بما فيه الخير والمصلحة للبلد وأبنائه. وكان أحمد بن طولون مؤمنا بأن مصر للمصريين، فكان كريما مع أبنائها ولم تشغله مشاريعه فى الاستقلال وفى تكوين إمبراطورية مصرية عربية عن خدمة البلد وعن القيام بمشاريع كثيرة ينتفع بها أبناء مصر. وبدأ فى عهده وادى النيل حياته لنفسه فى مجموعة الأمم الإسلامية.. شعر المصريون لأول مرة بعد قرون طويلة بأن بلدهم أصبح لهم. وكانت فجيعة المصريين لا حد لها حين دكت قوات الخلافة العباسية صرح الدولة الطولونية. والحق أن قائد العباسيين الذى قضى على الدولة الطولونية أخذ المصريين بمنتهى الشدة والقسوة. ويمكننا أن نفسر العنف الذى صحب سقوط الدولة الطولونية على أنه من الظواهر التى تصحب فترات الانقلاب. ولكن يبدو أن هذا العنف كان بسبب تعلق المصريين بالدولة الطولونية، وأنهم كانوا يعتبرونها دولتهم. وتجلت الحسرة على ما حل بالطولونيين وعلى زوال دولتهم من لهجة المؤرخين المصريين فى استهجان الفظائع التى ارتكبها القائد العباسى محمد بن سليمان الكاتب وجنوده الحراسابية، ومن رثاء الشعراء المصريين للدولة الطولونية. وقد بقيت ذكرى ابن طولون ماثلة فى أذهان المصريين يتحدث عنها المؤرخون والأدباء ويتناقلونها جيلا بعد جيل».

٢ ـ وبعد قهر الدولة المصرية الوطنية على أيدى الغزاة رأينا المصريين المسلمين يدفعون الجزية إلى الحكام غير المصريين؛ لأنهم لم يدخلوا الجيش، فكانوا فى ذمة هؤلاء الحكام. ولم يحدث قط أن أخذ المصريون المسلمون الجزية من الأقباط بل كان الجميع خاضعا لها، فلم يبق لهم جميعا الأقباط والمسلمين من الدين إلا قاسم مشترك هو العبادة والتصوف أو الرهبانية والسلوك الأخلاقى. وفى هذا العالم المشترك يوحدهم الشعور بالظلم ورجاء الخلاص، وينطلق من أفئدتهم دعاء موحد إلى الإله الواحد القهار (أحكم) الحاكمين ونصير المستضعفين فى الأرض، أو أن يرددوا آدابهم الشعبية التى تمتلئ بأساليب التعبير عن إدانة الواقع والحنين إلى حاكم من جلدتهم لم

يمسه الرق فيبثون زفراتهم فى أدبهم, وأصبح هذا الأدب بمثابة مقاومة شعبية لظلم هؤلاء الغرباء وتسيطر على القصص الشعبى صورة المخلص الذى ينظره الناس بصبر نافذ فيرفع عن كاهلهم الظلم.. ويوزع الأمر بينهم بالقسط كما هو الشأن فى قصة الظاهر بيبرس.»

٣ ـ عند هذا الحد, فى تلك اللحظة التاريخية على وجه التحديد يصعد جيش الوطن إلى المقدمة بوصفه بؤرة انصهار الوحدة الوطنية فى نفس العملية التى يقف فيها درعا للوطن.

نقطة البدء كانت فى وثبة أحمد بن طولون إلى أن جاء محمد على (١٨٠٥ ـ ١٨٤٠), فدخل المصريون ـ مسلمين وأقباطا ـ للمرة الثانية إلى صفوف الجيش, قامت أول دولة حديثة كبرى على أرض مصر بعد أجيال من الانحدار, بدأت معانى النهضة الوطنية والحضارية تدب فى أرجاء الأمة.

كان لا بد أن يتحرك أعداء مصر: أفلم تقم الدولة الحديثة الأولى فى الشرق, ستون عاما قبل ثورة اليابان فى عصر «ميجي» (١٨٦٨) بدءا من تأكيد معانى الوحدة الوطنية, ورفع شعار المواطنة علما ساطعا فى مقدمة أعلام جيوش مصر.

كان لا بد من ضرب الوثبة المصرية من ١٨٤٠ إلى ١٩٦٧, وفى هذا يقول المفكر الكبير الراحل مايلى: «يقدم التاريخ الحديث لمصر نموذجا بالغ الوضوح والدقة لهذا الإجهاض الدورى, بدأت تجربة محمد على عام ١٨٠٥ وضربت عام ١٨٤٠, ولكن حيوية مصر لم تمت, فنهضت أيام سعيد وإسماعيل لتضرب مرة أخرى بعد مدة متساوية عام ١٨٨٢, ثم جثم الاحتلال على مصر وبدأ الكفاح الوطنى الذى بلغ ذروته عام ١٩١٩ لتبدأ مصر مرحلة جديدة من محاولتها للوصول إلى الصيغة المناسبة للحكم فى إطار الاستقلال. وهنا تعاون الاحتلال والقصر لإجهاض التجربة الليبرالية فى ضربات متوالية. فلما انتهت الحرب العالمية الثانية وبدأت شعوب العالم مرحلة جديدة من الكفاح ومن بينها شعب مصر، ونظرا لأن إمكانات تجاور التخلف أصبحت تتيح ذلك فى زمن أقل، كانت ضربات الإجهاض تتوالى خلال فترات أقصر مدى مما كان يحدث فى القرن التاسع عشر: قامت إسرائيل عام ١٩٤٨, وحدث العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦, ثم حرب ١٩٦٧ ـ كل عشر سنوات فى المتوسط لتستهلك أولا بأول كل ما

يتراكم من جهد الشعب لتحقيق التنمية فى مختلف مجالاتها مع ما يصحب الضرورات الحربية من ضبط المجتمع كله بالأسلوب العسكرى».

ومن خلال هذا المسح التاريخى, يلفت الراحل الكبير النظر إلى مركزية الجيش فى حياة الوطن من ناحية, ورد فعل هذه الظاهرة فى أعماق النفس الوطنية الجريحة خلال فترات الهوان: «لم يدخل المصريون الذين أسلموا إلى الجيش الإسلامى منذ عهد عمرو إلى محمد على. ولم يحدث أن صار الوالى على مصر مصريا مسلما منذ عصر عمرو إلى محمد نجيب. بل إن المصريين المسلمين كانوا يدفعون الجزية إلى الحكام غير المصريين لأنهم لم يدخلوا الجيش فكانوا فى دفة هؤلاء الحكام. ولم يحدث قط أن أخذ المصريون المسلمون الجزية من الأقباط بل كان الجميع خاضعا لها».

أى أن الإيجابية والسلبية فى الشخصية المصرية, الأمل والإحباط, الإبداع أو الانطواء، كلها سلوكيات تنبع من تأكيد استقرار الوطن, فلا تظهر معانى الارتداد إلى الأركان والأصول, أى ما يمكن أن يطلق عليه الأصولية القومية أو الحضارية, إلا بمثابة رد فعل لانعدام دور مصر الفاعل فى التاريخ. وفى هذا توكيد ــ لو احتاج الأمر إلى توكيد ـ للفكرة المحورية لمفكر مصر رفيع المقام جمال حمدان: إن الحقيقة العظمى فى كيان مصر ونقطة البدء لأى فهم لشخصيتها الإستراتيجية هى اجتماع موقع جغرافى أمثل فى موضع طبيعى مثالى، وذلك فى تناسب أو توازن نادر المثال. والموقع والموضع هنا متكاملان جدا فى الدور ومتناسبان إلى حد بعيد فى المقياس, فكل منهما ضخم الحجم أو الخطر, ولكن فى تناسق دقيق وشبه محسوب. وبهذا فإن ثمة خاصة واحدة فى شخصية مصر طوال تاريخها ـ إمبراطورية كانت أو مستعمرة أو جزءا من دولة كبيرة هى يقينا ـ أنها كانت دائما مركز دائرة... لها محيط وأبعاد, هى مركز الثقل والجاذبية ولها الدور القيادى... ولا شك أن هذه الصفة الجوهرية... ترتد إلى جذور جغرافية أصيلة وكامنة فى كيان مصر.»

من هذه المداخل إلى مسار صياغة المواطنة المصرية واستمرارية الوحدة الوطنية فى قلب شخصية مصر عبر عشرات الأجيال تبين بوضوح أن جيش الوطن كان ــ دوما ــ القالب الفاعل الرئيسى لجمع الشمل وتأكيد الاستمرارية بما اتسم به من تفعيل معانى الندية والمساواة فى الواجبات والحقوق بين جميع المصريين. يستند المفكر الراحل الكبير

إلى الأعمال المرموقة التى قدمها طارق البشرى وشفيق غربال وكيف أن «زحف المحكومين إلى مؤسسات السلطة أيام محمد على وبعده» بدأ من ظهور جيش مصر فى مقدمة الساحة. إليك ـ مثلا ـ المقتطفات من اللوحة الرقيقة التى نسجتها المدرسة التاريخية المصرية. تمزج بين أقلام كبار المؤرخين وآراء وليم سليمان قلادة: «إن قرار التجنيد العام... كان أمرا يستلزم أمورا وتتداعى معه مجموعة من الآثار. وجب به على الحاكم أن يعيد النظر فى علاقته بالشعب كله بطريقة من الطرق. وتغيير الجندى اقتضى من الحاكم أن يغير من نفسه» ولكن هناك ما هو أكثر، إن التغيير اقتضى إلى ذلك أن يغير الجندى المواطن نفسه. فهذا الجندى الجديد ليس وافدا مرتزقا، بل يشترط فيه أن يكون «مستوطنا فى القرية التى يجلب منها وذا أهل وسكن فيها».

وطبيعى أن «يحركه الشعور بالانتماء إلى الجماعة».

وهكذا لم يعد الارتباط بالأرض ـ فى عمليات الإنتاج والصلات الشعبية وما اختزنه ذلك على مدى الأجيال فى الأنشطة والمفاهيم الدينية والاجتماعية والفلكورية ـ لم يعد هذا كله وحسب هو الذى يكون نظرة المصرى إلى بلاده، بل وجب على المحكوم أن يعيد النظر فى علاقته بالأرض وبالشعب. لتضم النظرة الجديدة أن المصرى ـ المسلم والمسيحى ـ بعد أن كان محكوما وحسب. عبدا للمأمور. صار هو المأمور نفسه. وهو يواصل الزحف ليكون هو الآمر. وإذا كان هذا الواقع الجديد قد فرض على الحاكم أن يحترم المحكوم. فقد ترتب عليه أيضا أن المحكومين فيما بينهم ازدادت رابطتهم ودخلوا فى مجالات جديدة تتطلب مزيدا من التعاون والاحترام المتبادل والتشارك فى الوصول إلى الرأى الموحد وإلى وضعه موضع التنفيذ. لم يتم ذلك كله دفعة واحدة بل استغرق زمنا. ولكن الطريق قد انفتح وأصبح من غير الممكن العودة إلى الوراء. والمصريون الذين كانوا من قبل على مدى مئات السنين يعاملون كشعب مهزوم وليس له أدنى نصيب لا فى حكم ولا فى جيش فتحت أمامهم بلا تفريق أبواب السلطة ليمارسوها معا فى بلادهم.

برنامج ثقافة المواطنة

هل يمكن أن تخطو مصر خطوة جديدة لتوكيد «مبدأ المواطنة»؟ هذا ما يراه مفكرنا

الكبير الرائد الراحل, إذ يقدم «برنامجا شاملا لتطبيق ثقافة المواطنة» يتمركز حول تسع رسائل:

١ ـ «ثمة نقص خطير فى مناهج التعليم, وهو غياب المرحلة القبطية أى القرون الميلادية الستة الأولى قبل مجىء الإسلام, وفى حقيقة الأمر ينطوى هذا النقص على خلل خطير فى فهم مسار التاريخ المصرى, إذ أن الخصوصية الأساسية لهذا التاريخ هى الاستمرارية التى تعنى اتصالا حيا بين مراحل هذا التاريخ من مصر القديمة إلى القبطية إلى الإسلامية. وتمثل المرحلة القبطية واسطة الوصل بين هذه المراحل, فقد استوعبت ما سبقها وأثرت فيما جاء بعدها, هذا فضلا عن الإنجازات الحضارية التى استوعبت ما سبقها وأثرت فيما جاء بعدها. هذا فضلا عن الإنجازات الحضارية التى حققها المصريون خلال هذه الحقبة سواء فى الداخل أو على المستوى العالمى... مع إسقاط هذه المرحلة من برامج التعليم, ينشأ التلميذ المصرى وقد أصاب ذاكرته الوطنية تآكل ضار. وينغرس فى وعيه منهج نفى الآخر الدينى, وعلى أساس هذا النفى يكون تعامله فى المجتمع. إن جبر هذا النقص يصبح ضرورة وطنية وسياسية واجتماعية وثقافية, ومن ناحية أخرى فإن مناهج النصوص والقراءة المقررة على التلاميذ تخلو مما يحويه التراث المصرى من ثقافة الوحدة الوطنية، بل إن الجامعات المصرية تخلو من قسم يدرس الحضارة المصرية فى هذه المرحلة, فكلية الآثار بجامعة القاهرة تدرس المرحلة المصرية القديمة ثم الإسلامية وليس بها قسم للتراث القبطى. وقد أرسل مؤتمر عالمى للقبطيات عقد فى ألمانيا خطابا إلى وزير التعليم يقول إن مصر هى المكان الطبيعى لوجود هذا القسم الذى تحرص الجامعات فى مختلف بلاد العالم على أن يكون فيها...»

٢ ـ «تأتى بعد ذلك وسائل الإعلام: الصحافة والإذاعة والتليفزيون. هنا توضع خطة تفصيلية تحقق حضور الأقباط والمسلمين معا فى المقالات والبرامج المتنوعة والدراما...»

٣ ـ «أن يتضمن النشاط الثقافى الذى تقوم به وزارة الثقافة بمختلف أجهزتها على أعمال متنوعة يكون مضمونها ثقافة الوحدة الوطنية وأن تقدم على مستوى شعبى ويشمل تأثيرها مختلف قطاعات الشعب...»

٤ ــ أن يدخل مفهوم المواطنة بعنصريه: المشاركة والمساواة مادة أساسية فى

مقررات الدراسة وبرامج الإعلام وعلى وجه الخصوص فى برامج معاهد إعداد القادة بجميع درجاتهم وأنواعهم...»

٥ ـ «أن تجتهد الأحزاب السياسية وكذا الأجهزة التنفيذية المختصة فى إعداد كوادر من جميع مكونات الأمة لتشارك فى قيادة العمل الوطنى فى مختلف المجالات...»

٦ ـ «عن بناء الكنائس. ارتبطت هذه المشكلة بالفرمان العثمانى المشهور بالخط الهمايونى. وفى حقيقة الأمر فإن هذا الخط صدر عن الدولة العثمانية عام ١٨٥٦ تحت ضغط الدول الأوروبية لحماية الطوائف المسيحية فى تلك الدولة.. ولذلك فإنه يكفى إعلان عن وزارة العدل بأن هذا الخط لا يدخل ضمن النظم المعمول بها فى مصر...»

٧ ـ «ثمة حاجة إلى إبداع سياسى معاصر يواصل ما كانت الحركة السياسية فى مصر تقوم به فى اللحظات الحرجة. فعلى سبيل المثال اقترح عبد العزيز فهمى أن يكتب الشاعر أحمد شوقى دعاء يردده المصلون فى المساجد والكنائس فى أحد أيام الجمعة قبل سفر الوفد للخارج للمفاوضة إعلانا لتأييد الأمة بكل مكوناتها للمفاوضين المصريين...».

٨ ـ «عن أقباط المهجر. الفكرة الأساسية لفهم الموقف هناك هى أن النشاط المشبوه تقوم به أقلية ضئيلة تستنكره أغلبية كبيرة تلتف حول رئاسة الكنيسة. ومن ثم فإن المواجهة الناجحة لما يحدث هى فى تدعيم موقف الأغلبية وحثها على التحرك.. وفى هذا المجال إقامة معرض للآثار المصرية يعبر عن استمرار الحضارة المصرية عبر مراحلها الثلاث، وعن التحام جميع مكونات الأمة فى حركتها الموحدة لاستخلاص سيادة الوطن وحقوق المواطن، ومساهمة أبناء مصر جميعا فى تحقيق المشروع القومى بمختلف جوانبه...»

٩ ـ «أن ينشأ مركز لدراسة الوحدة الوطنية سواء من ناحية تاريخها ومقوماتها والمشاكل التى تتعرض لها وغير ذلك.. أو أن يخصص قسم لذلك فى أحد مراكز الأبحاث القائمة. فيكون هذا المركز أو القسم مرجعا يزود جهات التعليم والإعلام والثقافة السياسية بالمعلومات والخطط والمقترحات التى تدعم هذا الجانب الأساسى فى الحياة المصرية...»

القلب الكبير, العقل الكبير, الفكر الكبير، حتى الرؤية الكبيرة, وصية لأمتنا: «لكم نحتاج إلى التقليد الذى أرساه مؤرخو مصر منذ أن بدأ ذلك عبد الرحمن بن عبد الحكم، أن ستفتح كل فكرة وكل عمل بذكر «فضائل مصر», لتكون هى هدفنا المشترك, على الجهد, ومثوانا الأخير».

قال صاحبى: أعد! أعد!... كلمات حلوة, ونور ساطع... كلمات... كلمات... بالله عليك: لماذا لا نتحرك لإنشاء «المعهد المصرى لدراسة المواطنة»؟

ثم ـ ألا يجدر بنا وبالمعهد ـ إنشاء «جائزة الوحدة الوطنية» تمنح باسم الفقيد الكبير إلى من يفتحون الطريق, السنة تلو الأخرى, أمام إشراق مصر الحضارى, إعلانًا لرسالتها, توكيدا لقوتها, رمزا لاستمراريتها؟... يدا فى يد: دعنا نأتى عملا يراه الله.....»

ـ ٥٤ ـ

سيادة المشير: وداعًا من القلب

حرب أكتوبر ١٩٧٣ ثم حصارها سياسيًّا لإجهاض رسالتها الحضارية فى قلب صحوة حركات التحرر على ساحة الشرق الحضارى وكذا العالم. ما يدفع بنا ـ ترى ـ إلى مراجعة النفس والتاريخ؟

رحل رجل كان عالمًا للعبور، ثم ضحية للحصار. هكذا كان طريق المشير محمد عبد الغنى الجمسى، وقد ابتعد عنا وغادر دنيا المآسى شامخًا غير منكسر حتى اللحظة الأخيرة.

ليس هنا مكان الذكريات، اللهم إلاّ ما يساعد منها فى إضاءة الطريق إلى ما نسعى إليه من حشد كافة القوى فى إطار الجبهة الوطنية المتحدة فى تحالف المستقبل. كانت الظروف سانحة بعد العبور لتلاقى رجال الفكر والسلاح، طلائع شعب مصر وجيش الوطن. هكذا كانت أركان المشروع الذى عرضنا له فى مكتب وزير الدفاع فى حضرة رئيس الأركان العامة آنذاك. كان المشروع هو: إنشاء مجلة فكرية وطنية جامعة لطلائع رجال الفكر والسلاح تجمع بين ممثلى جميع مدارس الفكر والعمل. لم يكن المشروع مألوفًا آنذاك. ولكن الراحل الكبير أدرك بعد لحظات السؤال صدق النوايا وأهمية المسمى، فكانت الموافقة والخطوات التنفيذية الأولى. ثم كانت تقلبات الأمور، بحيث لم تتحقق هذه الرؤية. وهكذا كان شأن «الندوة العالمية لحرب أكتوبر ١٩٧٣» فى ١٩٧٦ التى تحركت فى نفس هذا الاتجاه التجمعى، ولكن المناخ كان قد تبدل...

وفى جو آخر وفى ظروف أخرى تمامًا التقينا أثناء علاجه الدقيق فى المستشفى الأمريكى قرب باريس. استسمحت ملحقنا العسكرى أن أزور المشير، وكان فى غرفة العناية المركزة لا يشعر ولا يتحدث، فأذن بذلك. وأذكر يوم الزيارة: جلست فى

صمت إلى جانب السرير، ولا يعرف أحد متى يفيق المشير، ولا كيف يكون التصرُّف. وفجأه وبعد نصف ساعة رأيته يفتح عينية ويفيق ثم يجلس ليتحدث بوضوح وصراحة. يسألنى متى جئت وكيف علمت بالأمر. ثم بعد أن تبادل المعانى والتمنيات عاد إلى غيبوبته، وإن كان من الواضح أنه كان على الطريق الطويل إلى الشفاء. ثم كانت مناسبات ولحظات أخرى، كلها تبدو مفاجئة، وإن كنت أرى الآن أن خيطًا رفيعًا يربط بينها.

كان اللقاء الأخير فى نادى مصر الجديدة ذات صباح. قصدته للسلام كالعادة وإذ به يكاد يشجبنى ويتساءل: إن كنت أنا الكاتب الذى يكتب فى «الأهرام»: «ماذا تقصد؟ كثيرًا لا أفهم ماذا تقول بالضبط؟...» ثم كانت ضحكته الواسعة وهو خير من يعلم أن الإستراتيچية هى فى الاقتراب غير المباشر.

علم شامخ نير من سلالة عبد المنعم رياض الوطنية وامتياز العسكرية المصرية عبر العصور. سيظل حيًّا فى قلوب الوطن والأمة.

كان من الفاتحين.

ـ ٥٥ ـ

أحمد الرفاعى:
رسالة « اللجنة الوطنية » إلى شباب مصر المستقبل

من قال إن مصر ليست على موعد مع القدر؟

كنت أعدّ العدة للترحيب بالخطبة التاريخية لرئيس مصر التى أفتتح بها ولايته الرابعة، باسم الأمة والشعب، بغية الإسهام فى دعم الرسالة المركزية التى جاءت فيها، ألا وهى: توجه مصر أمة ودولة وشعبًا إلى الإسهام فى صياغة عالم جديد متعدد الأقطاب والمراكز فى وجه هيمنة القطب الواحد. إنها عندى ـ وعندنا أظن على أوسع نطاق ـ هى جوهر رسالة الرئيس، يدًا فى يد مع ما وعد به من الاتجاه نحو تعميق وتوسيع الديمقراطية، والانتقال من الأوضاع التى لا تليق بأمتنا وتراثنا الحضارى إلى نمط جديد من مشاركة القوى السياسية والفكرية على أوسع نطاق فى تدبير أمر الوطن.

كانت هذه النّية. إلى أن تفجَّرت سطور قلائل تنقل إلينا نبأ رحيل الزميل صديق العمر، المناضل رفيع المقام المستشار أحمد الرفاعى يوم ١٢ نوفمبر ١٩٩٩. لعل الجيل الجديد والذى سبقه لا يعرف هذا الاسم الساطع. ولكنه يعرف، أو على الأقل سمع عن دور «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة». كان أحمد الرفاعى أحد أعضائها البارزين، ثم تولى المشاركة فى طاقم قيادة المقاومة الشعبية فى منطقة القنال، وخاصة فى بورسعيد أثناء حرب العصابات ضد قوات الاحتلال فى منطقة القنال، عندما تشابكت أيدى قوات الشرطة والشيوعيين والإخوان ومصر الفتاة دون أدنى تمييز توكيدًا لاستقلال مصر ورفعة مقامها وحقها المقدس فى أرضها وشرفها.

وقد ظل الراحل الكبير المستشار أحمد الرفاعى على إيمانه وتوجهه، رغم انزوائه عن الأضواء بعد ١٩٥٤. وقد لعب على الدوام ـ أى منذ الأربعينيات حتى رحيله ـ

دورًا متصلاً لتحقيق التقارب بين مختلف الاتجاهات فى الحركة التقدمية المصرية، وكذا بين مختلف القوى التكوينية للجبهة الوطنية المتحدة. كان أحمد الرفاعى ـ أيام النضال ـ من أبرز القادة الجماهيريين لحركة البناء الوطنية الثورية، ومن أكثرهم صلابة وشجاعة. وهكذا كان أيضًا بعد فترة الانزواء النسبى، شامخًا فى شخصيته، متواضعًا فى خلقه، وفيًّا لزملائه، دائم الولاء والوفاء لشعب مصر وأمتنا ومبادئ حضارتنا التى كانت تجتمع فى رحاب قلبه الدافئ فى نسيج يشبه ذلك الذى عرضنا له فى صفحاتنا السابقة عن المستشار وليم سليمان قلادة، ومن قبله منذ سنوات وداعًا للأستاذة الدكتورة لطيفة الزيات، ومن قبلها الوجه العلم المغيب لحركتنا السياسية التحريرية ونهضتنا العلمية فى مجال الطاقة الذرية ألا وهو الأستاذ الدكتور عبد المعبود الجبيلى وزير البحث العلمى الراحل، واحدًا من أبرز قادة الحركة التقدمية فى الأربعينيات من القرن العشرين.

أكتب هذه السطور فى اللحظة التاريخية التى تجتمع فيها قلوب مصر وأفئدتها، بمختلف قواتها السياسية والفكرية دون استثناء، فى إجماع لم يشهد له تاريخنا المعاصر مثيلاً إلا أثناء الإعداد لحرب أكتوبر وانطلاقًا. أعنى بذلك هذه اللحظة التى تفجر فيها مسلسل التآمر ضد مصر: تراكم اتهامات الدولة الصهيونية لنا بالإعداد للحرب يومًا بعد يوم، ثم مناورة «النجم الساطع»، ومن بعدها السحابة السوداء الحمراء التى سممت أجواء القاهرة، وأخيرًا وليس آخرًا مأساة طائرة مصر للطيران بعد إقلاعها من نيويورك.

المناورة، السحابة، الطائرة...

نقول: الإجماع، الإجماع الذى لم يسبق له مثيل إلا فى معركة العبور. كان هناك إجماع واسع يومى ٩، ١٠ يوليو ١٩٦٧ بعد انكسار قواتنا المسلحة، واستقالة رئيس الدولة آنذاك، إجماع من أجل تثبيت أركان الدولة برئاسة جمال عبد الناصر. ولكنه ـ وكذا يوم تشييع جنازة أم كلثوم خالدة الذكرى ـ كان إجماعًا أقل اتساعًا بكثير مما يحدث اليوم ومما حدث أثناء العبور. والحق يقال: لقد بدأنا بالفعل من بدايات «الوفاق الوطنى» إلى «الوفاق التاريخى»، أى أن الإجماع اليوم يتعدى كافة الفوارق والحساسيات والخلافات وحتى الرؤى المتنوعة وتباين فهم مكونات الأمة لمغزى البناء الحضارى السبع ألفى. الوفاق التام ـ اللهم إلا شرزمة من دعاة الاستسلام والردة.

قائمة تتسع إلى الشريحة رأيت أن أركز فقط على بعض معالمها الساطعة، ذاكرًا الأسماء الرائدة مع حفظ الألقاب:

١ـ افتتاحية رئيس تحرير الأهرام الأسبوعية يوم الجمعة ٥ نوفمبر ١٩٩٩، وفيها يعرض لرأى العقيد معمر القذافى، رئيس الجماهيرية الليبية، أثناء مناورات «النجم الساطع» وقد ذكر رئيس تحرير «الأهرام» نقيب الصحفيين المصريين بهذه المناسبة كيف أن الرئيس القذافى جمع القيادة السياسية والعسكرية لبلاده لتحليل الأمر، مبينًا أنها أكبر مناورات إنزال قوات برية ضاربة منذ فتح الجبهة الثانية على سواحل نورماندى عام ١٩٤٤. مما دفعه إلى التساؤل عن الهدف الممكن من قبل هذه المناورة الإستراتيجية الجبارة. وقد رأى أن هناك إمكانية أولى ألا وهى إنزال مثل هذه القوات لحماية الدولة الصهيونية فى حالة هجوم الجيوش العربية المحاصرة لها مما يهدد أمنها ـ وهو الاحتمال البعيد كما يعلم الجميع. ثم انتقل العقيد معمر القذافى إلى الفرض الثانى.

ألا وهو قرار أمريكى ـ إسرائيلى محتمل بالقيام بعملية هجومية برية واسعة على سواحل مصر، أو بوجه أدق مصر ـ ليبيا.

٢ـ ثم هذه جريدة «الأسبوع»، قال عنها كاتبنا الكبير نجيب محفوظ إنها أشرف وأفضل وأجرأ صحيفة يقرأها فى مصر، وذلك فى جلسة حواره الأسبوعى وقد حضرها بعد الرحمن الأبنودى وجمال الغيطانى ويوسف العقيد وزكى سالم وسامى التهامى وفريدة وعلى الشوباشى وإلياس خورى ونعيم صبرى.

٣ـ ثم ـ أخيرًا وليس آخرًا ـ لقاء محطة التلفزة العالمية الأمريكية «سى إن إن» الكبرى مع عادل حسين، أمين عام حزب العمل الاشتراكى، يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٩٩، وقد أتاحت له المساحة الواضحة، وإن كانت محدودة بطبيعة الأمر، للتنديد بوسائل التحقيق الأمريكى فى مأساة الطائرة، مؤكدًا أن الولايات المتحدة وإسرائيل لها مصلحة مشتركة فى ضرب مصر وحصارها، والقضاء على نهضة الحركة السياحية بها مما يشير بالبنان إلى مسئولية هاتين الجبهتين فى تفجير الطائرة.

كل هذا بين العديد الكثير مما يحدث يومًا بعد يوم، ساعة بعد ساعة، فى الجو الغريب الذى بدأ بالتهديدات الإسرائيلية، ثم مناورات «النجم الساطع» على هذا

النطاق الهائل الإستراتيجى الملفت للأنظار، حتى السحابة السوداء الحمراء التى قيل إنها من ناتج إحراق بقايا الأرز، وكأن الأرز لم تعرفه مصر منذ أجيال، وقد تمازجت مع إحراق النفايات، وكأننا لم نعن بإحراق هذه المواد من قبل. حتى مأساة الطائرة. ولعلّ هذه الطائرة المتفجرة فى الجو هى التى فجرت الموقف الأسود كله.

فجأة، وبدءًا من هذا التفجير، اجتمعت الخيوط المتناثرة فى بؤرة واحدة سوداء، تحت أضواء الوجدان، وقد اشتعل العقل المصرى فى الأعماق ما أضاء الطريق. انظر مثلاً إلى ما نسميه «رجل الشارع» فى نوفمبر ١٩٩٩، وعند الخروج من باب الدار، وبعد السلام، رأيت بواب العمارة المجاورة يبتسم مهللاً: «بشِّر يا دكتور!... راحت السحابة، خلاص!... راحت اليوم، وانتهت أيضًا مناورات النجم الساطع...». وراح يقهقه كأن الأمر واضح: لا أرز، ولا نفايات، ولا يحزنون. شعب مخضرم يشم رائحة التاريخ. أليس هو شعب مصر الذى كان منذ سبعين قرنًا فى ملتقى الحضارات والقارات، فى مهب الحروب والاحتلال، فى قلب الصراعات الكبرى؟ أليس هو من أبناء هذا الوطن الفريد الذى لم تنجح أية قوة أجنبية ولا أى عدوان على المساس بوحدته أو تقسيمه بأى صورة من الصور عبر التاريخ.

من «الشفافية» إلى التزييف

ليت الموضوع كان بهذه السهولة. ليت الأمور كانت على هذه الدرجة من الوضوح و«الشفافية»، كما نقول اليوم. إذا كان الأمر كما هو، فكيف يمكن تفسير ذلك رغم التعميم والإبهام وتغييب صراعات العالم المعاصر منذ ربع قرن، بعيدًا بعيدًا عن الوجدان المصرى والبيت المصرى؟ أليس النشاط الحزبى محصور فى مراكز الأحزاب؟ ألا نرى الجمعيات غير الحكومية تختص بدوائر نشاط متشابكة تفصيلية لا رافد لها؟ نعم، نعم: هناك ساحة واسعة لحرية الرأى والفكر. ولكن أيضًا الواقع أن هذه الحرية لا تصبّ فى عمل شعبى جماهيرى أيًّا كان نوعه. ولنذكر الأيام التى كان فيها مقال للدكتور محمد مندور أو حسن دوح أو أحمد أبو الفتح أو شهدى عطية الشافعى أو عزيز فهمى أو بيان من «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» يغير إيقاع الشارع المصرى ويؤثر على الخيارات والقرارات المستقرة...

مأساة طائرة مصر للطيران، مثلاً منذ اللحظة الأولى، أدرك الوجدان المصرى فى أعماقه ودون تردد أن الموضوع مغاير تمامًا للتحليلات الزائفة التى بدأت تفد الواحدة تلو الأخرى، اليوم تلو الآخر من الولايات المتحدة، سواء من الهيئات الحكومية، أو من الإعلام المسمم. وقد تمركز الوجدان المصرى والعقل المصرى حول محورين: فمن ناحية موضوع وجود عدد كبير من الضباط العظام والقادة المتخصصين فى أعلى مستويات التكنولوچيا المتقدمة على متن الطائرة، مما أعاد إلى الجميع ذكرى مأساة سقوط هليوكبتر وزير الدفاع والقائد العام الفريق أول أحمد بدوى فى السبعينيات. تساءل الناس: كيف يمكن أن يحتشد هذا العدد من طليعة القادة المصريين على متن طائرة واحدة؟ ألم نسمع أن العدد الأقصى لتواجد هؤلاء الضباط يجب ألا يتعدى الخمسة؟ ثم، وبغض النظر عن هذه الناحية الإدارية الحيوية: من ـ حقيقة ـ يفيد من تدمير هذه النخبة الطليعية الرائدة للقوات المسلحة من خريطة الوجود والصراع؟ الكل يعلم سيل الاتهامات والتهديدات القادمة من العدو. والكل أدرك ـ دون مبالغة ـ أن العدو ـ وحده ـ هو صاحب المصلحة.

ثم جاءت الاتهامات الغريبة العجيبة التى حاولت أن تتهم مساعد قائد الطائرة الراحل جميل البطوطى بأنه تمتم بعبارات تدل على أنه ينوى الانتحار وتدمير الطائرة!... وهى الأكذوبة الكبرى التى فتتها المحققون المصريون، فاضطرت وسائل الإعلام الغربية أن تتمثل ـ بدءًا من يوم السبت ٢٠ نوفمبر ١٩٩٩ ـ وعلى وجه المذيعين على شاشات التلفزة والمحللين على صفحات كبرى الجرائد الأمريكية اللوعة والحسرة والتردد والتخبط، علامات الخيبة.

ماذا حدث، ترى؟ من أين هذا التراجع المفاجئ؟ ربما لأنهم أدركوا أنهم لا يملكون تفتيت الوجدان والإرادة المصرية، وأن سيطرة دوائر الإخطبوط الصهيونى والمالى على الإعلام والرأى الواحد فى أمريكا وكذا فى معظم الغرب ـ مع الأسف ـ لا يمكن أن يقف سدًا أمام اختراق الذكاء المصرى لهذه الألاعيب الصبيانية. أصبح من الواضح أنه لا يمكن القيام بالعمليات المنشودة، على الأقل فى التّو واللحظة، بعد أن تأكدت، مرة أخرى لو لزم الأمر، وحدة رجال الفكر والسلاح، وحدة الشارع والدولة، وحدة كافة الاتجاهات السياسية ومدارس الفكر والعمل على أرض الوطن ـ بمجرد أن ارتفعت نبرة التهديد وانكشف المخطط.

عود بنا، فى هذه اللحظة من التحليل، إلى الفقيد المستشار أحمد الرفاعى، وبدءًا من رحيله، إلى رسالة «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة».

تغيّر المصطلح هذه الأيام. نسمع الكثير عن «المشاركين فى اتخاذ القرار»، وعما يسمى «الإدارة» وليس الدولة و«إدارة الأزمات» بدلاً من الحركة السياسية، وعن تطويع الإرادات بانحناء المستفيدين وعمليات الفساد. بل وإن بعض المشاركين فى هذا كله يرون أنه من الطبيعى، كذا، أن يظلوا فى أرفع الأماكن من المسئولية والاستشارة طيلة الحياة، ما دام أن عشر سنوات وربع قرن لا تعتبر إلا عتبه أولى ـ فى رأيهم. أما بقية الأمة، فلا أحد يدرى إلى أين، ومتى، وكيف... وكذا يقرأ الناس، هذه الأيام، منذ سنوات، عن مشروعات تفصيلية وخطوات عملية وإجراءات قطاعية وغير ذلك مما يهدف إلى مواجهة الأزمات الطاحنة التى تحيط بجماهير الشعب العامل، وكذا بالطبقة المتوسطة التقليدية، بينما ارتفعت نبرة السماسرة وجماعات العمالة والاستيراد والتوكيلات. إلى حد أن نفرًا من الوجوه استطاع ــ ولا يزال ــ أن يمضى فى بث الدعاية لما سمى بعملية «التطبيع» أى الشراكة مع العدو فى أعماق المجتمع والفكر والتحرك المصرى.

الخط العام لجميع المصريين

وفى مواجهة هذا الهوان، وفى هذه اللحظة التاريخية بالذات التى تحاصر فيها المخاطر أمتنا العظيمة، عادت جماهير الشعب من كافة الطبقات والتوجهات السياسية والفكرية إلى الخط العام.

نعم: الخط العام. الخط العام عبارة لم تعد من المصطلحات المحببة للإعلام ولا التقاليد المعمول بها منذ السبعينيات. هنا يأتى مقام ومكانة رسالة «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» التاريخية، وهى التى عبّرت عن مختلف الروافد والقوى التى صنعت الخط العام لحركتنا الوطنية المصرية فى الأربعينيات من هذا القرن، سنوات قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢، الخط العام لحياتنا القومية ـ فى الأساس ـ حتى اليوم.

والخط العام لحركتنا الوطنية المصرية الذى بدأ يتأكد بشكل ساطع هذه الأيام ــ فى مواجهة الخطر ـ يتلخص فى تأكيد محاور التحرك المستقبلى، بدءًا من أركان الخصوصية

المصرية عبر الأجيال. إن هذه التوجهات، كما صنعت فى الأربعينيات وما زالت حية فى قلوب وعقول كافة المصريين، معروفة فى الأعماق، وإن كان واجبًا علينا أن نحددها بدقة لمواجهة ما هو قادم، وإضاءة الطريق أمام شبابنا الصاعد.

المهم فى هذا العرض الموجز إنما هو التركيز على توضيح المعانى والمحاور الاتجاهية ـ أى الفلسفة العامة ـ لرسالة «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة»، وقد عرض لتاريخها ونشاطها، إنجازاتها وقمعها مجموعة من خيرة مؤرخى وأعلام الحركة الوطنية الراحلين والعاملين: شهدى عطية الشافعى، سعد زهران، عبد المنعم الغزالى، مصطفى طيبة، طارق البشرى، عبد العظيم رمضان، رءوف عباس، إلى جانب مئات الصفحات هنا وهناك فى كتب ومذكرات مناضلى جيل الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وكانت بمثابة المواد الأولى والعناصر التكوينية للتحليل الذى قدمناه عام ١٩٦٢ فى «المجتمع المصرى والجيش».

أولاً: تحديد معنى سيادة مصر على إنهاء تمثل الانتقال من مجرد إعلان «الاستقلال» إلى تأكيد «السيادة الوطنية» عبر حركة التحرير الوطنى والمعارك التى تصاحبها ـ وستظل ـ فى مواجهة الاستعمار والإمبريالية. ومعنى هذا هو رفض العبارات والشعارات الفارغة أو المحددة فى إطار كماشات مصطلح دول الهيمنة، ورفع شعار الإمساك بكافة مفاتيح سيادة الشعب المصرى بوصفها ـ وحدها ـ هى التى تمثل الاستقلال والسيادة.

ثانيًا: تحديد مفهوم الديمقراطية على أنه سيادة جماهير الشعب والمشاركة الفاعلة فى اتخاذ القرار، ومراقبة تنفيذ القرار، والإفادة من ثمار تنفيذ القرار، وذلك بالانتقال من مجرد «التعددية» الحربية الواجبة، إلى اشتراك كافة القوى والاتجاهات السياسية والفكرية، وكافة المؤسسات السياسية، الحزبية، النقابية، الاجتماعية، الثقافية، الشبابية، فى جبهة وطنية متحدة واسعة تؤمن مسار الوطن واستقراره، ولا يخرج عنها إلا حفنة عملاء الاستعمار والإمبريالية. والمهم فى هذا المحور إنما هو ما أصبح مفهومًا اليوم باسم «الوفاق الوطنى»، ليس بمعنى سلبى، وإنما بالمعنى الإيجابى الفاعل السيادى.

ثالثًا: المحور الثالث يتعلق بوصف مصر ومكانتها فى العالم، الذى أصبح

منذ ١٩٤٦ مسيرة هائلة تنتقل من مرحلة تغيير العالم إلى مرحلة صياغة العالم الجديد. وقد رفعت «اللجنة الوطنية» آنذاك مستوى فهم العالم من مجرد «العلاقات الدولية» الشكلية، إلى «السياسة الخارجية» بكل معانى الكلمة. أى أن مكانة مصر فى العالم لا يمكن أن تتحدد على أساس القبول بالوضع الراهن، وأن مصر ليست إلا وحدة تتشكل حسب ردود الأفعال الطارئه لإرادة الدول العظمى. وإنما مكانة مصر تتحدد بدءًا من نظرة مصر إلى مختلف القوى فى العالم. ومن هنا كان لزامًا على مصر أن تتحالف مع الدول والحركات والقوى التى تواجه الاستعمار والإمبريالية، وأن ترفض بشكل قطعى أية علاقة بالقوى الاستعمارية والإمبريالية تتعدّى حدود العلاقات الدبلوماسية السلامية التعليمية. من هنا جاء شعار «نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا»، ودور مصر التكوينى فى مؤتمر باندونج (١٩٥٥)، ثم تحالف مصر مع الاتحاد السوفييتى الذى لولاه لما استطعنا أن نبنى القاعدة الصناعية والحربية التى مكنتنا من التحرك الإستراتيچى فى مواجهة العدو حتى العبور.

رابعًا: محور تحديد الثقافة على أنها أولاً وقبل كل شىء «الثقافة الوطنية» وأن هذه الثقافة تعنى: تعبئة كافة طاقات حضارتنا المصرية السبع ألفية على اختلاف عصورها الفرعونية والقبطية والإسلامية العربية فى المقام الأول، مع الأخذ بكافة المعطيات الإيجابية للحضارات والثقافات الأخرى، بما فى ذلك الحضارة الغربية وذلك فى عملية انتقائية تهدف إلى دعم فعاليتنا، واحترام خصوصيتنا، بدلاً من التقليد والتبعية والانحدار. وكذا فإن مفهوم «الثقافة الوطنية» يقتضى أن تتحدد «سياسة ثقافية» قادرة على إنجاز مهام الثقافة الوطنية لا أن تتحول الثقافة إلى علاقات مجاملة وتطبيع واستياق إلى دروب التبعية والانبهار الشكلى واحتقار الذات.

خامسًا: حددت «اللجنة الوطنية» أن هذه المداخل الرئيسية تهدف إلى تحقيق نهضة مصر الحضارية ــ فى طريق رفاعة الطهطاوى، طريق تورات ١٨٨١ و١٩١٩ و١٩٣٥ التى نحتها محمود مختار فى عمله الرائد «نهضة مصر» الذى انتقل بكل جدارة أمام مدخل جامعة القاهرة، بينما ارتفعت قامة تمثال رمسيس الثانى فى باب الحديد. ولم يبق أمامنا إلاّ أن نتفق على من يحتل ميدان التحرير، خاصة بعد أن رضينا بالوفاء تجاه محمد على، بانى مصر الحديثة، فى الإسكندرية، وإبراهيم باشا، سارى عسكر

جيوش مصر، فى ميدان الأوبرا ـ العتبة الخضراء فى قلب العاصمة. ومعنى هذا أن «اللجنة الوطنية» أدركت أن تعبئة طاقات مصر لا يمكن أن يحقق مجرد التنمية أو إصلاح المبانى أو تلميع القصور أو استيراد الكماليات، بل إنها تتم على أساس البناء فى الأعماق. إن تعبئة مصر وتحركها لا يمكن إلا أن يكون حضاريًا بكل معانى الكلمة، أى أن يفتح الطريق إلى مرحلة جديدة بعد المراحل الثلاث الكبرى السابقة لكى تحتل مصر مكانتها الرائدة اللائقة بها، جنبًا إلى جنب مع القوى الإيجابية الفاعلة فى عصرنا لتقديم نمط بديل من الحضارة تجمع بين استقلال القرار وأولوية مكانة الشعب العامل والقوى الوطنية والأفكار الإبداعية النابعة من خصوصيتنا والقيم الروحية التى دومًا واكبت تحركنا.

سادسًا: وعبر هذه المعانى التى نستخلصها من إعلانات وكتابات «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» عام ١٩٤٦ يبرز محور ما زال حتى اليوم هو المحور الحيوى فى حياتنا القومية كلها. إنه محور الربط العضوى الذى لا ينفصم بين الداخل والخارج، بين توكيد سيادة شعب مصر فى الداخل إيذانًا برفع مقام مصر بين الأمم فى الخارج. أى أنه لا يمكن أن يتم توكيد مكانة مصر وضمان مستقبلها إلاّ لو تولّى شعبها بكافة عناصره التكوينية واتجاهاته السيادة الكاملة فى ضمان الاستقرار وصحة القرار وتحقيق الرفاهية والتضامن داخل دائرة الأمة.

دارت الأيام. جاءت الحروب والهبَّات الثورية. شاهدنا الانتكاسات والتبعية. وعبر هذا وبعد هذا صحوة الوطنية والإرادة والإصرار.

قال صاحبى: «أخيرًا فهمت حكايتك.. رأيتك حائرًا واجمًا بدلاً من الاحتفال بعيد ميلادك الخامس والسبعين يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٩٩، وقد اخترت أن يكون لإقامة الصلاة على روح الوالدين، والتأمل فى مسيرة الرواد الشهداء والراحلين.. ثم كانت المفاجأة. نعم: عودة الروح فى مواجهة التحدى!... بالله عليك: من كان يحلم بطائرة شهيدة تفتت الأوهام، تخترق السواد، تلهب قلوب المصريين؟... عجبى!...»

❁ ❁ ❁

ـ ٥٦ ـ

أحمد عبد الله: ماذا لو أنصفت مصر أبناءها؟...

ماذا لو أنصفت مصر أبناءها؟

أقول هذا فى لحظة يغادر فيها هذه الدنيا وجهان عزيزان من الحركة الوطنية والتقدمية المصرية، أيام تشهد تساؤل أحباء الوطن عن انكسار مسيره الصديق أحمد عبد الله، زعيم الحركة الطلابية فى السبعينات، ورئيس مركز الجيل للدراسات الشبابية، وقد لحق به بعد أيام زميل أيام الشباب يوسف درويش، المدافع عن حقوق العمال والحركة النقابية على امتداد ستة عقود..

كيف يكون الشباب؟

السؤال ـ التساؤل بدأ من إدراك قطاع واسع من المصريين أن هناك شيئًا ما ينقص فى الصورتين. الصورة الأولى كانت لشاب لامع عرف طريقه إلى قياده الحركة الطلابية فى السبعينات حتى مرحلة ما بعد فك الاشتباك فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣، مرحلة كانت تبدو على اتصال بالتوجه السائد فى الحركات الطلابية منذ مطلع الأربعينيات من ناحية، وإن كان سرعان ما تباينت مسارات الحركات الطلابية فى مصر عبر ثوراتها، وخاصة فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، كانت تحرص كل الحرص على أن تؤكد انتمائها إلى نسق وإيقاع وأهداف الحركة والوطنية فى جميع مراحلها وعلى تنوع توجهاتها، الديمقراطية الليبرالية فى عصر الوفد، ثم التقدمية الثورية بين ١٩٣٥ حتى حرب أكتوبر، وقد امتزجت بتحرك شباب الضباط الأحرار الوطنيين، خاصة فى مرحلة حرب الاستنزاف، ثم عبور أكتوبر ١٩٧٣، بينما اتسعت ساحة الإسلام السياسى من ناحيتها.

إلى أن جاءت الحركة الطلابية الجديدة فى السبعينيات بقيادة الراحل الثائر أحمد عبد الله وكأنها تتفرد بالتطوع لتمثيل عنصر جديد، لا يكتفى بأنه شباب الأمة بطبيعة الأمر، وإنما قدم نفسه للرأى العام بوصفه رسول المستقبل بدءًا من كونه جيل الشباب، أى الجيل الجديد. قد ازدادت موجة التمايز بين مختلف أجنحة الحركة الوطنية من ناحية، والحركة الشبابية الجديدة، على الأقل فى نظر القيادة الجديدة، إلى حد أن أصبح مفهوم «الشباب» هو مفتاح مستقبل فى مقدوره أن يحقّق أهداف الحركة الوطنّية، وكذا التقدميّة المصريّة على تتالى مراحلها. كانت هذه هى الفكرة التى وجهت أحمد عبد الله إلى إنشاء مركز الجيل للدراسات الشبابية عام فى مقره بمنطقة عين الصيرة، حيث كان المسنون من أمثالنا يتدفقون لمتابعة هذا الجديد الواعد.

أترك الكلمة هنا للراحل العزيز الدكتور أحمد عبد الله إذ يقدّم هذا الجديد مثلاً فى كتابه «قضيّة الأجيال ــ تحدّى الشباب المصرى عبر قرنين» الصادر عن دار مصر المحروسة عام ٢٠٠٥:

«إن مهمة الجيل الحرج أصبحت اليوم هى تنظيف نفسه من عيوبه بقدر المستطاع. وليس له أن يعتمد فى ذلك على الجيل الأكبر الذّى أورثه هذه العيوب، ليس لكونها من مكونات الجيل الأكبر نفسه، ولكن لكونها من نتائج عملية «الخنق» التى مارسها الكبار على الصغار. وليس لذلك أن يعنى انقطاع عملية «تواصل الأجيال» فى المجتمع. فللتواصل طرائقه المختلفة. والطريقة المتاحة الآن هى أن يقوم الجيل الأصغر بنفسه باستخلاص عصارة فكر وتجربة الجيل الأكبر واستخدامها «كمادة خام» فى صياغة المشروع الفكرى والحركى الملائم لهذا الجيل الحرج ولهذا العصر الجديد. كما يتوجّب على الجيل الصغير أن يُقدّر للكبار كبرهم سواء من حيث احترام سنّهم وأشخاصهم كقيمة أساسية فى ثقافتنا، أو من حيث تقدير وتوقير إسهاماتهم الفكرية ونضالاتهم التاريخية من أجل صنع هذا البلد «وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان»؟ أمّا السؤال الأخير هنا فهو: هل يستطيع هذا الجيل الحرج «المحروق/ المشروخ/ المخنوق/ المقسوم/ غير المنتمى/ ذو المعايب الكثيرة» أن يكون جيل الخلاص المتحمل لمسئولية دخول بلده إلى قرن جديد وعصر جديد؟

هل يستطيع جيل ١٩٦٧ (النكسة) أن يصبح جيل ٢٠٠١ (العصر)؟

الإجابة هى: نعم، برغم كل هذا. وأسباب هذه الإجابة هى:

١ ـ **سبب موضوعى وذاتى:** هو أنه ليس أمام الجيل الجديد أىّ اختيار آخر. لأنّ الجيل الكبير هو جيل مُدبر لا بد وأن أفراده ملاقون ربّهم يومًا. وها هى رموز هذا الجيل تغادر دنيانا منذ عدة سنوات فى تتابع متسارع. أمّا الجيل الصغير فهو جيل مقبل، والجيل المقبل على المستقبل هو الذى يتحمّل مسئولية هذا المستقبل. إنّ حقائق «البيولوچيا» تفعل فعلها هنا حسبما يلخصه قول الشاعر: ولرب جيل قد مضى يتلوه بعد الجيل جيل.

٢ ـ **سبب موضوعى:** هو أن صنابير تسريب طاقات الجيل قد قاربت على الانغلاق. فباب الهجرة لحلّ مشاكل الأفراد قد أضحى مواربًا بعد أن كان مفتوحًا وغدًا يصير موصدًا. إنّ سفن ابن زياد تحترق ولن يكون أمام أبناء هذا الجيل إلاّ معالجة مشاكل البلد داخلها أو الاحتراق فى أتونها.

٣ ـ **سبب ذاتى:** إن بعض أبناء هذا الجيل قد شبوا عن الطوق فمنهم من حسم تردده بين الهجرة والبقاء فبقى. ومنهم من هاجر وعاد ليستثمر أمواله أو نفسه داخل بلده. ومنهم من نضج فى الفكر وبخاصة أولئك المنتمين الذين تلقوا تدريبًا أكاديميًا عاليًا وحصلوا على درجات علميّة داخل البلد أو خارجه، ومنهم من نضج فى الحركة وبخاصة أولئك الذين بدأوا نشاطهم السياسى غوغائيين (ديماجوجيين) أو متشددين فكريًا (دوجمائيين)، أو متشددين فى السلوك (الذين آمنوا بالعنف أو لجأوا أليه) ثم عركتهم التجارب فأنضجتهم.

فهل يكون اجتماع هذه الأسباب سببًا فى تنبه العناصر الحّية من أبناء هذا الجيل وفى استجماعهم لهممهم، وبداية رسم رتوش المشروع الفكرى والحركى لهذا الجيل «الحرج»؟

هذا هو السؤال الذى لا تكون الإجابة عنه بكلمة «نعم» أو كلمة «لا». وإنما تكون الإجابة «بفعل» الإسهام فى رسم رتوش مشروع الجيل».

تقديس الحرّية

كان إيمان الراحل العزيز بمفهوم الحرية، التى رفع مقامها إلى قيمة عليا مطلقة فوق ورغم كل ما تقدم عليها وأحاط بها، من الروافد والتحدّيات والحصار، وكأن الحرية تعلو ساطعة، رمزًا ومعنى «وقيمة» عليا خارج الزمان والمكان.

صفحات من كتاب الذكريات... كانت المناسبة ندوة عن الاستعمار والتمرد فى جامعة إيسيكس بمدينة كوفنترى فى مطلع السبعينات، وقد شاركت فيها نائبا لرئيس الاتحاد العالمى لعلم الاجتماع آنذاك. ساعة قبل العشاء دخل علىَّ شاب ملتهب الوجه قال إنه أحمد عبد الله. رحبت به بأحر الترحاب. بدأ على الفور بالعتاب والنقد القارص، يسألنى: كيف استطعت التهادن فى تقييمى لثورة يوليو ورئيسها رغم محاربتها لليسار فى مرحلتها الأولى، وكنت قد حاولت تقديم تحليل نقدى دقيق لجدلية تاريخ الثورة المصرية فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين فى كتاب «المجتمع المصرى والجيش» (١٩٦٢) رحبت بصادق النقد والشعور الجارف بحثًا عن الحقيقة. ومنذ هذه اللحظة أعلن قرار أحمد عبد الله أن يخاطبنى بلقب «بروفيسور» (الأستاذ) ـ رافضا الاكتفاء بتسمية «الدكتور» التقليدية.

أعلن صديقى الجديد أحمد عبد الله تقديسه لمفهوم الحرية قبل وفوق أى اعتبار، وشعرت أننى أحاول، وسأحاول، فى المستقبل عبثًا، أن أشرح الحراك الجدلى للمسيرة التاريخية التى تفرض على الدوام الواقعية والنقدية الإيجابية ـ وإلا توقفت المسيرة إلى صدامات لا وجهة لها. ثم عرفت أنه يعمل فى مطعم فى لندن لكسب العيش فى ظروف قاسية، وقد وجهته إلى جامعة كيمبردج حيث استقبله الدكتور جون دان، الذى كان ممن يلتفون حولنا أيام شبابه التقدمى فى نهاية الستينات، ثم تحول إلى مقام المنظر الأول لفلسفة الحرية السياسية والديمقراطية بمعناها الليبرالى المطلق عند أستاذه فيلسوف بريطانيا فى القرن السابع عشر «چون لوك».

وقد ظل الدكتور أحمد عبد الله على هذا الموقف بعد حصوله على أعلى مستوى من درجات الدكتوراه، بعد مرحلة دكتوراه الفلسفة التقليدية من جامعة كيمبردج، وقد تناسينا جميعًا العتاب والخلافات أمام هذا الإنجاز الممتاز بكل معانى الكلمة.

ماذا لو أنصفت مصر الدكتور أحمد عبد الله، العالم، المثقف، المناضل الوطنى رفيع المقام؟ لماذا لم تنصفه أى من جامعاتنا؟ وقد كان جديرا بارتقاء الأستاذية فى أحسن كلياتنا؟ لماذا لم تنفتح أمامه أبواب مراكز البحوث؟ كيف انصرفت عنه المؤسسات الحكومية والأهلية، وما سمى زهوًا بالمجتمع المدنى، ولعل وجوده مستشارًا لها يضفى عليها معالم الرقى والنبوغ، لماذا كان من نصيبه، قائدًا للحركة والثورة الطلابية فى السبعينات أن يذوق طعم الاضطهاد المرير، دون أن يشارك فى التصالح؟ لماذا ارتد إلى قلعته بين أطفال وشباب «مركز الجيل» فى عين الصيرة، وكأنه مجتمع الشباب الجديد الذى سيقيم هرم مصر المستقبلى، وحده؟

ماذا لو أنصفت مصر الدكتور أحمد عبد الله؟

مسيرة الحركة العمالية

ثم هذا زميل الشباب المحامى والمناضل الكبير يوسف درويش يرحل عن حياة حافلة بالعطاء والإنجاز. تشابكت أيادينا، عبر خلافات الشباب التى تثرى ولا تفرق بين «دار الأبحاث العلمية»، قائدتنا، و«لجنة نشر الثقافة الحديثة» التى أحياها زملاؤنا ورفاقنا أحمد رشدى صالح ويوسف درويش وأحمد صادق سعد، ونعمان عاشور، تشابكت أيادينا فى اتجاه إقامة الجبهة الوطنية المتحدة بدءًا من عام ١٩٤٦، وقد اختار يوسف درويش وزملائه طريقة التركيز على معارك الطبقة العمالية، بينما تحركنا صوب تكوين «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» فى الأساس.

دارت الأيام. وتوالت حملات الاضطهاد والاعتقال والتشتيت تحاول أن تمحو مكانة الحركة التقدمية المصرية فى طريقة تأريخ الحركة الوطنية فى عصرنا. وقد صمد يوسف درويش فى موقع المدافع الأول عن النقابات والحركة العمالية السنة تلو السنة. وكذا كان له سعى بارز للتحالف مع الشباب الوفدى، قلب حزب الوفد النابض فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين.

وقد اختار يوسف درويش لداره أن تكون ملتقى لزملائه وأصدقائه بعد نهاية مرحلة العمل القانونى المكثف، وقد كان فى هذا كله رمزًا للشجاعة والخلق النبيل

والإيمان بقيم الحرية والديمقراطية والتقدم، بحيث كان جديرًا بارتقاء عضوية مجالس إدارة الهيئات التى تعنى بالحريات على أرض الوطن.

ولكن شيئًا من هذا لم يحدث. ماذا لو أنصفت مصر الراحل الكبير يوسف درويش، ماذا لو فتحت أمامه أبواب المشاركة فى مجال الحريات وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية؟

ماذا لو أنصفت مصر؟!

لو أنصفت مصر أبناءها لما انتشر اليوم بين شبابنا الطالع هذا الشعور العارم بالحيرة والتوهان والضياع والسكينة وفقدان الاتجاه، إلى حد فقدان الأمل فى حالات عديدة.

لو أنصفت مصر أبناءها لاستطاع هذا الوطن العريق الجريح العظيم أن يقيم جسور التلاقى بين الأجيال المتتالية، وكذا التيارات والقوى السياسية والمدارس الفكرية على تنوعها، بحيث تشكلت شيئًا فشيئًا بشكل موضوعى هذه الجبهة الوطنية المتحدة التى يصبو إليها وجدان الشعب وفى قلبها شعب مصر وجيش الوطن، بدون استثناء ولا تمييز.

لو أنصفت مصر أبناءها لما استطاعت قوى الاختراق أن تكثف أساليب إغراء من يستشعرون بالضياع، فضلاً عن محترفى الانتفاع وما أكثرهم فى ظروف الانكسار والردة.

لو أنصفت مصر أبناءها لاستطاعت أن تصون الأمن القومى وتحقق تعبئة كافة الطاقات الوطنية، وهى جبارة حقيقة، وإن كانت فى كثير من الأحيان مهمشة إلى حد التغييب، بحيث تستطيع مصر أن تعبر مرحلة الانحدار والحصار وتعيد تكوين طلائعها عن القيادات والكوادر الإخصائيين.

قال صاحبه: «لو أنصفت مصر أبناءها... بل يصبح واجب علينا أجمعين أن نقول بصوت واحد دون اهتزاز: يجب على مصر أن تنصف أبناءها، دون تمييز، دون تردد، لكيلا يتكرر إهدار ثرواتنا البشرية، وهى مفتاح مستقبل!».

ـ ٥٧ ـ

نبيل الهلالى: من رسالة الرواد إلى الجيل الجديد

لا أحد يختار لحظته من التاريخ.

وإذ بالتاريخ المُلحّ يجمع بشكل مثير مؤلم بين كوكبة من أبرز وجوه الحركة التقدمية المصرية وطليعتها الشيوعية فى قلب الحركة الوطنية المصرية ومعاركها التحريرية، ترحل بين قيظ هذا الصيف، ومن قبله سنة مضت، توالت فيها التهديدات وحروب العدوان والعنصرية فى أجواء كالحة من الرجعية التى سعت إلى استعادة التبعية.

أكتب هذه السطور فى وداع الراحل الكبير نبيل الهلالى يلحق بمحمد سيد أحمد، وأحمد عبد الله ويوسف درويش، رواد من أسمى رموز الحركة التقدمية المصرية المعاصرة، ومن قبلهم وأثناء هذه السنة الواحدة أبو سيف يوسف، وألفريد فرج، وأحمد عباس صالح، ونخبة من قادة النقابات العمالية والمهنية، لحظة الفراق والوداع يجب أن تكون فى المقام الأول لحظة التقييم الجاد لما كان، وكان يمكن أن يكون، لما حققته المسيرة الطويلة المصرية، رغم محاولات تغييبها وما زال يستحث ويتحدى الأجيال الجديدة الطالعة إلى المزيد من البذل والإبداع.

الجبهة الوطنية المتميزة

أولاً: ولتكن نقطة البدء من خصوصية المسيرة الطويلة المضنية التى كانت من نصيب الحركة التقدمية وطليعتها الشيوعية منذ الأربعينيات من القرن العشرين حتى اليوم.

١ ـ يبدأ الاقتراب عادة من خصوصية هذه الحركة من عمق مسيرتها الطويلة، إذ يدرك الناس أن الحركة التقدمية المصرية التى ضعفت وتفككت، لم تنزو رغم مواجهة الاضطهاد وقسوة الضربات، بل ظلت فى طليعة قطاعات هامة من استمرارية التوجه الوطنى وكذا الريادة فى مجالات الثقافة الوطنية والفكر السياسى يدًا فى يد مع الحركة

الطلابية فى الأربعينات من القرن العشرين وكذا العمالية والشعبية بالمعنى الأوسع من الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، ثم مرحلة الثورة الاجتماعية من منتصف الخمسينيات من القرن العشرين حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣، هذا بينما كانت على الدوام ترفع لواء السيادة الوطنية ووحدة الشعوب العربية والتحالف مع كافة القوى والدول والحركات الشعبية والسياسية والمدارس الفكرية المناضلة ضد الإمبريالية والصهيونية والهيمنة.

٢ ـ جوهر هذه الخصوصية إنما يمكن فى رسالة الحركة التقدمية المصرية منذ ١٩٢١ حتى اليوم، ألا هى تعبئة قوى وطاقات شعبنا وأمتنا حول خط عام مركزى تستطيع مختلف مكونات الشعب ومدارسه الفكرية أن تعترف به تعبيرًا عن أهدافها الوطنية، وكذا رؤيتها المستقبلية، وبالتالى تحديدًا لمنهجها النضالى، بدلاً من رفع شعارات ونقل تجارب تدعى العالمية أو الكونية، ولكنها تعجز عن تخطيط مستقبل مصر، إذ تنبع من روافد ودوافع خارجة على خصوصيتنا.

ومن هنا رأينا أن معظم قوى حركتنا الوطنية تعترف، أو تدرك، أن هذه المسيرة الوطنية التقدمية الطويلة هى التى لعبت الدور الرئيسى فى صياغة الخط العام للحركة الوطنية منذ الأربعينيات إلى الستينيات من القرن العشرين، منذ برنامج «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» (١٩٤٦) «ميثاق العمل الوطنى» (١٩٦٢) بحيث أصبح هذا التوجه العام، وليس مجرد الخط السياسى، مرجعًا لشعبنا المصرى فى تقييم الموجات المتتالية للسياسات القائمة وكذا المطروحة على الساحة. ومن هنا كان اتجاه الحركة التقدمية المصرية، أو قل حساسيتها السياسية إنما هو السعى الدءوب المتصل الذى لا يعرف الافتعال ولا الكلل فى سبيل إقامة الجبهة: من الجبهة الوطنية المتحدة فى الأربعينات حتى اتحاد قوى الشعب العامل فى الستينيات من القرن العشرين، وكذا الجبهة بالمعنى المتخصص، أى السعى إلى جمع القوى التقدمية على وجه التخصيص، على أساس وطنى قومى شعبى يتجه إلى الاشتراكية.

٣ ـ نظرة إلى تاريخ مصر المعاصر منذ ثورة ١٩١٩، يكشف شراسة الإمبريالية والرجعية فى ضرب الحركة الوطنية، وقد نجحت أولاً فى عزل حزب الوفد المصرى بوصفه حزب الأغلبية بقيادة سعد زغلول، ثم مصطفى النحاس، من تولى السلطة،

رغم الأغلبية الواضحة التى ساندته بين ١٩١٩ إلى ١٩٥١ ، إلا لفترات متقطعة لم تصل فى مجموعها إلا إلى نحو سبع سنوات ونصف ، ثم استمر نفس المسلسل بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، إذ توالت الحروب ضد مصر وقيادتها الوطنية بدءًا من العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ثم عدوان يونيو ١٩٦٧ حتى العمل على إجهاض عبور أكتوبر ١٩٧٣ بتراجع معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٣ ، ثم توالى الحروب لتفتيت القومية العربية فى العراق وفلسطين حتى أرجاء السودان الشقيق ، بهدف كسر محور الوحدة المصرى ـ السورى ، ومحاصرة قوى مصر لاستنفاد طاقاتها ، بينما تكالب الغرب على استنزاف ثروات عوائد البترول الهائلة وتضييعها على القوة العربية.

وكان طبيعيًّا بالتالى أن تركز الإمبريالية ثم الصهيونية ضرباتها ضد الحركة التقدمية بوصفها طليعة الحركة الوطنية ، وذلك منذ تفتيت التحالف بين حزب الأغلبية والطليعة الشيوعية آنذاك عام ١٩٢٧ ، ثم تجريم الحركة الشيوعية على ١٩٢٨ ، وما تلى ذلك من تشرذم الحركة التقدمية وتنظيماتها.

٤ ـ من هنا بدأت موجات متتالية ، تسعى إلى توحيد الحركة التقدمية المصرية كى تتمكن من ضمان ريادة واتصالية التوجه إلى تكوين الجبهة الوطنية المتحدة ، بوصفها القاعدة الوطنية الشعبية المبدئية التى تجعل من الممكن تقدم قوى شعبنا المصرى العظيمة الكامنة لشق الطريق إلى الاستقلال والسيادة والديمقراطية الاجتماعية ، وكذا المشاركة الفاعلة مع كافة القوى العالمى التى تسعى إلى صياغة نظام عالمى جديد متعدد الأقطاب والمراكز والثقافات.

تنوعت الاجتهادات والمسارات حول أفضل الصيغ التى يمكنها تجميع جميع قوى وطاقات واتجاهات وتنظيمات الحركة التقدمية المصرية ، على شكل « تحالف » أو « تجمع » ، على أساس برنامج عام اتجاهى مشترك يمثل خلاصة تجارب وعطاء وكفاح اليسار الوطنى المصرى منذ العشرينيات من القرن العشرين.

وقد أسهم رواد الحركة التقدمية فى عملية تجميع صفوفها بصفة متصلة ، على تنوع تصوراتهم ومستوى اجتهاداتهم ، دون فقدان الاتجاه العام ، حتى عندما تبدت بعض الصيغ غير المألوفة ، ولكنها ظلت موجودة بوصفها اجتهادات تصب فى الهدف المشترك. وقد كان لآخر الراحلين الرواد أحمد نبيل الهلالى سعيًا ملحوظًا إلى هذه الغاية.

هل اكتملت الصورة، وإن كانت لا تتعدى مستوى المقدمة الأولية لملحمة طال تغييبها ولكنها استمرت وتعمقت رغم شراسة القمع؟

ثانيًا: وعندنا أن مراجعة مسيرة الحركة التقدمية المصرية منذ نشأتها عام ١٩٢١، وخاصة منذ الأربعينيات من القرن العشرين، تبرز بشكل متصل بُعدًا حيويًّا فى خصوصية معظم مدارس الفكر والعمل للحركة الوطنية المصرية حتى انكسار معاهدة كامب ديفيد، ألا وهو بُعد تحديد السياسة الخارجية، أى بوجه أدق مكانة مصر فى العالم ودورها الفاعل لتحريك معادلات وصيغ النظام العالمى، بحيث تستطيع مصر فى دائرتها العربية والإسلامية والشرقية أن تضيف بذلك ثراء جديدًا إلى ترسانتها.

٥ ـ اتجهت الحركة التقدمية المصرية منذ نشأتها إلى البحث عن قوى صديقة أو تساند التحرك المصرى الاستقلالى بوصفه قاعدة للثورة الاجتماعية تجاه الاشتراكية.

وقد تحقق ذلك فى العشرينيات من القرن العشرين فى عضوية الحزب آنذاك فى الدولة الثالثة (الكومنترن)، ثم مبادرته لاستئصال التوجه الصهيونى فى الحزب الفلسطينى الشقيق آنذاك، وتأثيره على استقلالية القيادة المصرية للحزب الشيوعى. نجحت نواة القيادة الوطنية، وفى قلبها الراحل الشهيد المغفور شعبان حافظ آنذاك، فى إقصاء الصهيونية من الدولية الثالثة فى مطلع الثلاثينيات.

واستمر هذا التوجه الوطنى الاستقلالى عند تجديد الحركة التقدمية فى مطلع الأربعينيات، ارتفع إلى مستوى جديد جمع بين التركيز على صياغة الخط العام للحركة الوطنية، كما حدده شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى فى «**أهدافنا الوطنية**» ثم برنامج «**اللجنة الوطنية للعمال والطلبة**» عام ١٩٤٦. وهو الخط الذى تأكد عندما انتقلت حركة الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر إلى مرحلة الثورة الوطنية ثم الاجتماعية بين ١٩٥٤، و ١٩٦٤ كما برهنت عليه النقلة من «**المبادىء الستة**» للثورة إلى «**ميثاق العمل الوطنى**» الذى عبر فيه «**مؤتمر قوى الشعب العامل**» عن إرادته بشكل ديمقراطى لم يسبق له مثيل منذ سنة ١٩٤٦.

وقد تجلى هذا السعى الدءوب للبحث عن قوى شريكة أو حليفة على الساحة

العالمية فى اتجاه قيادة الثورة إلى المشاركة التأسيسية فى أول مؤتمر لصحوة شعوب الشرق فى باندونج (أبريل ١٩٥٥)، ومنه الى تطوير حركة عدم الانحياز إلى مجموعة الحياد الايجابية (١٩٥٩)، وحركة تضامن القارات الثلاث (١٩٦١)، ثم التحالف مع الاتحاد السوفييتى الأسبق ومجموعة الدول الاشتراكية الأوروبية من ناحية، بينما كانت مصر أولى الدول العربية والإفريقية فى الاعتراف بجمهورية الصين الشعبية (١٩٥٦).

استطاعت مصر الثورة، إذن فى هذه الحقبة المضيئة الثرية، أن تحتل مكانتها عاملاً ثريًا مرموقًا فاعلاً فى جبهة الدول والشعوب الساعية لكسر النظام الإمبريالى بعد الحرب العالمية الثانية، وبناء عالم جديد تتعايش فيه الدول والثقافات والشعوب، على أساس الاستقلال والسيادة، وكذا التضامن لتحقيق تقدمها الاقتصادى والمجتمعى فى عالم يسوده السلام رغم تهديد الإستراتيجية النووية فى قلب منظمة حلف شمال الأطلنطى، لسان حال الرأسمالية العالمية والإمبريالية الغربية بقيادة الولايات المتحدة.

٦ ـ ولكى تتحقق تعبئة كافة الطاقات، وكذا الحيوية المصرية فى جبهة وطنية متحدة مؤثرة، كان لا بد أن تبادر الحركة التقدمية وتقود الطريق للقضاء على تلك الحرب فى الظلام التى أشعلها أعلام النفاق المقنعين آنذاك، بإثارة ما أطلقوا عليه «أزمة المثقفين» للتفرقة بين «أهل الكفاءة»، أى طلائع الحركة الوطنية التقدمية والثقافية من ناحية، و«أهل الثقة» المتمثلين فى جهاز الحكم الجديد. وكانت قوى الفرقة والنفاق بلغت حدًا دفع الحكم الجديد للإطاحة بالحركة التقدمية المصرية، قياداتها وكوادرها ونشطائها بين ١٩٥٤ و ١٩٦٤، بقسوة وشراسة لم تعرفها مظالم الحكم قبل ذلك. كانت حقيقة حربًا فى الظلام أشعلها رجال الظلام. وقد استطاعت الحركة التقدمية أن ترتفع لمستوى مسئوليتها التاريخية، وأن تتعدى جراحها وعذابها، بحيث اضطرت قيادة الثورة أن تعود إلى صوابها، مما فتح الطريق أمام جبهة وطنية مؤثرة، لأول مرة فى تاريخ مصر منذ ١٩٦٥ حتى وفاة رئيس مصر وقائد ثورتها، وقد امتدت عبر مرحلة حرب الاستنزاف حتى عبور أكتوبر عام ١٩٧٣، وإن كان ذلك فى انحسار مطّرد.

الشرق الحضارى

٧ ـ إلى أن جاءت مرحلة تغيير العالم موجة حركات وثورات وحروب التحرير

ضد منظومة الدول الاستعمارية والإمبريالية الغربية أولاً، بين ١٩٤٩ لحظة تأسيس جمهورية الصين الشعبية، و١٩٧٣ سنة انتصار ثورة فيتنام وعبور أكتوبر، أى المرحلة التاريخية التى عبر عنها مؤتمر باندونج بوصفه العلامة الاتجاهية المميزة. ثم كان لانهيار الاتحاد السوفييتى الأسبق والكتلة الاشتراكية الأوروبية، ومعها نظام القطبية الغربية الثنائية عام ١٩٩١، تعلن بداية مرحلة تأجج عناصر وقوى فاعلة جديدة تتجه إلى صياغة النظام العالمى الجديد، التى قرر الغرب أن يتمركز حول الهيمنة الأمريكية الأحادية، بينما اتجه الشرق الحضارى إلى صياغة عالم جديد متعدد الأقطاب والمراكز والثقافات، وفى طليعته الصين فى قلب آسيا الشرقية، يدًا فى يد مع ساحة هائلة اتجهت عبر آسيا الوسطى إلى روسيا، فى إطار «منظمة شانجهاى للتعاون»، ثم بدأت تقيم الجسور مع مجموعة مؤثرة من دول العالم الإسلامى، وكأن الدائرتين الرئيستين الصينية والإسلامية، للشرق الحضارى بدأتا تشكلان نواة هذا العالم الجديد المتجة إلى دائرة روسيا الأوروبية، الآسيوية، ثم أمريكا الوسطى والجنوبية اللاتينية، وإن ظلت دوائر هامة فى منطقتنا، وكذا، أوروبا تتحرك تحت مظلة الهيمنة الأمريكية.

هذه إذن لحظة تتحدى حركتنا الوطنية إلى المشاركة فى صياغة العالم الجديد. ولكن الملفت أن غالبية القوى والأحزاب السياسية المصرية لم تمنح بعد مكانة العمل المصرى فى العالم الجديد ما هى جديرة به من اهتمام مركزى، ما دام أن مكانة مصر الجيوسياسية تؤثر بالغ الأثر على حراكها الداخلى. غالبية القوى والأحزاب، باستثناء الحركة التقدمية المصرية، فقد انطلقت من بين صفوفها محاولات هامة للحاق بالقوى الفاعلة فى صياغة العالم الجديد. اتجهت بإجماع ملفت إلى المشاركة فى الحركات المناهضة للعولمة تحت الهيمنة الأمريكية الغربية. ثم عملت على تعميق مختلف صيغ التعاون والتحالف مع القوى المعادية للإمبريالية والعنصرية والحروب العدوانية الاستباقية، خاصة على أرض فلسطين والعراق، بينما استسلمت الطلائع التحديثية التقليدية إلى الأمر الواقع.

٨ ــ ثم ارتفعت الدعوة من قلب صفوفها إلى رفع مستوى الاهتمام بالتوجه الحضارى، وقد بدأ العالم يدرك، فجأة، أن القوى الرئيسية التى تعمل على صياغة عالمنا الجديد فى مطلع هذا القرن الجديد إنما تأتى من الشرق الحضارى بأوسع معانيه،

إلى درجة جعلت من حلف شمال الأطلنطى فى صورته الجديدة صورة حلفًا عسكريًّا لمختلف دول وقوى الغرب، تتكاتف لوقف صعود الشرق فى قلب العالم الجديد، بكل ما تملك من طاقات حربية وسياسية واقتصادية وعلمية وثقافية.

مجرد خطى على عتبة البحث عن الجديد المرتقب فى المسيرة الطويلة التى لم تنقطع ليست لحظة الفراق إذن وداعًا للرواد الراحلين، وإنما إرثًا يتحدى أجيالنا الجديدة إذ تسعى إلى العمل ليكون الأمل.

قال صاحبى: «عفارم عفارم، عفارم عليك!... أهذا حقيقة أسلوب العزاء؛ أم أنكم مازلتم تحلمون بالتحرر وديمقراطية الشعب والاشتراكية، بالإضافة إلى حكاية ريح الشرق التى تعشقها؟...».